كتاب

# الذريعة إلى مكارم الشريعة

للشيخ أبي القاسم الحسين بن محمد
ابن المفضل الراغب الأصفهاني
رحمه الله
آمين

***

راجعه وقدم له

**طه عبد الرؤوف سعد**

---

الطبعة الأولى
١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م



الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابي
٩ شارع الصنادقية بميدان الأزهر
ت ٩٣١٢٩٦

كتاب

# الذريعة إلى مكارم الشريعة

للشيخ أبي القاسم الحسين بن محمد
ابن المفضل الراغب الأصفهاني
رحمه الله
آمين

---

راجعه وقدم له وعلق عليه

طه عبد الرءوف سعد

الطبعة الأولى

١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م



---

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابي
٩ شارع الصنادقية بميدان الأزهر
ت ٩٣١٢٩٦

مطبعة حسان
٢٤١ شارع الجيش

بسم الله الرحمن الرحيم

# كلمة الناشر

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تكتب لنا فى ميزان الحسنات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين ساروا وراءه واتبعوا طريقه ففازوا بخير الدنيا ونعيم الآخرة وذلك هو الفوز العظيم . وبعد :

قارئنا العزيز : قد عودناك دائما أن نطلع عليك بكل عزيز وطريف . وكل ماله وزن وقيمة فى سوق الكتاب العربى ، فنحن لا نألوا جهداً ونضحى بكل غال ونفيس فى أشرف الميادين . . ميدان الثقافة العربية . ولاغرو فقد سدت مكتبتنا ـ جعلها الله مناراً لخدمة العلم والدين ـ سدت ركنا كبيراً فى نشر الثقافة العربية . وإن كان لنا أن نذكر فضلا فهو لله الذى يسرنا لذلك . وكل ميسر لما خلق له . . ثم تأتى أنت أيها القارىء العزيز بعد ذلك بتشجيعك لنا الذى يتخذ صوراً عديدة من اقتناء كتبنا إلى مراسلتك لنا ومقترحاتك ورغباتك التى نحاول بعون الله القدير أن نلبيها ونحققها لك . لانطلب من وراء ذلك إلا ثواب العليم الخبير . ورضاك عنا ووضع يدك فى يدنا حتى نسير فى سبيل غايتنا وغايتك .

وها نحن اليوم نقدم لك هذه الجوهرة الثمينة والدرة اليتيمة كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة» واحدة من تحف الإمام الراغب الأصفهانى راجين من الله العلى القدير أن ينفعنا به وإياك ويوفقنا إلى العمل بما فيه . إنه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

الناشر

# مقدمة

الحمد لله أمرنا أن نتصف بالأخلاق الكريمة ، وأشهد أن لا إله إلا الله نهانا عن النفوس الشريرة ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى مدحه الله بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » والمعترف بنعمة الله عليه بقوله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة إلى يوم الدين .

أما بعد : يظن كثير من الناس أن الدين الإسلامى عبارة عن شعائر الصلاة والصوم والزكاة والحج وأنه دين تعبد فقط . وينسون الشطر الثانى من الدين الإسلامى وهو حسن الأخلاق وتربية النفوس وتهذيب الأرواح وترقيتها .

والفقهاء – شكر الله سعيهم . . قد زادوا وأفاضوا فى كتب الفقه ، يزيدون ويعيدون فى شعائر الإسلام المعروفة التى يستطيع كل مسلم أن يؤديها فى منتهى السهولة واليسر يتعلمها الأبناء عن الآباء ، حتى لقد تشابهوا عندى بالفلاسفة وعلماء الكلام الذين حاولوا أن يثبتوا وجود الله وصفاته فدخلوا فى متاهات وزحاليق ما كان أغناهم عنها قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، وقول الأعرابى الجاهل وإن أخطأه جمال التعبير « البعرة تدل على البعير » .

وهكذا نرى إناساً يصلون ولا تنهيهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر . فويل لهم إذ لم تأمرهم صلاتهم بالمعروف والأخلاق الحميدة ، وهناك من يصوم وليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر .

ماسبب هذا : لا أرى سبباً لكل هذا إلا ضعف الأخلاق .

ومن هنا نرى القرآن الكريم بأجزائه الثلاثين وسوره المائة والأربع عشرة

ليس به إلا آيات معدودات تذكر فيها قواعد الإسلام الخمس ، وباقيه عظات وعبر تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . والقاعدة مطلوبة ولا يقوم بناء إلا عليها ، ولكن لو وضعنا القواعد للبناء فقط ولم نتمه فليس هذا هو البناء المطلوب .

أيها المسلمون : الأخلاق . . الأخلاق ! ! فقد كان من أهم أسباب الرقى الإسلامى والتقدم هو الأخلاق وهو أهم درس أخذته عنا أوربا حين نهضتها ونسيناه نحن أو تناسيناه .

ومن هنا نعرف أهمية هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم فهو النصف الثانى من الدين وهو البناء الجميل فوق الأساس العظيم :

فإنما الأمم الأخلاق مابقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون » . وقوله عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

هذه هى مكارم الشريعة وهى اسم لما لا يتحاشى من أن يوصف به البارى جل ثناؤه نحو الحكمة والجود والحلم والعلم والعفو .

نفعنى الله وإياك أيها الأخ المسلم به ، وهدانا إلى العمل بما فيه ، وجعلنا من « الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه » ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه .

« المحقق »

# مقدمة لتاريخ حياة المؤلف

**اسمه وكنيته ولقبه** : هو : الحسين بن محمد بن المفضل ، أبو القاسم ، الراغب الأصفهانى ، أو ( الأصبهانى ) .

وفى فهرس الخزانة التيمورية ٣ : ١٠٨ « الحسين بن المفضل بن محمد » .
وانفرد السيوطى فى بغية الوعاة ص ٣٩٦ بتسميته « المفضل بن محمد » .

**نشأته وعلمه**: أديب من الحكماء وعالم من الفقهاء من أهل ( أصبهان ) . من اطلع على كتبه علم ما للرجل من الرسوخ فى التحقيق وسعة الاطلاع وكمال القدرة. سكن بغداد واشتهر بها حتى أن الإمام فخر الدين الرازى – فى كتابه تأسيس التقديس – كان يقرنه بالغزالى ، وحتى أخذ الإمام البيضاوى فى تفسيره غالب تحقيقاته عن كتاب تفسير لم يتم للراغب الأصفهانى .

وهو من أهل السنة : إذ كان يرد على المعتزلة والجبرية والقدرية فى كتابه مفردات غريب القرآن .

**كتبه** : « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء » فى جزئين يضم مختارات من الأخبار والأقوال والأشعار . مطبوع بجمعية المعارف القاهرة ١٣٠٥ هـ

تفصيل النشأتين : فى أحوال الآخرة . مطبعة ثمرات الفنون . بيروت ١٣١٩ هـ يبحث فى الحكمة وعلم النفس .

المفردات فى غريب القرآن : الذى تتبع فيه دوران كل لفظ فى الآيات القرآنية وأتى بالشواهد عليه من الحديث والشعر . وأورد ما أخذ منه من مجاز وتشبيه، ورتبه على الألفباء . مطبوع بالمطبعة الميمنية – القاهرة ١٣٢٤ هـ ومطبوع أيضاً

بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٣٨١هـ ١٩٦١م .

جامع التفاسير : لم يكمل وهو الذى استفاد منه الإمام البيضاوى فى تفسيره وقد طبعت مقدمته .

الأخلاق أو ( أخلاق الراغب ) مخطوط .

حل متشابهات القرآن - ( مخطوط ) .

تحقيق البيان فى تأويل القرآن - مخطوط - فى اللغة والحكمة

وكتاب فى الاعتقاد : مخطوط .

أفانين البلاغة : مخطوط .

أدب الشطرنج : مخطوط .

الذريعة فى أحكام الشريعة : وهو الكتاب الذى نقدمه إليك ولن أذكر لك عنه شيئاً فحسبك أن الإمام الغزالى كان يحمله معه دائماً فى رحلاته .

مولده ووفاته : لم تذكر المصادر التى بين أيدينا تاريخ ميلاده . أما تاريخ وفاته فقد اختلفوا فيه أولم يذكروه أيضاً : فالبيهقى فى تاريخ حكماء الإسلام لم يذكر له تاريخ وفاة وإن كان قد ذكر فى هامشه أن وفاة الراغب كانت سنة ٤٠٢ هجرية فى أصح الروايات ؟!

أما كشف الظنون ١ : ٣٦ فقد ذكر أنه توفى سنة نيف وخمسمائة .

أما كتاب سفينة البحار ١ : ٥٢٨ فقد ذكر أن وفاته كانت بعد المائة الخامسة .

وفهرس الخزانة التيمورية ٣ : ١٠٨ ذكر أن وفاته سنة ٥٠٣ كما حققه بعض المستشرقين .

ومجلة المجمع العلمى العربى ٢٤ : ٢٧٥ وفيها أن وفاته كانت سنة ٤٥٢هـ .

أما السيوطى فى بغية الوعاة ص ٣٩٦ فقد ذكر أن وفاته كانت فى أوائل المائه الخامسة .

والصحيح أنه توفى سنة اثنتين وخمسمائة هجرية الموافقة لسنة ألف ومائة وثمانى ميلادية .

رحم الله الراغب وجزاه عما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء .

# مراجع المقدمات


١ — غالب كتب الراغب المطبوعة والمخطوطة التي ذكرت في المقدمة .

٢ — تفسير الإمام البيضاوي .

٣ — روضات الجنات .

٤ — سفينة البحار .

٥ — فهرس الخزانة التيمورية .

٦ — مجلة المجمع العلمي العربي .

٧ — بغية الوعاة للسيوطي .

٨ — الأعلام للزركلي .

٩ — كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون .

١٠ — الموسوعة العربية الميسرة .

كتاب

# الذريعة إلى مكارم الشريعة

للشيخ أبي القاسم الحسين بن محمّد
ابن المفضل الراغب الأصفهاني
رحمه الله
آمين

****

راجعه وقدم له

طه عبد الرءوف سعد

---

الطبعة الأولى
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

---

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابي
٩ شارع الصنادقية بميدان الأزهر
ت ٩٣١٢٩٦




نسأل الله تعالى أن يجعل لنا بجوده الذى هو سبب الوجود نوراً يهدينا إلى الإقبال عليه ، ويميل بنا إلى الإصغاء إليه ويدلنا على حسن معاملته والقوة على النفاذ فى طاعته ، وأن يجعلنا من جملة من ضمن أن يحرسهم من غائلة الشيطان حيث قال : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » وجعلهم الشيطان مثنوية اليمين حيث قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » .

قال الشيخ : أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب رحمه الله كنت قد أشرت فيما أمليته من كتاب تحقيق البيان فى تأويل القرآن إلى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها ، وإن المكارم المطلقة هى اسم لما لا يتحاشى من أن يوصف البارى جل ثناؤه بها أو بأكثرها نحو الحكمة والجود والحلم والعلم والعفو ، وإن كان وصفه تعالى بذلك على حد أشرف مما يوصف به البشر ، وأن الأحكام تتناول ذلك فى العبادات وأنه باكتساب المكرمة يستحق الإنسان أن يوصف بكونه خليفة الله تعالى المعنى بقوله عز وجل : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » وبقوله تعالى : « ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » ، وبقوله تعالى « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » وأشرت أن خلافة الله عز وجل لا تصح إلا بطهارة النفس كما أن أشرف

العبادات لا تصح إلا بطهارة الجسم وقد استخرت الله تعالى الآن وعملت فى ذلك كتاباً يكون ذريعة إلى مكارم الشريعة وبينت كيف يصل الإنسان إلى منزلة العبودية التى جعلها الله تعالى للأتقياء وكيف يترقى عنها إذا وصلها إلى منزلة الخلافة التى جعلها الله تعالى شرفاً للصديقين والشهداء، فبالجمع بين أحكام الشرع ومكارمه علما وإبرازهما عملا يكتسب العلى ويتم التقى وتبلغ إلى جنة المأوى ورغبنى أيها الأخ الفاضل وفقك الله وأرشدك وأعاذك من شر نفسك فى تصنيفه ما رأيت من تشوقك بأن تزين ماولاه الله تعالى من حسن خَلقك وخُلقك بما يتولاه من تحسين أدبك وإكمال مروءتك فما أجدر مخبالك الصبيح أن يحصل وراء الرأى الصحيح . شعر :

حتى تصادف اترجا يطيب معا حملا ونوراً فطاب العود والورق

فما أقبح المرء أن يكون حسن جسمه باعتبار قبح نفسه جنة يعمرها بوم وصرمة يحرسها ذئب كما قال حكيم لجاهل صبيح الوجه ، أما البيت فحسن وأما ساكنه فردىء ، وأن يكون باعتبار كثرة ماله وحسن أثاثه ثوراً عليه حلى فقد سمى بعض الحكماء الأغنياء الأغبياء تيوسا صوفها درر وحمرا إجلالها حبر ، ودخل حكيم على رجل فرأى داراً منجدة وفرشاً مبسوطة ورأى صاحبها خلوا من الفضيلة فبزق فى وجهه فقال له ماهذا السفه أيها الحكيم قال بل هذه حكمة إن البصاق ليرمى فى أخس مكان فى الدار ولم أر فى دارك أخس منك فنبه بذلك على دناءة الجهل وأن قبحه لا يزول بادخار القنيات .

وكن أيها الأخ عالما وبعلمك عاملا تكن من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، واحذر الشيطان أن يسبيك ويغويك بأعراض الدنيا وزخارفها فيجعلك من أوليائه ويخوفك بوساوسه قال عز من قائل : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه » .

واعلم أنه قبيح بذى العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنساناً، أو إنساناً وقد أمكنه أن يكون ملكا وأن يرضى بقنية مستعارة وحياة مستردة وله أن يتخذ قنية مخلدة وحياة مؤبدة كما قيل:

فلم ير فى عيوب الناس شىء كنقص القادرين على التمام

وإن أردت أن تعرف بقاء العلماء الأتقياء فاعتبر ما قال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه: مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر وأعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة.

وإن أردت أن تشاهدهم فى الجنة يتنعمون فاستعد حال حارثة حيث قال للنبى عليه السلام أصبحت مؤمناً حقاً فقال عليه السلام لكل حق حقيقة. فما حقيقة إيمانك فقال فى جملة جوابه وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فصدقه النبى عليه الصلاة والسلام وقال له عرفت فالزم ولا يخدعنك عن طلب ذلك وإدراكه «الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون» فقد وصفهم الله بالصمم والعمى، إذ قال «ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون» ثم ذمهم بقوله «أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون» ثم فرق بينهم وبين من ضادهم فقال «مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون» فأخبر تعالى أنهم لا يسمعون ولا يبصرون لفقدان سمع القلب وبصره اللذين بهما تنال حقائق المسموعات والمبصرات.

وهذا الكتاب يشتمل على سبعة فصول وأبواب:

# الفصل الأول

## ( فى أحوال الإنسان وقواه وفضيلته وأخلاقه )

## الفصل الثانى

( فى العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها )

الباب الأول ـ فضيلة العقل .

الباب الثانى ـ أنواع العقل .

الباب الثالث ـ المكتسب من العقل الدنيوى والأخروى .

الباب الرابع ـ منازل العقل واختلاف أساميها بحسبها .

الباب الخامس ـ جلالة العقل وشرف العلم .

الباب السادس ـ الفرق بين العقل والعلم والمعرفة والدراية والحكمة .

الباب السابع ـ توابع العقل .

الباب الثامن ـ ثمرة العقل مع معرفة الله تعالى الضرورية والمكتسبة وغاية ما يبلغه الإنسان .

الباب التاسع ـ وجوب بعثة الأنبياء عليهم السلام وقلة الاستغناء عنهم .

الباب العاشر ـ ما تعرف به صحة النبوة .

الباب الحادى عشر ـ كون العقل والرسل هاديين للخلق إلى الحق .

الباب الثانى عشر ـ تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتدرب فى العلوم العقلية .

الباب الثالث عشر ـ فى الإيمان والإسلام والتقوى والبر .

الباب الرابع عشر ـ فى الإيمان .

الباب الخامس عشر ـ فى أنواع الجهل .

الباب السادس عشر ـ فى قول النبى صلى الله عليه وسلم الإيمان بضع وسبعون بابا .

## الفصل الثالث

( فيما يتعلق بالقوى الشهوية )

# الفصل الرابع

## فيما يتعلق بالقوى الغضبية

الباب الأول ـ ما ينبع من القوى الغضبية .

الباب الثاني ـ أنواع الصبر ومدحه .         الباب الثالث ـ الشجاعة .

الباب الرابع ـ أسماء أنواع الفزع والفرق بين ما يحمد ويذم منها .

الباب الخامس ـ مداواة الغم وإزالة الخوف .

الباب السادس ـ أحوال الناس فى محبة الموت والاحتيال لقلة المبالاة به .

الباب السابع ـ السرور والتوبة .         الباب الثامن ـ العذر والتوبة .

الباب التاسع ـ الحلم والعفو .   الباب العاشر ـ ثوران الغضب وفضل كظمه .

الباب الحادى عشر ـ الغيرة والجور .

الباب الثانى عشر ـ الغبطة والمنافسة والحسد .

# الفصل الخامس

## ( فى العدالة والظلم والمحبة والبغض )

الباب الأول ـ ذكر العدالة وفضيلتها .

الباب الثانى ـ أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه .

الباب الثالث ـ ما يحسن ترك العدالة فيه .      الباب الرابع ـ ذكر الظلم .

الباب الخامس ـ الأسباب التى يحصل منها الأضرار .

الباب السادس ـ ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة .

الباب السابع ـ ماهيه المحبة وأنواعها .       الباب الثامن ـ فضيلة المحبة

الباب التاسع ـ فضيلة الصداقة .   الباب العاشر ـ ذكر المحبة فى الناس .

الباب الحادى عشر ـ الحث على مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار .

الباب الثانى عشر — فضيلة التفرد عن الناس ورذيلته .

الباب الثالث عشر — فى المداوة .

# الفصل السادس

( فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والإنفاق والجود والبخل )

الباب الأول — حاجة الناس إلى اجتماعهم للتظاهر .

الباب الثانى — تسخير الله همم الناس للصناعات المختلفة وعناية كل أحد بما يتحراه .

الباب الثالث — كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس .

الباب الرابع — مناسبة الأبدان للصناعات ووجوب التكسب .

الباب الخامس — مدح السعى وذم الكسل .

الباب السادس — تقاسم الصناعات وفضيلة بعضها على بعض .

الباب السابع — فى أن أصول الصناعات مأخوذة عن وحى .

الباب الثامن — فى شأن الناض المتعامل به وبيان حكمة الله تعالى .

الباب التاسع — مدح المال وذمه .

الباب العاشر — ذكر المال والأدب فى اقتنائه والوجوه التى منها يحصل .

الباب الحادى عشر — سبب إخفاق العاقل ونجاح الجاهل .

الباب الثانى عشر — تحقيق كون المال فى أيدى الناس .

الباب الثالث عشر — تفاوت أحوال المتناولين للأعراض الدنيوية .

الباب الرابع عشر — فى بيان ما ورد من الآيات المتفاوتة الظاهرة فى شأن الدنيا .

الباب الخامس عشر — فى مراعاة أمور الدنيا والآخرة .

الباب السادس عشر — بيان حال من يجوز له الاستكثار من أعراض الدنيا ومن لا يجوز له ذلك .

## الفصل السابع فى ذكر الأفعال

# الفصل الأول

## فى أحوال الإنسان وقواه وفضيلته وأخلاقه وفيه أبواب

### الباب الأول — مثل أهل الدنيا وما رشحوا له

الإنسان فى هذه الدار كما قال علىّ رضى الله عنه : « الناس سفر والدنيا دار ممرّ لا دار مقرّ وبطن أمه مبدأ سفره والآخرة قصده وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله وأنفاسه خطاه يسار به سير السفينة براكبها كما قيـل :

رأيت أخا الدنيا وإن كان خافضاً أخا سفر يسرى به وهو لا يدرى

وقد دعى إلى دار السلام ، كما قال الله تعالى : ( لهم دار السلام عند ربهم ) وقال تعالى : ( والله يدعو إلى دار السلام ) وتوجه به إليها نحو أشرف الزهرات وألذ الثمرات جنات تجرى من تحتها الأنهار بل إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. لكن لما كان الطريق إليها مضلة مظلمة قد استولى عليها أشرار ظلمة جعل الله عز وجل لنا من العقل الذى ركبه فينا وكتابه الذى أنزله علينا نوراً هاديا ومن عبادته التى أمرنا بها حصناً وافياً ، فقال فى وصف نوره : ( الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درىّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس ) فجعل المصباح مثلا للعقل والمشكاة مثلا لصدر المؤمن والزجاجة لقلبه ، والشجرة المباركة وهى الزيتونة للدين وجعلها لا شرقية ولا غربية تنبيها على أنها مصونة عن التفريط والإفراط كما قال ( إن هذا القرآن يهدى للتى هى

أقوم ) والزيت القرآن وبين أن القرآن يمد العقل مد الزيت المصباح وإنه يكاد يكفى لوضوحه وإن لم يعاضده العقل ثم قال نور على نور أى نور القرآن ونور العقل ، وبين أنه يخص بذلك من يشاء .

وقال فى وصف ماجعله الله تعالى لنا من الحصن : ( إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ) أى المتخصصين بعبادتى فمن لم يقم برعاية نوره وحماية حصنه عمه فى دجاه وتمكنت من استغواثه عداه كما قال تعالى : ( ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ) فلم يتزوّد من دنياه زاده ، كما أمره بقوله تعالى ( وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ) وحانت رحلته فيسترجع منه ما أعير من جده وذات يده فيتحسر حين لا يغنيه تحسره ويقول يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، ويقول هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل فحينئذ لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ،وأيضاً فإن الإنسان من وجه فى دنياه حارث وعمله حرثه ودنياه محرثته ، ووقت الموت وقت حصاده والآخرة بيده ولا يحصد إلا ما زرعه ولا يكيل إلا ما حصده ، ولهذا قال تعالى ( من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من خلاق ) من نصيب ، وكما أن فى البيدر مكاييل وموازين وأمناء وحفاظاً ومشاهدين وكتاباً كذلك فى الآخرة مثل ذلك كما قال تعالى : ( ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ) وقال : ( إن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ) وقال : ( وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق ) وكما أن فى البيدر تذرية وتمييزاً بين النقاوة والحطام فكذلك فى الآخرة تمييز بين الحسنى والآثام كما قال الله تعالى ( ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض

فيركه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون ) وقال فى أعمال الكفار : ( مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ) وقال : ( وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ) فمن عمل للآخرة بورك فى كيله ووزنه وجعل له زاد الآخرة كما قال تعالى : ( ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ) ومن عمل لدنياه خاب سعيه وبطل عمله ، كما قال تعالى : ( من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ) فأعمال الدنيا كشجرة الخلاف بل كالدفلى والحنظل فى الربيع ترى غض الأوراق حتى إذا حان حين الحصاد لم ينل طائلا وإذا حضر مجتناه البيدر لم يفد نائلا ، ومثل أعمال الآخرة كشجرة الكرم والنخل والمستقبح المنظر فى الشتاء فاذا حان وقت القطاف والاجتناء أفادتك زاداً وادخرت منه عدة وعتاداً ، وإلى نحوهما أشار الله تعالى بقوله ( ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ) ولما كانت زهرات الدنيا رائقة الظاهر خبيثة الباطن نهى الله تعالى عن الاغترار بها فقال : ( ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ) والله تعالى يؤيد بفضله من يشاء وهو البارى .

## الباب الثانى — ماهية الإنسان وكيفية تركيبه

الإنسان مركب من جسم مدركه البصر، ونفس مدركها البصيرة وإليهما أشار بقوله تعالى : ( إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ) فالإشارة بالروح إلى النفس وإضافته تعالى الروح إليه تشريفاً لها

وعنى به النفس المذكور فى قوله تعالى ( اخرجوا أنفسكم ) ووجود النفس فى الإنسان لا يحتاج أن يدل عليه لوضوح أمره ، بل يتنبه الجاحد لها والغافل عنها بأنها هى التى بحصولها فى الجسم تحصل الحياة والحركة والحس والعلم والرأى والتمييز ، ويكون الجسم متصرفا بها وحاملا ومستحسناً ومستطاباً محباً ، وبفقدها عدم هذه الأشياء فيصير جيفة محتاجاً إلى عدة تحمله ، وهى محل الأعراض والروحانية كالجسم فى كونه محلا للأعراض الجسمانية . وقد حث الله تعالى على تدبر النفس والتفكر فيها وجعل معرفتها مقرونة بمعرفته تعالى فى قوله ( وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ) وقال تعالى ( سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ) .

وكان يقال فى الأمم السالفة من أنكر البارى رجم لكونه جاحداً ، ومن أنكر النفس رجم لكونه جاهلا ، وقيل كان فى كتب الله تعالى المنزلة اعرف نفسك ياإنسان تعرف ربك ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ( أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه ) بل قال الله تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) تنبيهاً أنهم لما نسوه تعالى دل نسيانهم إياه على نسيانهم لها . وقالت الحكماء قد ركب الله تعالى الإنسان تركيباً محسوساً معقولا على هيئة العالم وأوجد فيه شبه كل ما هو موجود فى العالم حتى قيل الإنسان هو عالم صغير ومختصر للعالم الكبير ، وذلك ليدل به على معرفة العالم فيتوصل بهما إلى معرفة صانعهما . فغاية معرفة الإنسان لبارئه تعالى أن يعرف العالم فيعلم أنه موجد وأن له موجداً ليس مثله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

## الباب الثالث

## ( فى تعديد قوى الإنسان وصفاته )

قد جعل الله تعالى للإنسان خمس قوى يدل على وجودها فيه ما يظهر من تأسيراتها :

قوة الغذاء : وبها النشور والتربية والولادة .

وقوة الحس : وبها الإحساس واللذة والألم .

وقوة التخيل : وبها تصور أعيان الأشياء بعد غيبوبتها عن الحس .

وقوة النزوع : وبها يكون الطلب للموافق والهرب من المخالف والرضى والغضب والإيثار والكراهة .

وقوّة التفكير : وبها يكون النطق والعقل والحكمة والرؤية والتدبير والمهنة والرأي والمشورة، فأما القوى المدركة منها فخمس : الحواس الخمس والخيال والفكر والعقل والحفظ،فأما الحواس فلكل واحد منها إدراك مخصوص؛ فللحس عشرة إدراكات الحرارة والبرورة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة. وللذوق سبع الحلاوة والمرارة والملوحة والحموضة والحرافة والعفوصة واللثغة ، وللشم اثنان الطيب والنتن ، وللسمع اثنان الصوت الخفيف والصوت الثقيل ، وللبصر أحد عشر إدراكا النور والظلمة واللون والجسم وسطحه وشكله ووضعه ورفعه وأبعاده وحركاته وسكناته وأعداده فأدون هذه الإدراكات اللمس ثم الذوق ثم الشم فالنفس لا تكاد تستعين بها إلا فيما يعود نفعها إلى صلاح الجسم وأرفع الإدراكات العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس؛ إلا أن العقل والفكر يدركان الأشياء الروحانية، فأما السمع والبصر

فهو متوسطان لأنهما يخدمان النفس والجسم وخدمتهما للنفس أكثر ويدركان الأشياء الجسمانية والتخيل متوسط بين العقل والفكر وبين السمع والبصر فيأخذ تارة من السمع والبصر ويسلمها إلى العقل والفكر وذلك فى حال اليقظة ويأخذ تارة من النوم، ولما كان مبدأ تأثير هذه القوى من الدماغ قيل مسكن الفكر وسط الدماغ ومسكن الخيال مقدمه ومسكن الحفظ والذكر مؤخره. ولما كان قوام الدماغ بل قوام الجسم كله من القلب الذى منه منشأ الحرارة الغريزية صار فى كلام الناس يعبر عن هذه القوى تارة بالدماغ فيقال لفلان دماغ إذا قويت منه هذه القوى، ويعبر عنها تارة بالقلب والثانى أكثر وعلى ذلك قوله تعالى ( إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ).

ولما كان إدراك أكثر الحقائق بهذه القوى المدركة وكانت الفكرة خادمة للعقل والتخيل خادماً للعقل والفكر تارة وللسمع تارة خص الله تعالى بالذكر القلب وهو أحد الطرفين والسمع والبصر وهو الطرف الآخر ولذلك عظم الله تعالى المنة على الإنسان بإعطائه إياه هذه الثلاث وحمد من استعملها وذم من أهملها فقال عز من قائل ( وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ) وقال فى ذم من لا ينتفع بها ( لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ) وقال ( صم بكم عمى فهم لا يعقلون ) أى لا يفهمون المعنى لا أنهم لا يسمعون الأصوات ولا يبصرون الذوات وجعلهم بكما من حيث إنهم لا يوردون معنى مستنبطاً بالفكر ومدركاً بالعقل. واعلم أن السمع والبصر كالأخوين يخدم كل واحد منهما صاحبه فى إدراكه فقد ينوب السمع عن البصر فى إبلاغ القلب بما يأخذه عن اللفظ فيدرك فى ساعة مالا يدركه البصر فى برهة وينوب البصر عن السمع فى إبلاغ القلب بمطالعة الكتب مالا يدركه السمع

فى مدة سيما إذا كان المخاطب ناقص العبارة أو غير متثبت فى الكلام أو دق المعنى وغمض .

## الباب الرابع

## ( فى تعاون القوى الروحانية وكيفيات إدراكها )

القوى الروحانية متعاونات فى إدراكهن رسوم المعلومات ، فإن الخيال يتصور عن المحسوس فتبقى صورته الروحانية فيه فينتقش بها نقش الشمع بصورة الختم ثم يأخذه الفكر فيميز بعضها عن بعض بنور العقل فيبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ثم يؤديه إلى القوة الحافظة فإن أراد إبرازه قولا سلط عليه القوة الناطقة فيعبر عنه باللسان ، وإن أراد إبرازه فعلا سلط عليه القوة الباطشة فيوجده بالجوارح .

وقد ضرب بعض الحكماء مثلا لهذه القوى يقرب منه تصور تأثيراتها فقال إن القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ بمنزلة الملك تسكن وسط المملكة والخيالية ، ومسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى صاحب بريده ، والحافظة ومسكنها مؤخر الدماغ جارية مجرى خازنه والقوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه والعاملة جارية مجرى كاتبه والحواس جارية مجرى الجواسيس وأصحاب الأخبار الصادقى اللهجات فيما يرفعوه من الأخبار فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع الذى وكل به فيرفعه إلى صاحب البريد يسقط ما يراه حشوا ويرفع الباقى صافيا إلى حضرة الملك فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ويسلمه إلى خازنه إلى وقت الحاجة فحينئذ يتقدم بإخراجه .

قالوا وكما أن للملك أفعالا يستعين فيها بغيره وأفعالا ينفرد فيها هو بنفسه

والأفعال التي يتولاها بنفسه أشرف من التي يفوضها إلى غيره كذلك للقوة المفكرة أفعال تفوضها إلى غيرها ، وأفعال تختص هي بها ، وهي الروية والفكر والاعتبار والقياس والفراسة ، فبهذه الأشياء تدبير الأمور ، فبالفكر استخراج الغوامض وبالاعتبار يحصل التجربة وبالقياس استنباط المجهول بتوسط المعلوم وبالفراسة الاطلاع على الأسرار . ونحو هذا المثل ما روى أن كعب الأحبار قال دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت ، الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك فإذا طاب الملك طاب جنوده ، فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

## الباب الخامس

## ( فى بيان فضيلة الإنسان على سائر الحيوان )

للإنسان فضل على الحيوانات كلها فى نفسه وجسمه أما فضله فى نفسه فبالقوة المفكرة التى بها العقل والعلم والحكمة والتدبير والرأى فإن البهائم وإن كان كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ولا روية ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف علل الأشياء ولا أسبابها وليس فى قوتها تعلم الصناعات الفكرية وإنما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة فأقواها فى ذلك الفيل والقرد . وأما فضله فى جسمه فاليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما أوجد فى هذا العالم وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله ( لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ) وقوله ( وصوركم فأحسن صوركم ) ولم يعن الصورة التخطيطية فقط بل عناها والصورة المعقولة ولتشريفه تعالى إياه بذلك قال ( ولقد كرمنا بنى آدم وحملناه فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ) .

ومن زعم أن الانسان خلق خلقة ناقصة عن الوحشيات من حيث إنه لم يتكفل الملبس كما كفيته ولم يعط سلاحاً فى ذاته كما أعطى كثير منها فنظره ناقص إذ قد أعطى الانسان بدل ذلك التميز الذى يمكنه أن يتخذ به كل ملبس وكل سلاح حسب ما يريده فيتناوله متى أراد ويضعه متى أحب ثم لو أعطى الإنسان بعض الأسلحة التى أعطيته لم يمكنه أن يستعمل غيره كالوحشيات وأيضاً فلو أعطى ذلك لكان من الحق أن لا يعطى التميز لأنه حينئذ كان يستغنى عنه فتبطل فائدته وفعل الله تعالى منزه عن ذلك . إن قيل كيف قال تعالى ( خلق الإنسان ضعيفا ) فاستضعفه قيل ضعفه بالإضافة إلى الملأ الأعلى لما فيه من الحاجات البدنية التى كفيها .

واعلم أن كل ما أوجد فى هذا العالم فإنما أوجد لأجل الإنسان إما لانتفاعه به كالخيل والبغال والحمير أو الأغذية له كالبقر والغنم والحبوب والثمار وإما لانتفاع ما ينتفع به الإنسان كالعشب والحشرات ومالا يعرف الإنسان نفعه فليس يخرج من كونه نافعاً وقد بين الحكماء نفع جلها ومالا سبيل لبعضنا أو لكلنا إلى معرفة نفعه فليس جهلنا به قدحا فى حكمة الله تعالى جده فى إيجاده ورب شىء جهلنا نفعه وقد سخر لمعرفته بعض الحيوانات كالشجر الذى فيه العسل بالقوة وما سخر لمعرفته واستخراجه إلى النحل وما أليق من أنكر حكمته تعالى بجهله بأن ينشد :

على نحت القوافى من مقاطعها ... وما على بأن لا يفهم البقر

والله أعلم .

## الباب السادس

## ( فى بيان ما يفضل به الإنسان )

الانسان وإن كان هو بكونه إنساناً أفضل موجود فذلك بشرط أن يراعى ما به صار إنسانا وهو العلم الحق والعمل المحكم فبقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضل ولهذا قيل الناس أبناء ما يحسنون أى ما يعرفون ويعملون من العلوم والاعمال الحسنة فقال أحسن فلان إذا علم وإذا عمل حسناً فأما الانسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة فى جدار وأما فضيلته فبالنطق وقواه ومقتضاه ولهذا قيل ما الإنسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة فالإنسان يضارع الملك بقوة النطق والعلم والفهم ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح فمن صرف همته كلها إلى تربية الفكر بالعلم والعمل فخليق بأن يلحق بأفق الملك فيسمى ملكا وربانياً كما قال تعالى ( إن هذا إلا ملك كريم ) ومن صرف همته كلها إلى تربية القوة الشهوية باتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فخليق بأن يلحق بأفق البهائم فيصير إما غمرا كثور وإما شرها كخنزير وإما ضرعا ككلب أو حقودا كجمل أو متكبراً كنمر أو ذاروغان كثعلب أو جامعاً كديك أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد وعلى ذلك قوله تعالى ( وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ) ولكون كثير ممن صورته صورة الإنسان وليس هو فى الحقيقة إلا كبعض الحيوان قال الله تعالى فى الذين لا يعقلون عن الله عز وجل ( إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ) وقال ( إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ) فبين أن الذين كفروا ولم يستعملوا القوة التى جعلها الله تعالى لهم هم شر الدواب وقال ( مثل الذين كفروا كمثل الذين ينعق بما لا يسمع إلا

دعاء ونداء ) أى مثل واعظ الكافرين كناعق الأغنام تنبيها أنهم فيما يقال لهم كالبهائم ولهذا النظر عبر الشاعر عن بعض من ذمه فقال :

اللؤم أكرم من وبر ووالده    واللؤم أكرم من وبر وما ولد

ولم يقل ومن ولدا تنبيها أنه لا يستحق أن يقال له من لكونه بهيمة (١) وعلى هذا قال المتنبى :

حولى بكل مكان منهم خلق    تخطى إذا جئت فى استفهامة بمن

ولما ذكرنا لم يكن بين بعض هذه الأنواع وبعضها من التفاوت ما بين إنسان وإنسان فإنك قد ترى واحداً كعشرة وعشرة كمائة بل واحد كمائة وعشرة أخرى هدره دون واحد كما قيل لامرأة فى منامها أعشرة هدره أحب إليك أم واحد كعشرة فقالت بل واحد كعشرة قال الشاعر :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا    لدى المجد حتى عد ألف بواحد

بل نرى واحداً كعشرة آلاف ونرى عشرة آلاف دون واحد كما قال عليه السلام وهو أصدق قيلا ( الناس كابل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة ) والإبل فى تعارفهم اسم لمائة بعير فمائة ابل هى عشرة آلاف بعير بل لو قيل قد نرى واحداً كعالم وعالما كواحد لجازا كما قال عليه السلام ( وزنت بأمتى فرجحتهم ) وعلى هذا قال أبو نواس :

ليس على الله بمستنكر    أن يجمع العالم فى واحد

---

(١) من المعلوم أن ما اسم موصول لغير العاقل ومن اسم موصول للعاقل .

## الباب السابع

## ( فى كون الإنسان بين البهيمة والملك )

الإنسان لما ركب تركيبا بين بهيمة وملك فشبهه للبهائم بما فيه من الشهوات البدنية من المأكل والمشرب والمنكح وشبهه للملك بما فيه من القوى الروحانية من الحكمة والعدالة والجود صار واسطة بين جوهرين رفيع ووضيع ولهذا قال تعالى ( وهديناه النجدين ) فالنجدان من وجه العقل والهوى من وجه الآخرة والدنيا من وجه الإيمان والكفر ومن وجه الهدى والضلالة ومن وجه موالاة الله عز وجل وموالاة الشيطان المذكورتان فى قول الله عز وجل ( الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من النور إلى الظلمات ) ومن وجه النور والظلمة المذكورتان فى هذه الآية أى الفضيلة والنقيصة ومن وجه الحياة والموت المذكوران فى قوله تعالى ( أومن كان ميتا فأحييناه ) فمن وفقه الله تعالى عز وجل للهدى وأعطاه قوة ليبلغ الهدى فراعى نفسه وزكاها فقد أفلح ومن حرمه التوفيق فأهمل نفسه ودساها فقد خاب وخسر كما قال الله سبحانه وتعالى ( قد أفلح من زكيها وقد خاب من دساها ) .

## الباب الثامن

## ( ما لأجله أوجد الإنسان )

الإنسان من حيث هو إنسان ، كل واحد كالآخر كما قيل :

فالأرض من تربة والناس من رجل

وإنما تشرف بأن يوجد كاملا فى المعنى الذى وجد من أجله وبيان ذلك أن

كل نوع أوجده الله تعالى فى هذا العالم أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعه فإنه موجد لفعل يختص به كالبعير إنما خص به ليبلغنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس ، والفرس ليكون لنا جناحاً نطير به والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما والباب لنحرز به البيت. فالفعل المختص بالإنسان ثلاثة عمارة الأرض المذكورة فى قوله تعالى ( واستعمركم فيها ) وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره وعبادته المذكورة فى قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وذلك هو الامتثال للبارى تعالى فى عبادته فى أوامره ونواهيه وخلافته المذكورة فى قوله تعالى ( ونستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) وغيرها من الآيات وذلك هو الاقتداء بالبارى سبحانه على قدر طاقة البشر فى السياسة باستعمال مكارم الشريعة ، ومكارم الشريعة هى الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس فى الحكم والإحسان والفضل والقصد منها أن يبلغ بذلك إلى جنة المأوى وجوار رب العزة تبارك وتعالى وكل ما أوجد لفعل مّا فشرفه لتمام وجود ذلك المعنى منه ودناءته لفقدان ذلك منه كالفرس للعدو والسيف للعمل المختص به فى القتال ومتى لم يوجد فيه المعنى الذى لأجله أوجد كان ناقصا فإما أن يطرح طرحا أو يرد إلى منزلة النوع الذى هو دونه كالفرس إذا لم يصلح للعدو اتخذ حمولة أو أعد أكولة والسيف إذا لم يصلح للقطع اتخذ منشاراً فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا لعبادته ولا لاستعمار أرضه فالبهيمة خير منه ولذلك قال الله تعالى فى ذم الذين تركوا هذه الفضيلة( إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ) .

## الباب التاسع

## ( السياسة التى يستحق بها خلافة الله تعالى )

قد تقدم أن الخلافة تستحق بالسياسة وذلك بتحرى مكارم الشريعة . والسياسة ضربان أحدهما سياسة الإنسان نفسه وبدنه وما يختص به والثانى سياسة

غيره من دونه وأهل بلده ، ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه ، ولهذا ذم الله تعالى من ترشح لسياسة غيره فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو غير مهذب فى نفسه فقال ( أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ) وقال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ) وقال ( يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ) أى هذبوها قبل الترشح لتهذيب غيركم . وبهذا النظر قيل تفقهوا قبل أن تسودوا أو تنبيهاً أنكم لا تصلحون للسيادة قبل معرفة الفقه والسياسة العامة ولأن السائس يجرى من المسوس مجرى ذى الظل من الظل ومحال أن يعوج ذو الظل ويستقيم ظله ولاستحالة أن يهتدى المسوس والسائس ضال قال الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ) فحكم أنه محال أن يكون مع اتباعه الشيطان يأمر إلا بالفحشاء .

## الباب العاشر

## ( فى الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض )

أما مكارم الشريعة فمبدأها طهارة النفس بالتعلم واستعمال العفة والصبر والعدالة ونهايتها التخصص بالحكمة والجود والحلم والإحسان فبالتعلم يتوصل إلى الحكمة وباستعمال العفة يتوصل إلى الجود وباستعمال الصبر يدرك الشجاعة والحلم وباستعمال العدالة يصحح الأفعال ومن حصل له ذلك فقد تدرع المكرمة المعنية بقوله تعالى ( إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) وصلح لخلافة الله تعالى عز وجل . وصار من الربانيين والشهداء والصديقين . واعلم أن العبادة أعم من المكرمة فإن كل مكرمة عبادة وليس كل عبادة مكرمة والفرق بينهما أن للعبادات فرائض

معلومة وحدوداً مرسومة وتاركها يصير ظالماً متعديا والمكارم بخلافها وأن يستكمل الإنسان مكارم الشريعة ما لم يقم بوظائف العبادات فتحرى العبادات من باب العدالة وتحرى المكارم من باب الافضال والنفل، ولا يقبل تنفل من أهمل الفرض ولا يفضل من ترك العدل بل لا يصح تقاضى الفضل إلا بعد العدل فإن العدل فعل ما يجب والتفضل الزيادة على ما يجب وكيف يصح تصور الزيادة على شيء هو غير حاصل فى ذاته ولهذا قيل لا يستطيع الوصول من ضيع الأصول، فمن شغله الفرض عن النفل فمعذور ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور وقد أشار تعالى بالعدل إلى الأحكام وبالإحسان إلى المكارم بقوله ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان ) وقوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ) ففعل الخير هو الزيادة على العبادة وأما عمارة الأرض والقيام بما فيه تزجية حياة الناس وصلاح معاشهم فالإنسان الواحد من حيث لم يكف أمر معاشه بانفراده من مأكله وملبسه ومسكنه وليس له سبيل إلى ثباته فى الدنيا إلا بما يسد جوعه ويستر عورته ويقيه من الحر والبرد لم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له ولذلك قال تعالى ( ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ) ومتى كان سعى العبد فى ذلك على الوجه الذى يجب وكما يجب يكون سعيه عبادة وجهاد فى سبيل الله تعالى كما قال عليه السلام ( من طلب الرزق على مايسن فهو فى جهاد ومن لم يكن على ذلك فسعيه يكون هباء منثورا ) كما قال تعالى ( هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ) وكان فيما يتولاه خادما للناس مسخراً بلا إرادة منه لخدمتهم حتى كأنه من جملة البهائم التى سخرها الله تعالى لعباده فامتن عليهم بها فى قوله ( والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ) .

## الباب الحادى عشر

## ( كون طهارة النفس شرطاً فى صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته )

لا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمرة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسها ونجسها فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة لكن نجاسة البدن قد تدرك بالبصر ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة وإياها قصد تعالى بقوله ( إنما المشركون نجس ) ولقوله تعالى ( والرجز فاهجر ) وبقوله ( كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ) وإنما لم يصلح لخلافة الله إلا من كان طاهر النفس لأن الخلافة هى الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية فى تحرى الأفعال الإلهية ومن لم يكن طاهر القول والفعل فكل إناء بالذى فيه يرشح ولن يخل مسك سوء عن عرف سوء ولهذا قيل من طابت نفسه طاب عمله ومن خبثت نفسه خبث عمله وقال عليه السلام ( المؤمن أطيب من عمله والكافر أخبث من عمله ) بل قد أشار تعالى إلى ذلك بقوله ( الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ) وقوله ( والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ) ولأجل أنه لا يطيب عمل من خبثت نفسه قال تعالى ( أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ) وقال بعضهم فى قوله عليه الصلاة والسلام ( لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ) . إنه أشار بالبيت إلى القلب وأشار بالكلب إلى الحرص والحسد ونحوهما ونبه أن نور الله تعالى لا يدخل إذا كان فيه ذلك واستدل على صحته بأن الحرص يقال له الكلب وأنه يقال فلان أحرص من كلب ، ويقوى ذلك ما روى أن التقوى لا تسكن إلا قلبا نظيفا وإلى الطهارتين أشار بقوله تعالى ( وثيابك فطهر والرجز فاهجر ) وكنى بالثياب عن البدن كقول الشاعر :

ثياب بنى عوف طهارى نقية وأوجههم عند المشاهد غران

وقال تعالى ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ) وقال ( ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ) وقال ( إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ) وقد قال بعض الحكماء العلماء إنما سميت الحواريين بذلك لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم من قولهم حورته أى بيضته وما روى أنهم كانوا قصارين فإشارة إلى هذا المعنى وإن كان من لم يتخصص لمعرفة الحقائق تصور من هذا التفسير المهنة المعروفة بين العامة .

## الباب الثانى عشر

## ( فيما يفزع إليه من طهارة النفس )

الذى به يطهر النفس حتى يترشح لخلافة الله تعالى ويستحق به ثوابه هو العلم والعبادات الموظفة التى هى سبب الحياة الأخروية كما أن الذى يطهر به البدن هو الماء الذى هو سبب الحياة الدنيوية ولذلك سماها الحياة وسمى ما أنزل الله تعالى فى كتابه الماء فقال ( استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ) فسمى العلم والعبادة حياة من حيث إن النفس متى فقدتهما هلكت هلاك الأبد كما قال فى وصف الماء ( وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ) وقال ( أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما عنى بالماء القرآن إذ كان به طهارة النفس قال والأودية القلوب احتمالته بحسب ما وسعته قال بعض العلماء فى قوله تعالى ( وينزل عليكم من السماء ماء ) وقوله تعالى ( وأنزلنا من السماء ماء طهورا ) إنه

عنى به القرآن وكقوله ( وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ) وأجدر بصحة قوله تعالى فإن الماء المنزل من السماء المختص بالطهارة الذى لا يسد غيره من المياه مسده هو هذا الماء أعنى كلام رب العزة فأما المختص بطهارة البدن فقد يسد غيره مسده فى الطهارة لأن الذى ينبع من الأرض يعمل عمله والذى يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلاث قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم وقوة الشهوة بقمعها حتى يحصل العفة والجود وقوة الحمية باستيلائها حتى ينقاد العقل فيحصل الشجاعة والحلم فيتولد من اجتماع ذلك العدل فجميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى الثلاث أما من فساد الفكرة فيتولد الجربزة والبله وأما من فساد الشهوة فيتولد الشره أو خمود الشهوة وأما من فساد الحمية فيتولد التهور أو الجبن ومن حصول هذه الأشياء أو حصول بعضها يحصل إما الظلم وإما الانظلام فجميع رؤوس الفضائل الخلقية أربعة وجميع رؤوس الرذائل الخلقية ثمانية .

## الباب الثالث عشر

## ( بيان ملازمة الهوى للعقل )

اعلم أن مثل الإنسان فى بدنه كمثل وال فى بلده وقواه وجوارحه بمنزلة صناع وعملة ، والعقل له بمنزلة مشير عالم ناصح والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة والحمية له كصاحب شرطة والعبد الجالب للميرة خبيث ماكر يتمثل للوالى بصورة الناصح وفى نصحه ذنب العقرب ويعارض الوزير فى تدبيره ولا يغفل ساعة عن منازعته ومعارضته وكما أن الوالى فى مملكته متى استشار فى تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث وأدب صاحب شرطته وجعله مؤتمراً لوزيره وسلطه على هذا العبد وتباعه حتى يكون هذا العبد مسوسا لا سائسا ومدبَّراً لا مدبِّرا استقام أمر بلده فكذا أيضا النفس متى استعانت بالعقل فى التدبير وأدبت

الحمية وسلطته على الشهوة وقواها استتبت أمرها وإلا فسدت ولهذا قد حذرنا الله تعالى غاية الحذر من اتباع الهوى فقال (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال تعالى فى ذم من اتبعه (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم) وقال (أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب) وقال تعالى فى مدح من أطاعه (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) وقال عليه الصلاة والسلام (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) إشارة إلى الهوى فالعقل وإن كان أشرف القوى وبه صار الإنسان خليفة الله عز وجل فى العالم فليس دأبه إلا الإشارة إلى الصواب كطبيب يشير إلى المريض بما يرى فيه برءه فإن قبل منه المريض وإلا سكت عنه ولذلك جعل له الحمية لتكون نائبة عنه فى المدافعة والممانعة ولهذا يتبين فضيلة العدل لمن لا حمية له ولهذا النظر قيل : المهين من لا سفيه له وقال :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له      وتتقى مربض المستأسد الحامى

وأيضا مثل النفس فى البدن مثل مجاهد بعث إلى ثغر يراعى أحواله وعقله خليفة مولاه ضم إليه ليسدده ويرشده ويشهد له وعليه بما يفعله إذا عاد إلى حضرة مولاه وبدنه بمنزلة فرس دفع إليه ليركبه وشهوته سائس خبيث ضم إليه ليتعهد فرسه ولا قدر لهذا السايس عند المولى والقرآن بمنزلة كتاب أتاه من مولاه .

وقد ضمن كل ما يحتاج إليه عاجلا وآجلا كما وصفه الله تعالى بقوله (وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة) وقوله : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) والنبى عليه الصلاة والسلام بمنزلة رسول أتاه إليه بالكتاب ليبين له ما يشكل عليه مما يقرؤ من الكتاب .

وقبيح أن ينسى هذا الوالى مولاه ويهمل خليفته فلا يراجعه فيما يبرمه

وينقضه ويصرف همه كله إلى تفقد فرسه وسائسه، ويقيم سايس فرسه مقام خليفة ربه .

ومن وجه آخر الإنسان من حيث ما جعله الله تعالى عالما صغيراً وجعل بدنه كمدينة ، والعقل كملك مدبر فيها ، وقواه من الفكر والخيال والحواس كجنده وأعوانه ، والأعضاء كرعيته ، والشهوة كعدوّ ينازعه فى مملكته وسعى فى إهلاك رعيته ، صار بدنه كرباط وثغر ، ونفسه كمقيم فيه مرابط ، فإن جاهد أعداءه فهزمهم أو أسرهم أو قهرهم على ما يجب حمد أثره إذا عاد إلى حضرته ، كما ضمنه تعالى حيث يقول ( فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ) .

فدفاع الهوى أعظم جهاد كما قال عليه الصلاة والسلام وقد سئل أى الجهاد أفضل « قال جهادك هواك » وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره إذا عاد إليه كما قال النبى عليه الصلاة والسلام « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وقال ان الله تعالى يقول للكافرين يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير ، اليوم أنتقم منك .

وأيضاً مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه ، فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه معلما فهو قمين باد راك حاجته من الصيد ومتى كان أخرق وفرسه جموحا أو حرونا وكلبه عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل معه مطيعا، فهو قمين أن يعطب فضلا عن أن يدرك ماطلب .

وللإنسان مع هواه ثلاثة أحوال . الأولى : أن يغلبه الهوى فيملكه كما قال تعالى ( أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ) والثانية : أن يغالبه فيقهره مرة ويقهره

مرة أخرى وإياه قصده بمدح المجاهدين وعناه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ( جاهـدوا أهواء كم كما تجاهـدون أعـداء كم ) والثالث : أن يغلب هواه ككثير من الأنبياء وبعض صفوة الأولياء ، وهذا المعنى قصد بقوله تعالى ( وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ) وقصد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله « ما من أحد إلاوله شيطان ، وإن الله قد أعاننى على شيطانى حتى ملـكته » فإن الشيطان يتسلط على الإنسان بحسب وجود الهوى فيه . والله أعلم بالحقيقة .

## الباب الرابع عشر

## الفرق بين ما يسومه العقل وبين ما يسومه الهوى

من شأن العقل أن يرى ويختار أبدا الأفضل والأصلح فى العواقب ، وإن كان على النفس فى المبدء مؤونة ومشقة والهوى على الضد من ذلك ، فإنه يؤثر ما يدفع به المؤذى فى الوقت وإن كان يعقب مضرة من غير نظر منه فى العواقب كالصبي الرمد الذى يؤثر أكل الحلاوات واللعب فى الشمس على تناول الاهليلج[١] والحجامة ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » وأيضافإن العقل يرى صاحبه ماله وما عليه ، والهوى يريه ماله دون ما عليه ويعمى عله ما يعقبه من المكروه ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام « حبك الشيء يعمى ويصم » ولذلك ينبغى للعاقل ان يتهم رأيه أبدا فى الأشياء التى هى له لا عليه ويظن أنه هوى لا عقل ويلومه ، وينبغى ان يستقصى النظر فيه قبل امضاء العزيمة حتى قيل اذا عرض لك أمران فلم تدرأيهما

(١) الأهليلج : بفتح اللام الثانية وقد تـكسر ـ ثمر أصفر يسود عند بلوغه . يستعمل لإزالة الصداع .

أصوب فعليك بما تكرهه لا بما تهواه فأكثر الخير فى الكراهة قال الله تعالى ( وعسى أن تكرهو شيئاً وهو خير لكم ) وقال ( فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيراً ) .

وأيضافإن ما يرى العقل يتقوى إذا فزع فيه الى الله عز وجل بالاستخارة وتساعد عليه العقول الصحيحة إذا فزع اليها بالاستشارة ، وينشرح له الصدر . إذا استعين فيه بالعبادة وما يرام الهوى فبالضد من ذلك .

وأيضافإن العقل يرى ما يرى بحجة وعذر ، والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل وربما تشبه الهوى بالعقل فيتعلق بشبهة مزخرفة ومعذرة مموهة ، كالعاشق إذا سئل عن عشقه والمناول لطعام ردّى إذا سئل عن فعله . قال بعض العلماء : إذا مال العقل نحو مؤلم جميل والهوى نحو ملذ قبيح فيتنازعان بحسب غرضيهما ، ويتحاكمان إلى القوة المدبرة بادر نور الله عز وجل إلى نصر العقل ووساوس الشيطان إلى نصر الهوى كما قال الله تعالى ( الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ) .

فمتى كانت القوة المدبرة من أولياء الشيطان ومحبيه لم تر نور العقل فعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل على علم ، ومتى كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره واستهانت بلذة العاجل وطلبت سعادة الآجل كما قال تعالى ( وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ) ومما نبه الله تعالى به على فساد الهوى قوله ( ولو اتبع الحق

أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ ) أى لو أعطى كل إنسان ما يهواه مع أن كل واحد يهوى ان يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة ، وأن ينال فى الدنيا الخير الأبدى بلا مزاولة ولا طلب لسكان فى ذلك فساد العالم وقيل فى قوله تعالى ( ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ) الآية أنه ضرب الشجرة الطيبة مثلا للعقل والخبيثة مثلا للهوى، ففرع الطيبة النور والإسلام وفرع الخبيثة الكفر والضلال .

إن قيل ما الفرق بين الشهوة والهوى قيل الشهوة ضربان محمودة ومذمومة، فالمحمودة من فعل الله سبحانه ، وهى قوة جعلت فى الإنسان لتنبعث بها النفس لنيل ما يظن أن فيه صلاح البدن ، والمذمومة من فعل البشر وهى استجابة النفس لما فيه لذاتها البدنية والهوى هى هذه الشهوة الغالبة إذا استتبعت الفكرة . وذلك أن الفكرة بين العقل والشهوة ، فالعقل فوقها والشهوة تحتها ، فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن وإذا اتضعت ومالت نحو الهوى والشهوة صارت وضيعة وولدت المقابح ، والنفس قد تريد ما تريد بمشورة العقل تارة ومشورة الهوى تارة ، ولهذا قد تسمى الهوى إرادة .

## الباب الخامس عشر

## فى ذكر الخاطر الذى يعرض من جهة العقل والهوى

أول ما يعرض من ذلك السانح ثم الخاطر ، وإلى ذلك أشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « إن للشيطان لمة بابن آدم وإن للملك لمة فأما لمة الملك فوعد بالخير وتصديق الحق بالحق ، وأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق . ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » الآية .

ثم من بعدهما الإرادة ، ثم العزم ثم العمل فالسانح علة الخاطر ، والخاطر علة الإرادة ، والإرادة وهى الهمة علة العزم ، فالسانح والخاطر يعبر عنهما بالهاجس والهاجس متجاوز عنه ما لم يصر إرادة وعزما ، فحق الإنسان إذا خاطر له خاطر أن يسبره عاجلا ، فإن وجده خيرا أرباه حتى يجعله فعلا ، وإن وجده شرا بادر إلى قمعه وقلعه قبل أن يصير إرادة، ويطهر منه قلبه تطهير أرضه من خبيثات النبات ، وهذا المعنى أراده الحسن رحمه الله بقوله رحم الله عبدا وقف عندهمه فإن كان لله عز وجل مضى وإلا كف قال بعض الحكماء إن تداركت الخطرة اضمحلت وإلا صارت شهوة ، وإن تداركت الشهوة وإلا صارت طلبا وإن تداركت الطلب وإلا صار عملا . وقال بعض الحكماء . إن ولىّ الله إذا أتته لمة الشيطان انزعج لذلك ورأى ببصيرته ظلمة ووجد روعة ، وإذا أتته لمة الرحمن انشرح صدره ، وأولياء الشيطان بخلافه لقوله تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون ) والله ولى الرشاد .

## الباب السادس عشر

## حصول الخلق المحمود بطهارة النفس

قد تقدم أن طهارة النفس بإصلاح القوى الثلاث فإصلاح المفكرة بالتعلم حتى يتميز بين الحق والباطل فى الاعتقاد ، وبين الصدق والكذب فى المقال ، وبين الجميل والقبيح فى الفعال ، وإصلاح الشهوة بالعفة حتى تساس بالجود والمواساة المحمودة بقدر الطاقة ، وإصلاح الحمية باسلاسها حتى يحصل التحلم : وهو كف النفس عن قضاء وطر الغضب ، وتحصل الشجاعة وهى كف النفس عن الخوف وعن الحرص المذمومين .

وبإصلاح القوى الثلاث يحصل للنفس العدالة والإحسان ومنه جماع المكارم من طهارة النفس وحسن الخلق الممدوح ؟ بقوله عليه الصلاة والسلام « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا وألطفهم بأهله » ويعنى باللطافة بالأهل تهذيبهم وتأديبهم المشار إليه بقوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ) والممدوح أيضاً بقوله عليه الصلاة والسلام « أحبكم إلىّ أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » وقيل جماع المكارم فى قوله تعالى ( إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ) وذلك أنه بالإيمان يحصل العلم والحكمة ، وذلك بإصلاح الفكرة وبالمجاهدة بالأموال والأنفس تحصل العفة والجود اللذان هما تابعان لإصلاح الشهوة ، والشجاعة والحلم اللذان هما تابعان لإصلاح الحمية ، وعلى ذلك قوله تعالى ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ) وقال النبى عليه الصلاة والسلام فى تفسير ذلك « هو أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك » فالعفو عمن ظلمك نهاية الحلم والشجاعة ، وإعطاء المال من حرمك نهاية الجود ، ووصل من قطعك نهاية الإحسان . والله أعلم .

## الباب السابع عشر

## ( الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة )

الطبع أصله من طبع السيف وهو اتخاذ الصورة المخصوصة فى الحديد ، وكذلك الطبيعة والضريبة اعتبارا بضرب الدراهم ، والنحيتة اعتبارا بالنحت ، والنجر اعتبارا بنجر الخشب ، والغريزة اعتباراً بما غرز عليه . وكل ذلك اسم للقوة التى لاسبيل إلى تغييرها ، والشيمة اسم للحالة التى عليها الغريزة اعتبارا

بالشامة التى فى أصل الخلقة ، والسجية اسم لما سجى عليه الإنسان من قولهم عين ساجية أى فاترة خلقة وأكثر مايستعمل ذلك كله فيما لايمكن تغييره ، وأما الخلق فى الأصل كالخلق كقولهم الشرب والشرب والصرم والصرم لكن الخلق يقال فى القوى المدركة بالبصيرة والخلق فى الهيئات والأشكال والصورة المدركة بالبصر ، وجعل الخلق تارة اسما للقوة الغريزية ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « فرغ الله من الخلق والخلق والرزق والأجل » وتارة يجعل اسما للحالة المكتسبة التى يصير بها الإنسان خليقا أن يفعل شيئا دون شىء كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه ، ولهذا خص كل حيوان بخلق فى أصل خلقته كالشجاعة للأسد والجبن للأرنب ، والمكر للثعلب ، ويجعل الخلق تارة من الخلاقة وهى الملاسة فكأنه اسم لما مرن عليه الإنسان من قواه بالعادة . وقد روى « أفضل الأفعال الخلق الحسن » وروى « ما أعطى الله أفضل من خلق حسن » فجعل الخلق مرة للهيئة الموجودة فى النفس التى يصدر عنها الفعل بلا فكر وجعل مرة اسما للفعل الصادر عنه باسمه وعلى ذلك أسماء أنواعها نحو العفة والعدالة والشجاعة ، فإن ذلك يقال للهيئة والفعل جميعا ، وربما سمى الهيئة باسم والفعل الصادر عنها كالسخا والجود فإن السخا اسم للهيئة التى عليها الإنسان والجود اسم للفعل الصادر عنها ، وإن كان قد يسمى كل واحد باسم الآخر ، وأما العادة فاسم لتكرر الفعل أوالانفعال من عاد يعود وبها يكمل الخلق ، وليس للعادة فعل الاتسهيل خروج ما هو بالقوة فى الإنسان إلى الفعل ، وأما حدوث السجية إلى خلاف ما خلقت له فمحال فالسجية فعل الخالق عز وجل والعادة فعل المخلوق ، ولا يبطل فعل المخلوق فعل الخالق ، ولكن ربما يقوى العادة قوة محكمة حتى تعد سجية ، وبهذا النظر قيل العادة طبيعة ثانية .

## الباب الثامن عشر

## إمكان تغيير الخلق

اختلف الناس فى الخلق فقال بعضهم هو من جنس الخلقة ولا يستطيع أحد تغيير ما جبل عليه إن خيرا وإن شرا كما قال :

ولن يستطيع الدهر تغيير خلقه لئيم ولا يستطيعه متكرم
وما هذه الأخلاق إلا غرائز فمنهن محمود ومنها مذمم

ويعلق أيضاً بقوله عليه الصلاة والسلام « من آتاه الله وجها حسنا وخلقا حسنا فليشكر الله » وما روى « فرغ الله من الخلق والخلق » الخبر . فمحال أن يقدر المخلوق على تغيير فعل الخالق عز وعلا فقال بعضهم يمكن تغيير ذلك واستدل بما روى « حسنوا أخلاقكم » فلو لم يمكن لما أمر به .

قال ولأن الله تعالى خلق الأشياء على ضربين أحدهما بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملا كالسماء والأرض والهيئة والشكل ، والثانى خلقه خلقة ما وجعل فيه قوة ترشح الإنسان لإكماله وتغيير حاله وإن لم يرشحه لتغيير ذاته كالنوى الذى جعل فيه قوة النخل ، وسهل للإنسان سبيلا إلى أن يجعله بعون الله تعالى نخلا وأن يفسده إفسادا .

قال والخلق من الإنسان يجرى هذا المجرى فى أنه لا سبيل للإنسان إلى تغيير القوة إلى أن تصير سجية وجعل له سبيلا إلى إسلاسها ولهذا قال تعالى

(قد أفلح من ذكاها وقد خاب من دساها) ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والأمر والنهى ، ولما جوز العقل أن يقال للعبد لم فعلت ولم تركت وكيف يكون هذا فى الإنسان ممتنعاً وقد وجدنا فى بعض البهائم ممكناً فالوحشى قد ينتقل بالعادة إلى الإيناس والجامح إلى السلاسة لكن الناس فى غرائزهم مختلفون فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول ، وبعضهم فى الوسط ، وكل لا ينفك من أثر قبول وإن قل ، فأرى أن من منع من تغيير الخلق فإنه اعتبر القوة نفسها وهذا صحيح ، فإن النوى محال أن ينبت منه الإنسان تفاحا ومن تغييره فإنه اعتبر إمكان ما فى القوة إلى الوجود وإفساد هماله نحو النوى فإنه يمكن أن يتعهد فيجعل نخلا وأن يترك مهملا حتى يعفن ويفسد ، وهذا صحيح أيضاً ، فإذن اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما .

## الباب التاسع عشر

### صعوبة إصلاح القوى الشهوية وما فى هذه من المضرة والمنفعة

أصعب هذه القوى الثلاث مداواة قمع الشهوة لإنها أقدم القوى وجوداً فى الانسان ، وأشدها به تشبثاً وأكثرها منه تمكناً ، فإنها تولد معه وتوجد فيه وفى الحيوان الذى هو جنسه ، بل فى النبات الذى هو جنس جنسه ، ثم يوجد فيه قوة الحمية ثم آخراً توجد فيه قوة الفكر والنطق والتميز ولا يصير الانسان خارجا من جملة البهائم وأسر الهوى إلا بإماتة الشهوة البهيمية ولو بقهرها وقمعها إن لم يمكنه إماتته إياها ، فهى التى تضره وتغره وتصرفه عن طريق الآخرة ، ومتى قمعه أو أماته صار الانسان حرا نقيا ، بل يصير إلهيا ربانياً فتقل

حاجاته ويصير غنياً عما فى يد غـــيره وسخيا بما فى يده ومحسناً فى معـاملاته .

فإن قيل فإذا كانت قوة الشهوة بهذه المثابة فى الإضرار فأى حكمة اقتضت أن يبلى بها الانسان ؟ قيل الشهوة إنما تـكون مذمومة إذا كانت مفرطة وأهملها صاحبها حتى ملـكت القوى فأما إذا أدبت فهى المبلغة إلى السعادة وجوار رب العزة ، حتى لو تصورت مرتفعة لما أمـكن الوصول إلى الآخرة ، وذلك أن الوصول إلى الآخرة بالعبادة ولا سبيل إلى العبادة إلا بالحياة الدنيوية ، ولا سبيل إلى الحياة الدنيوية إلا بحفظ البدن ، ولا سبيل إلى حفظ البدن إلا بإعادة ما يتحلل منه ، ولا سبيل إلى إعادة ما يتحلل منه إلا بتناول الأغذية ، ولا يمـكن تناول الأغذية إلا بالشهوة . فإذا الشهوة محتاج إليها ومرغوب فيها ، وتقتضى الحـكمة الإلهية إيجادها وتزيينها كما قال تعالى ( زين الناس حب الشهوات من النساء والبنين ) الآية . لـكن مثلها مثل عدو تخشى مضرته من وجه وترجى منفعته من وجه ومع عداوته لا يستغنى عن الاستعانة به ، فحق العاقل أن يأخذ نفعه ولا يسكن إليه ولا يعتمد عليه إلا بقدر ما ينتفع به ، وما أصدق فى ذلك قول المتنبى اذا تصور فى وصف الشهوة وإن قصدها فما أجود ما أرادها . . شعر :

ومن نـكد الدنيا على الحر أن يرى  عدواً له ما من صـــداقته بد

وأيضاً فإن هذه الشهوة هى المشوقة لعامة الناس إلى لذات الجنة من المأكل والمشرب والمنكح ، إذ ليس كل الناس يعرف اللذات المعقولة ، ولو توهمناها مرتفعة لما تشوقوا إلى ما وعدوا به من قول النبى صلى الله عليه وسلم « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

## الباب العشرون

## فى ازدياد الانسان فى الفضائل والرذائل بتعاطيهما

كل متعاط لفعل من الأفعال النفسية فإنه يتقوى فيه بحسب الازدياد منه إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً فباحتمال صغار الأمور يمكن احتمل كبارها ، وباحتمال كبارها يستحق الحمد . ولهذا قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه الإيمان يبدو نكتة بيضاء فى القلب كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض ، وإذا استكمل العبد الإيمان ابيض القلب كله ، وإن النفاق يبدو لمعة سوداء كلما ازداد النفاق اسود القلب كله ، فالانسان يكمل فى الفضيلة بأربع درجات اثنتين فى الاعتقاد وهما أن يعتقد الجميل ويجعل اعتقاده عن براهين واضحة وأدلة قاطعة لا عن شبهات واهية وإقناعات متداعية . واثنتين فى الفعل وهما أن يترك العادات السيئة فيجعلها بحيث يبغضها فيتجنب الرذيلة ليتوصل إلى الفضيلة ، وأن يتعود العادات الحسنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعم بها كما قال عليه الصلاة والسلام « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

وكما أنه يكمل بأربع درجات فإنه ينتكس بأربع درجات درجتين فى الاعتقاد وهما أن لا يعتقد شيئاً من العلوم الحقيقية فيبقى عنها غفلا ، وأن يعتقد عن تقليد اعتقاداً فاسداً فيتلطخ به ، ودرجتين فى العمل وهما أن لا يتعود العادة الجميلة رأساً وأن يتعود العادة القبيحة ، فمن صار فى الفضيلة إلى الدرجة الرابعة فهو ممن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، ومن صار فى الرذيلة إلى الدرجة الرابعة فهو من الذين وصفهم الله بقوله ( أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ) ثم قال ( أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ) .

وقيل لحكيم ألا تعظ فلانا فقال ذاك على قلبه قفل ضاع مفتاحه فلا سبيل إلى معالجة فتحه .

وللانسان مع كل فضيلة ورزيلة ثلاثة أحوال إما أن يكون فى ابتدائها فيقال هو عبدها وابنها ، ولهذا قال بعضهم من لم يخدم العلم لم يرعه . والثانى أن يتوسطها فيقال هو أخوها وصاحبها . والثالث أن ينتهى فيها بقدر وسعه وبتصرف فيها كما أراد فيقال هو ربها وسيدها . ومنه قيل فلان ربانى فى العلم ، فان الشىء هو الذى يربه ، وسيده هو الذى يملك سواده أى جميعه ، وغاية الفاضل فى الفضيلة أن يقع منه أفعال الفضائل أبداً من غير فكر ولا روية لغلبة قواها عليه وبعد ما ينافيها عنه كالصانع الحازق فى صنعته ، وغاية الرزل فى الرزيلة أن يقع منه أفعال الرذائل لغلبة قواها عليه، ولهذا حد الخلق بأنه حال الإنسان الداعية إلى الفعل من غير فكر ولا روية .

## الباب الحادى والعشرون

## فى الفرق بين ما يحمد ويذم من التخلق

الفرق بين الخلق والتخلق أن التخلق معه استثقال واكتساب ويحتاج إلى بعث وتنشيط من خارج ، والخلق معه استخفاف وارتياح ولا يحتاج إلى بعث من خارج ، والتخلق والتشبه بالأفاضل ضربان ضرب محمود وذلك ما كان على سبيل الارتياض والتدريب ويتحراه صاحبه سراً وجهراً على الوجه الذى ينبغى وبالمقدار الذى ينبغى وإياه قصد الشاعر بقوله :

ولن تستطيع الخلق حتى تخلقا

بل قد قال النبى عليه الصلاة والسلام ما العلم إلا بالتعلم وما الخلق إلا بالتخلق.

وضرب مذموم وذلك ما كان على سبيل المراءاة ولا يتحرى صاحبه الا حيث يقصد أن يذكر به ويسمى ذلك رياء وتصنعا وتشيعا ولن ينفك صاحبه من اضطراب يدل على تشيعه كما وجد فى كتاب كليلة : الطبع المتكلف كلما زدته تثقيفا زاد تعقيفا(١) وعلى ذلك قول الشاعر :

وأسرع مفعول فعلت تغيراً تكلف شيء فى طباعك ضده

وأياه قصد عمر رضى الله عنه بقوله من تخلق للناس بغير ما فيه فضحه الله عز وجل وحال المتشيع كالجرح يندمل على فساد فلابد أن ينبعث وان كان بعد حين كما قيل :

فان الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد

وكما أن العضو المفلوج لا يطاوع صاحبه فى تحريكه وإن جاهد ، فمتى حرك إلى اليمين تحرك نحو الشمال وكذا أيضاً الشره والظلوم والمتهور وإن جاهدوا أنفسهم فى إخفائها فإن قواهم تأبى مطاوعتهم ، وقد ذم النبى عليه الصلاة والسلام ذلك بقوله المتشيع بما ليس عنده كلابس ثوبى زور، تنبيها على أنه كاذب بقوله وفعله فيتضاعف وزره ، وقد حمل على ذلك قوله تعالى ( وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ) وإياه قصد النبى عليه الصلاة والسلام بقوله « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء » وأقبح الرّياء النفاق فى الدين ، وأقبح النفاق ما كان فى أصل الاعتقاد وهو إظهار الإيمان مع استبطان الكفر ، ولذلك جعل الله عقابهم أعظم فقال ( إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ) .

---

(١) تثقيف الرماح : تسويتها . والتعقيف : التعويج .

## الباب الثانى والعشرون

## ( فى سبب اختلاف الناس فى أخلاقهم )

جميع الفضائل النفسية ضربان نظرى وعملىّ وكل ضرب منهما يحصل على وجهين أحدهما بشرىٌّ يحتاج فيه إلى زمان وتدرب وممارسة ويتقوى الإنسان فيه درجة فدرجة ، وإن كان فيهم من يكفيه أدنى مدارسة ، وفيهم من يحتاج إلى زيادة ممارسة وذلك بحسب اختلاف الطبائع والذكاء والبلادة . والثانى يحصل بفضل إلهى نحو أن يولد إنسان فيصير من غير تعلم من البشر عالما كعيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء الذين حصل لهم من المعارف من غير ممارسة ما لم يحصل للحكماء . وقد ذكر بعض الحكماء أن ذلك يحصل لغير الأنبياء أيضاً فى الغيبة فكل ما كان بتدرب فقد يكون بالطبع كصبي يوجد صادق اللهجة سخياً جريئاً ، وآخر على عكس ذلك ، وقد يكون بالتعليم وبالعادة فن صار فاضلا طبعاً وعادة وتعلما فهو كامل الفضيلة ، ومن كان رذلا بثلاثتها فهو كامل الرذيلة .

## الباب الثالث والعشرون

## وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة

حق الإنسان فى كل فضيله أن يكتسبها خلقاً ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك سواء أمكنه أن يبرز ذلك فعلا أو لم يمكنه ، وذلك بأن يكون على هيئة الأسخياء والشجعان والحكماء . والعدول وإن لم يكن ذا مال يبذله ولا عرض له مقام تظهر فيه نجدته ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيه عدالته ، فقد قيل لبعض الحكماء هل من موجود يعم الورى ، فقال نعم أن تحسن خلقك وتنوى لكل أحد خيراً . وقال عليه الصلاة والسلام « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم

بأخلاقكم » واعلم أن كل فعل محتاج فيه إلى ايجاده وتجويده وتزيينه دنيويا كان أو أخرويا ، ولكن متى كان أخرويا يحتاج فيه مع ذلك إلى أمور لا يتم ولا يكمل إلا بها ، وهو أن يحب أن يتعاطاها قصدا إلى المكرمة ، وإلا لم يعتدبها ، كما قال تعالى ( مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ) وأن يتحراه بخلوص طوية كما قال تعالى ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ) وأن لا يقصد به جلب منفعة دنيوية أو دفع مضرة فإنه يكون بفعله ذلك تاجراً ويجب عند بعض المحققين أن لا يطلب به منفعة أخروية أيضاً فقد قيل من عبد الله تعالى بعوض فهو لئيم ، ومن فعل ذلك بانشراح صدر فهو أولى ممن يفعله بمجاهدة نفس ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « إن استطعت أن تعمل لله فى الرضا باليقين فاعمل » وإلا ففى الصبر على ما يكره خير كثير ، وقولهم الحق مر ، فهو باعتبار من لم تتهذب نفسه ولم يزل مرضه . شعر :

فمن يك ذا فم مرّ مريضاً يجد مراً به الماء الزلالا

وأما من كمل فإنه يستطيب الحق وإن كان ثقيلا كما قال النبى صلى الله عليه سلم « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ومن أصلح خلقه وهذب نفسه فهو أعظم الملكين ، فمن ملك نفسه وقواها فهذبها وزكاها فقد اطلع بذلك على ملكوت السموات والأرض ، وملك أطوع جيش بلا اعطاء يلزمه ، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله ( إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ) فجعل النبوة مخصوصة فيهم ، وجعل الملك عاما لهم، تنبيها على المعنى الذى ذكرت ، وعلى ذلك قوله تعالى ( أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ) ، ونذكر بعد ذلك أنواع نعم الله تعالى وما يكتسب منها والله ولى الفضل والإحسان .

## الباب الرابع والعشرون

## أنواع نعم الله الموهوبة والمكسوبة

نعم الله عز وجل وإن كانت لا تحصى مفصلة كما قال الله تعالى ( وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ) فإنها بالقول المجمل خمسة أنواع ·

الأول وهو أعلاها وأشرفها السعادة الأخروية وإياها قصد تعالى بقوله ( وأمّا الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ ) وذلك هو الخير المحض والفضيلة الصرف وهو أربعة أشياء بقاء بلا فناء ، وعلم بلا جهل ، وقدرة بلا عجز ، وغنى بلا فقر ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا باكتساب الفضائل النفسية واستعمالها كما قال تعالى ( ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ) .

وأصول ذلك أربعة أشياء العقل وكماله العلم ، والعفة وكمالها الورع ، والشجاعة وكمالها المجاهدة ، والعدالة وكمالها الإنصاف ، وهى المعبر عنها بالدين . ويكمل ذلك بالفضائل البدنية وهى أربعة أشياء الصحة والقوة والجمال وطول العمر ، وبالفضائل المطيفة بالإنسان وهى أربعة أشياء المال والعز والأهل وكرم العشيرة .

ولا سبيل إلى تحصيل ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل وذلك بأربعة أشياء : هدايته ورشده وتسديده وتأييده

فجميع ذلك خمسة أنواع من عشرين ضربا ليس للإنسان مدخل فى اكتسابها إلا فيما هو نفسى فقط .

واعلم أن الفضيلة الكاملة والسعادة الحقيقية هى الخيرات الأخروية ،

وأما ماعداها فتسميته بذلك إما لكونه معاونا فى بلوغ ذلك أو نافعا فيه ، وكل ما أعان على خير وسعادة فهو خير وسعادة .

وهذه الأشياء التى هى معينة ونافعة فى بلوغ السعادة الأخروية متفاوتة الأحوال، فنها ما هو نافع فى جميع الأحوال وعلى كل وجه،ومنها ما هو نافع فى حال دون حال وعلى وجه دون وجه ربما يكون ضرّه أكثر من نفعه،فحق الانسان أن يعرفها بحقائقها حتى لايقع الخطأ عليه فى اختياره الوضيع على الرفيع، وتقديمه الخسيس على النفيس ، فالناس فى متحرياتها طالب لخير وهارب من شر كما قال :

كل يحاول حيلة يرجو بها　　دفع المضرة واجتلاب المنفعه

والمرء يغلط فى تصرف حاله　　فلربما اختار العناء على الدعه

لكن قد يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، ويقدر فى الشىء أنه رزق نافع وحشوه سم ناقع ، فلذلك يحق على العاقل أن يجلى بصيرته ويعرف من كل مايطلب حقيقته لئلا يكون كمن يريد حبلاينتطق به فرأى حية فظنها مبتغاه فأخذها فلدغته .

وقد قسمت الخيرات على وجه آخر فقيل الخيرات ثلاث مؤثرة لذاتها ومؤثرة لغيرها ومؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها، فالمؤثرة لذاتها السعادة الأخروية والنفسية، والمؤثرة لغيرها الدراهم والدنانير فإنا لو تصوّرنا ارتفاع الضرورات التى يستدفع بها لكانت هى والحصاء سواء ، والمؤثرة لذاتها وتارة لغيرها كصحة الجسم، فمعلوم أن الرجل وإن أزيلت للمشى فالإنسان يريد أن يكون صحيح الرجل وإنه استغنى عن المشى .

ويقال أيضاً الخيرات ثلاث نافع وجميل ولذيذ والشرور ثلاث ضار وقبيح ومؤلم ، وكل واحد من ذلك ضربان ، أحدهما مطلق ، وهو الذى يجمع الأوصاف

الثلاثة فى الخير ، كالحكمة فإنها نافعة جميلة ولذيذة وفى الشر كالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم . والثانى مقيد وهو الذى جمع شيئاً من أوصاف الخيرات وشيئاً من أوصاف الشرور فرب نافع مؤلم كجدع قصير أنفه ، فإنه وإن نفعه فى إدراك الثأر فقد آذاه ، ورب نافع قبيح ، كالحمق ، فإنه وإن نفع من حيث ما قيل استراح من لا عقل له فهو جد قبيح ، ورب نافع من وجه ضار من وجه كمن فى سفينة فخاف الغرق فألقى متاعه فى الماء فخلصت السفينة ، وكل ما نفعه ولذته وجماله أطول مدة وأغمر عائدة فهو أفضل .

فحق العاقل أن يرغب إلى الله تعالى فى أن يعطيه ما فيه مصلحته مما لا سبيل له بنفسه إلى اكتسابه وأن يبذل جهده مستعينا بالله عز وجل فى اكتساب وبلوغ الأعلى فالأعلى منه على الترتيب ، فبذلك يشرف من ضيع أنفس السنيات مع التمكن من تحصيله ، فهو دنى الهمة راض بخسيس الحال ، وأشرفها ما إذا حصل لم يغضب ولم يحتج فى حفظه إلى أعوان وحفظه ، وكان نافعا عاجلا وآجلا . ومطلقا فى كل حال وكل زمان ومكان وذلك هو الفضائل النفسية ولاسيما العقل والعلم ، فأما القنيات الخارجة نحو المال والجاه فإنها يقال لها الخيرات المتوسطة لأنها تنجذب إلى الفضيلة مرة وإلى الرذيلة مرة لأنها سبب للخيرات إذا كانت مع العقل وسبب للشرور إذا كانت مع الجهل ، وقد نبه الله تعالى على كون ذلك سببا للشر بقوله ( إنما أموالكم وأولادكم فتنة ) وقوله ( ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ) .

ولذلك قيل السعيد هو الخير العاقل غنيا كان أو فقيرا قويا كان أو ضعيفا .

إن قيل ما الخير والسعادة والفضيلة والنافع وهل بينها فرق قيل .

أما الخير المطلق فهو المختار من أجل نفسه والمختار غيره لأجله وهو الذى يتشوقه كل عاقل ، بل قد قيل هو الذى يتشوقه الكل بلا مثنوية ، فإن الكل يطلب

في الحقيقة الخير وإن كان قد يعتقد في الشر أنه خير فيختاره فقصده الخير ، ويضاده الشر وهو المحبوب من أجل نفسه والمحبوب غيره من أجله . قال النبي عليه الصلاة والسلام « لا خير في خير بعده النار ولا شر في شر بعده الجنة » فجعل الخير المطلق الجنة والشر المطلق النار كما ترى ، فقد يقال لكل ما يتوصل به إلى الخير خير ، ولهذا سمى الله تعالى المال خيراً في قوله ( إن ترك خيراً ) لكن المال في الحقيقة يكون خيرا لبعض الناس وشرا لبعضهم ، فمعلوم أنه كان شراً لمن قال تعالى فيه ( الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده ) .

وأما السعادة المطلقة فحسن الحياة في الآخرة وهي الأربع التي تقدم ذكرها من البقاء بلا فناء والقدرة بلا عجز والعلم بلا جهل والغنى بلا فقر .

وقد يقال لما يتوصل به إلى هذه السعادات الأربع سعادة وهي الستة عشر المتقدمة ويضادها الشقاوة . وأما الفضيلة فاسم لما يحصل به للإنسان مزية على الغير وهي اسم لما يتوصل به إلى السعادة ويضادها الرذيلة ، وأما النافع فهو ما يعين على بلوغ الفضيلة والسعادة والخير . والنافع في الشيء ضربان ضروري وهو ما لا يمكن الوصول إلى المطلوب إلا به كالعلم والعمل الصالح للمكلفين في البلوغ إلى النعيم الدائم ، وغير ضروري وهو الذى قد سد غيره مسده كالسكنجبين في كونه نافعاً في قمع الصفراء فإن ذلك قد يسد غيره مسده ، وكل نافع يسمى فضيلة وسعادة وخيراً لكونه مبلغاً إلى ذلك وموصلا إليه .

## الباب الخامس والعشرون

### حاجة بعض هذه الفضائل إلى بعض

قد ثبت بما تقدم أن الخيرات والفضائل خمسة أنواع أخروية ونفسية وبدنية

وخارجية وتوفيقية ، فيجب أن يعلم أن بعض ذلك محتاج إلى بعض ، أما حاجة ضرورية يجب لو لم يوجد لاختل حال الآخر وذلك أن السعادة الحقيقية الأخروية لا سبيل إلى الوصول إليها إلا باكتساب الفضائل النفسية ، ولذلك قال تعالى . (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) ، فنبه أنه لا مطمع لمن أراد الوصول إليها إلا بالسعى ولا سبيل إلى تحصيل الفضائل النفسية إلا بصحة البدن وقوته ، وأنه لاغنى لكمال الفضائل النفسية والبدنية عن الفضائل الخارجية ، فإنه وإن أمكن أن يتصور حصولها لمن لا أهل له ولا مال له ولا عشيرة فإنه لا يكمل إلا بها .

## الباب السادس والعشرون

## الفضائل المطيفة بالإنسان

قد تقدم أن ذلك بالقول المجمل أربعة أشياء المال والأهل والعزة وكرم العشيرة ، وأن هذه الأشياء نافعة فى بلوغ الفضيلة الحقيقية والسعادة الأخروية وجارية مجرى الجناح المبلغ ، وأنه لم تكن الحاجة إليها فى بلوغ ذلك ضرورية ، فأما المال فصاحبه يتمكن من فضائل إذا فقده ثكل بلوغها ، فمعلوم أن كثيراً من القرب كالزكاة والحج يثكله الفقير ، فالفقير فى تحرى المكارم كساع إلى الهيجا بغير سلاح(١) وكباز متصيد بلا جناح وفضله مغطى كماء تحت الأرض ونار كامنة فى الصخر وما أصدق ما قال الشاعر :

والمرء يرفعه الغنى والفقر منقصة وذل

---

(١) البيت بتمامه :

أخاك أخاك إن من لا أخ له كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وقول الآخر :

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على تقوى الله المال » .

وأما الأهل فنعم العون على بلوغ السعادة . فمن كثر أهله وخالصوه صار له بهم عيون وآذان وأيد ، قال الله تعالى حاكياً عن لوط صلى الله عليه وسلم ( لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ) قال الشاعر :

ألم تر أن جمع القوم يخشى وأن حريم واحدهم مباح

وقال عليه الصلاة والسلام فى نفع الولد « إذا مات الرجل انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له » وقال « ريح الولد من رائحة الجنة » وقال « نعم العون على الدين المرأة الصالحة » فالمرأة مزرعة الرجل قيضها الله تعالى ليزرع فيها زرعه كما قال الله تعالى : ( نساؤكم حرث لكم ) وقال تعالى ( آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ) .

وأما العز فبه يتأبى عن تحمل الذل ومن لا عز له لا يمكنه أن يذود عن حريمه، ولذلك قيل : الدين والسلطان أخوان توءمان وقريبان مؤتلفان ، ومؤديان إلى عمارة البلاد وصلاح العباد ، وقيل الدين أس والسلطان حارس ومالا أس له فمهدوم ومالا حارس له فضائع ، وسمى الله تعالى الحجة سلطانا لقهرها أولى البصائر، وقال عز اسمه ( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ) .

وأما كرم العشيرة فإنه يقال له الحسب والشرف أخص بمآثر الآباء

والعشيرة ، ولذلك قيل للعلوية أشراف ، ومن الناس من لا يعد الأصل فضيلة ،وقيل المرء بنفسه واستدل بقول علي أمير المؤمنين رضى الله عنه الناس أبناء ما يحسنون ، وقوله قيمة كل امرىء ما يحسنه ، وقول الشاعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا  يغنيك محموده عن النسب

وقول الحكيم الشرف بالهمم العالية لا بالعظام البالية ، وليس ذلك كما ظن لأن كرم الأعمال والأحوال مخيلة لكرم المرء ومظنة له ، فالفرع وإن كان قد يفسد أحياناً فمعلوم أن أصله قد يورثه الفضيلة والرذيلة ، فإنه لا يكون من النخل الحنظل ولا من الحنظل النخل ولذلك قال الشاعر :

ومايك من خير أتوه فإنما  توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطىّ إلا وشيجه  وتُغرس إلا فى منابتها النخل

وقيل :

إن السرىّ إذا سرى فبنفسه  وابن السرى إذا سرى أسراهما

ويبين ذلك أن الأخلاق نتائج الأمزجة ومزاج الأب كثيرا ما يتأدى إلى الابن كالألوان والخلق والصور ، ومن أجل تأدّيها إليه قال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء » وقال « إياكم وخضراء الدمن قيل يارسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء » وما ذكر من نحو قول أمير المؤمنين على رضى الله عنه : الناس أبناء ما يحسنون ، فحث به الإنسان على اقتباس العلى ونهى عن الاقتصار على مآثر الآباء ، وأن المآثر الموروثة قليلة الغناء سريعة الفناء ما لم تضم معها فضيلة النفس ، لأن ذلك إنما حمد لكى يوجد الفرع مثله ومتى أخلف الفرع ، وتخلف فكأنه يخبر بأحد شيئين إما بتكذيب من

يدعى الشرف بعنصره، أو بتكذيبه فى انتسابه إلى ذلك العنصر وما فيهما حظ لمختار ، والمحمود أن يكون الأصل فى الفصل راسخاً والفرع به شامخا كما قال الشاعر :

زانوا قديمهم بحسن حديثهم وكريم أخلاق بحسن خصال

ومن لم يجتمع له الأمران فلأن يكون شريف النفس دنى الأصل أحمد من أن يكون دنى النفس شريف الأصل كما قيل :

إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبة من الثمرات اعتدّه الناس فى الحطب

فما الحسب الموروث لادرّ دره بمحتسب لا بآخر مكتسب

وما كان عنصره فى الحقيقة سنيا وفى نفسه دنيا ، فذلك أتى إما من إهماله نفسه وسومها ، وإما لتعوده عادات قبيحة وصحبة أشرار وغير ذلك من العوارض المفسدة للعناصر الكريمة ، فليس سببه سببا واحدا .

## الباب السابع والعشرون
### الفضائل الجسمية

قد اشتهر قوم بذلك فقالوا كفى بالمرء أن يكون صحيح البدن بريئا من الأمراض الشاغلة عن تحرى الفضائل العقلية وليس كذلك ، فالبدن للنفس بمنزلة الآلة للصانع والسفينة للربان اللذين بهما صار صانعا وربانا .

وجميع أجزاء البدن بالقول المجمل أربعة : العظام التى تجرى للبدن كالألواح للسفينة والعصب الذى يجرى له مجرى الرباط الذى شدّ به الألواح ، واللحم ، الذى يجرى له مجرى الحشو للرباطات ، والجلد الذى يجوى مجرى الغشاء لجميعها ،

فإذا اعتدلت هذه الأربعة بأن يعتدل فيها الأربع القوى وهى : الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة سمى ذلك الصحة ، ولولا صحة البدن لما حصل الانتفاع .

وأما القوه فهى جودة تركيب هذه الأركان الأربعة وهى العظام والعصب واللحم والجلد وما يتبعها ، وبها يصلح البدن للسعى والتصرف فى أمور الدنيا والآخرة .

وأما الجمال فنوعان : أحدهما امتداد القامة الذى يكون عن اعتدال الحرارة الغريزية ، فإن الحرارة إذا حصلت رفعت أجزاء الجسم إلى العلو كالنبات إذا نجم كلما كان أطلب للعلو فى منبته كان أشرف فى جنسه ولاعتبار بذلك استعمل فى كل ما جاد فى جنسه العالى والفايق وكثير المدح بطول القامة نحو قولهم :

كأن زرود القبطرية علقت علائقها منه بجزع مقوم

وقولة آخر :

أشم طويل الساعدين كأنما يناط نجادا سيفه بلواء

الثانى من الجمال أن يكون معدوداً قوى العصب طويل الأطراف ممتدها رحب الذراع غير مثقل بالشحم واللحم كما قال :

متى قدّ قد السيف لامتضائل ولازهل لباته وبآدله(١)

ولا نعنى بالجمال ههنا ما يتعلق به شهوة الرجال والنساء ، فذلك أنوثية وإنما نعنى به الهيئة التى لا تنبو الطباع عن النظر إليها ، وهو أدل شىء على فضيلة النفس لأن نورها إذ أشرق تأدى إلى البدن إشراقها ، وكل شخص فله حكمان . أحدهما: من قبل جسمه وهو منظره ، والآخر من قبل نفسه وهو مخبره ، وكثيراً

(١) لباته : جمع لبة ، لحم الثدى . والآدلة : ما بين العنق إلى المرفق .

ما يتلازمان ، ولذلك فزع أصحاب الفراسة فى معرفة أحوال النفس أولا إلى الهيئات البدنية ، حتى قال بعض الحكماء قل صورة حسنة يتبعها نفس ردية فنقش الخواتيم مقروء من الطين وطلاقة الوجه عنوان ما فى النفس ، وليس فى الأرض شىء إلا ووجهه أحسن ما فيه . قال النبي عليه الصلاة والسلام « اطلبوا الحاجات من حسان الوجوه » وقال عمر رضى الله عنه إذا بعثتم رسلا فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم . فالوجه والعين يظهر فيهما آثار النفس كالمرآه يستدل بها عليها ولذلك يظهر فيها أثر سرور النفس وحزنها ورضاها وسخطها . ولذلك عبر بالوجه عن الجملة ، وعن رئيس القوم بفلان وجه القوم وعينهم ، حتى قال تعالى ( كل شىء هالك إلا وجهه ) وكون الوجه المقبول فى دلالته على فضيلة النفس وإن لم يكن حكما لازما فهو على الأعم والأكثر . وحكى أن المأمون استعرض جيشا فمر به رجل قبيح الوجه فاستنطقه فرآه ألكن فأمر بإسقاطه وقال إن الروح إذا كانت ظاهرة كانت صباحة وإذا كانت باطنة كانت فصاحة وأراه لا ظاهر له ولا باطن . وكفاك عن البيان فى فضل كمال الجسم قول الله تعالى ( إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ) وقال : ( وزادكم فى الخلق بسطة ) وأما طول العمر فلولاه لقل حظ الإنسان من السعادات الدنيوية التى لولاها لما نيلت السعادة الأخروية ، والله ولى الفضل والإحسان وعليه المعول والتكلان .

## الباب الثانى والعشرون

## ما يتولد من الفضائل النفسية

أمهات الفضائل النفسية وإن كن أربعا فلها بنات هن أمهات لفضائل أخر وبيان ذلك أن العقل متى تقوى تولد من حسن نظره جودة الفكر وجودة الذكر ومن حسن فعله الفطنة ، وجزلة الرأى ، وتولد من اجتماع أربعتها جودة الفهم

وجوده الحفظ والشجاعة متى تقوّت تولد منها الجود فى حال النعمة والصبر فى حال المحنة ، والصبر يزيل الجزع ويورث الشهامة المختصة بالرجولية كما قال :

خلقنا رجالا للتجلد والأسى     وتلك الغوانى للبكا والمآتم

والعفة إذا تقوت ولدت القناعة ، والقناعة تمنع عن الطمع فى مال غيره ، فولدت الأمانة ، والعدالة إذا تقوت تولد الرحمة ، والرحمة هى الإشفاق من أن يفوت ذا حق حقه ، فهى تولد الحلم ، والحلم يقتضى العفو ، فالإنسانية والكرم يجمعان هذه الفضائل .

وذلك أن الإنسانية هى الفضائل النفسية المختصة بالإنسان وبقدر ما يكتسبه الإنسان يستحقها وفيه تفاصيل كثيرة كما تقدم فى الفرق فيما بين الإنسان والإنسان ، فمنهم من قد ارتفع حتى لحق أفق الأملاك ، فلو تصورنا ملكا جسميا لكان هو إياه لارتفاعه عن الإنسانية إلا بالصورة التخطيطية ، وعلى هذا قوله تعالى ( إن هذا إلا ملك كريم ) ومنهم من اتضع حاله حتى صار فى أفق البهائم ، فلو تصورنا كلبا أو حمارا منتصب القامة متكلماً لكان هو إياه لانسلاخه عن الإنسانية إلا بالصورة التخطيطية ، وعلى هذا قوله تعالى ( إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ) ومنهم من هو فى أوسط هذه فى درجة من درجات لها كثيرة ، ولهذا صح أن يقال فلان أكثر إنسانية من فلان ، وما يختص به لفظ الإنسانية فهى الأخلاق والأفعال المحمودة .

فأما المذمومات من الأفعال فتشارك الإنسان فيها البهائم والشياطين أما المروءة فلها اشتقاقان ففى إحداهما ما يقتضى أن تكون هى والإنسانية متقاربين وهو أن يجعل من قولهم مرؤ الطعام وأمرأه إذا تخصص المرىء لموافقة الطبع

وكأنها اسم للأخلاق والأعمال التى تقبلها النفوس السليمة ، فعلى هذا يكون اسما للأفعال المستحسنة كالإنسانية . والثانى أن تكون من المرء فتجعل اسما للمحاسن التى يختص بها الرجل دون المرأة فتكون كالرجولية ، وذلك أخص من الإنسانية إذ الإنسانية يشترك فيها الرجال والنساء ، والمروءة أخص فكثيرا ما يكون فضيلة للمرأة يكون رذيلة للرجل ، كالبله والخفة والجبن ، ولهذا قيل أفضل أخلاق الرجل أرذل أخلاق النساء ، فالكيس والشجـــاعة والجود رذيلة لهنّ .

وقيل لمعاوية ماالمروءة فقال إطعام الطعام وضرب الهام ، وقيل للأحنف فقال أن لايفعل فى السر مايستحى منه فى العلانية ، وقيل لآخر فقال جماعها فى قول الله عز وجل ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان ) الخ .

وأما الكرم فاسم لجماع الأخلاق والأفعال المحمودة إذا ظهرت بالفعل والحرية مثله لكن يقال ذلك فيمن لاتستعبده المطامع والأغراض الدنيوية ، وذكر بعض الحكماء ، ان الحرية تقال فى المحاسن الصغيرة والكبيرة كمن ينفق مالا فى تجهيز جيش فى سبيل الله تعالى أو يحمل حمالة برقابها دماء قبيلة ، فكل كرم حرية وليس كل حرية كرما ، وأيضا فالحرية تتعلق بالتلطف عن الأخذ وأكثر الكرم يتعلق بالإنفاق أكثر ويضاد الكرم اللؤم والحرية العبودية أعنى المذكورة فى قول الشاعر :

والعبد لا يطلب العلاء ولا يعطيك شيئاً إلا إذا رهبا

وكما أن الكرم أعم من الجود فاللؤم أعم من البخل ولا يدخل فى الحرية والكرم النساء فإنهن مستخدمات بل مستعبدات ، ولذلك روى لوأمر الله مخلوقا بعبادة مخلوق لأمر النساء بعبادة أزواجهن ، إن قيل ماحقيقة قول الله تعالى ( إن

أكرمكم عند الله أتقاكم ) قيل لما كان الكرم اسما للأفعال المحمودة التى تقدم ذكرها وهذه الأفعال إنما تكون فاضلة إذا كان عن علم وقصد بها أشرف الوجوه أى وجه الله تعالى ، وذلك هو التقوى ، فليس التقوى إلا العلم وتحرى الأفعال المحمودة كان كل من اتقى أكرم ·

والعزيز : الذى يأبى تحمل المذلة واشتقاقه من العزاز كالمتظلف فى الامتناع من تناول الشهوات المذلة وأصله من الظلف وهى الأرض الصلبة ، وفرق بعض الحكماء بين العزيز والكريم فقال : الكريم يأبى أن يعصى له ، والعزيز يأبى أن يعصى عليه ·

والظرف اسم لحالة تجمع عامة الفضائل النفسية والبدنية والخارجة تشبيها بالظرف الذى هو الوعاء ، لذلك قال أعرابى فلان حاضن الشرف ومقر الفضل ولكونه واقعا على ذلك قيل لمن حصل له علم وشجاعة ظريف ولمن حسن لباسه وأثاثه ورياشه ظريف ، فالظرف أعم من الحرية والكرم .

وأما الفتوة كالمروءة فإنها اسم لما يختص به الفتى من الفضائل الإنسانية ، لكن هى بالرجولية أشبه ، وقد استعارت الصوفية لفظ الفتوة للتصرف لكونها مشاركة له فى جميع أفعالها إلا فى الغرض ، فإن غرض الفتيان استجلاب محمدة الأقران ، وغرض الصوفية استجلاب محمدة الرحمن ، بل مجرد مرضاته تعالى ·

وأما الحسب فقد يقال فيما يختص الإنسان به فيعده من مآثره ، وقد يقال فيما يؤثر عن آبائه ، والشرف نحوه ، لكن أكثر مايقال فيما يؤثر عن الآباء ·

## الباب التاسع والعشرون

### الفضائل التوفيقية

التوفيق موافقة إرادة الإنسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره وإن كان في الأصل موضوعا على وجه يصح استعماله فى السعادة والشقاوة فقد صار متعارفا فى السعادة فقط والاتفاق مطاوعة التوفيق لكن قد يستعمل فى السعادة والشقاوة جميعا ، فيقال اتفاق جيد واتفاق ردىء ، والتوفيق مما لا يستغنى الإنسان عنه فى كل حال كما قيل لحكيم ما الذى لايستغنى عنه أحد فى كل حال . فقال التوفيق وأنشد :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر مايجنى عليه اجتهاده

فالسعادة التوفيقية هى الهداية والرشد والتسديد والتأييد، فيجب أن يعلم أن لا سبيل لأحد إلى شىء من الفضائل إلا بهداية الله تعالى ورحمته فهو مبدأ الخيرات ومنتهاها ، كما قال الله تعالى ( اعطى كل شىء خلقه ثم هدى ) . وخاطب فقال ( ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « مامنكم من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى » أى بهدايته « قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » أى بهدايته . تنبيها إلى أنه لو توهمت رحمته مرتفعة ابتداء وانتهاء ما كان لنا سبيل إلى ذلك .

وللهداية ثلاث منازل فى الدنيا الأول تعريف طريق الخير والشر المشار إليهما بقوله تعالى ( وهديناه النجدين ) وقد خول الله تعالى الهدى كل مكلف بعضه بالعقل وبعضه بألسنة الرسل وإياه عنى بقوله ( وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا

العمى على الهدى ) والثانى مايمده به العبد حالا فحالا بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح وإياه عنى بقوله ( والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ) والثالث نور الولاية التى هى فى أفق نور النبوة ، وإياه عنى بقوله تعالى ( قل إن هدى الله هو الهدى ) فأضاف ذلك إلى لفظة الله تعظيما له ثم قال هو الهدى فجعله الهدى المطلق وبقوله ( ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ) أى نورا يفرقون به بين الحق والباطل . وكل ذلك تسمى النور والحياة نحو ( أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا ) الآية وقال ( أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ) وبتحرى هذه المنازل الثلاثة يتوصل إلى الهداية إلى الجنة المذكورة فى قوله تعالى ( وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله )

والرشد عناية إلهية تعين الإنسان عند توجهه فى أموره فتقويه على ما فيه إصلاحه وتفتره عما فيه فساده ، وأكثر ما يكون ذلك من الباطن نحو قوله تعالى ( ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ) وكثيرا ما يكون ذلك بتقوية العزم أو فسخه ، وإليه نوجه قوله تعالى ( واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه )

والتسديد أن يقوم إرادته وحركاته نحو الغرض المطلوب لتهجم عليه فى أسرع مدة يمكن الوصول فيها إليه ، وهو المسئول بقوله تعالى ( اهدنا الصراط المستقيم ) .

والنصرة من الله تعالى معونة الأنبياء والأولياء وصالحى العباد بما يؤدى إلى صلاحهم عاجلا وآجلا ، وذلك يكون تارة من خارج يقيضه الله تعالى فيعينه ، وتارة من داخل بأن يقوى قلوب الأولياء أو يلقى رعباً فى قلوب الأعداء ، وعلى ذلك قوله تعالى ( إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ) وقوله ( ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ) .

وأما ما يختص بسعادة الدنيا ولا يعتبر فيه العاقبة فيقال لها الدولة ، وعلى هذا قوله تعالى ( وتلك الأيام نداولها بين الناس ) وقوله فى وصف الفىء ( كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ) .

والتأييد تقوية أمره من داخل بالبصيرة ومن خارج بقوة البطش ومن الأول قوله تعالى ( إذ أيدتك بروح القدس ) والعصمة فضل إلهى يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع له من باطنه ، وإن لم يكن منعاً محسوساً ، وإياه عنى بقوله ( ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ) وقد روى أن يوسف رأى صورة يعقوب عليهما السلام وهو عاض على إبهامه فأحجم ، وليس ذلك لمانع ينافى التكليف كما تصوره بعض المتكلمين ، فإن ذلك تصور منه وتذكر لما كان قد حذر منه ، وعلى هذا قال تعالى ( كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ) ومن عصمته تعالى أن أن يكرر الوعيد على من يريد عصمته لئلا يغفل ساعة عن مراعات نفسه كقوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم ( ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ) واعلم أن رشده تعالى للعبد وتسديده ونصرته وعصمته تكون بما يخوله من الفهم الثاقب والسمع الواعى والقلب المراعى ، وتقييض المعلم الناصح والرفيق الموافق ، وإمداده من المال مالا تقعده به عن مغزاه قلته ولا تشغله عنه كثرته ، ومن العشيرة والعز ما يصونه عن سفه السفهاء وعن الغض منه من جهة الأغنياء ، وإن خوله من كبر الهمة وقوة العزيمة ما يحفظه عن الأشياء الدنية والتأخر عن بلوغ كل منزلة سنية .

## الباب الثلاثون

### فى تلازم الفضائل النفسية بعضها بعضا

العقل والعفة والشجاعة والجود والعدالة وسائر الفضائل تتلازم ، فإن العقل إذا أشرق عقل صاحبه عن الإقدام على ما يورثه مذمة ويحمل على الإقدام على المخاوف التى تورثه المحمدة ، وعلى أن يتمم تفضل ما فى يده لمن يحتاج إليه ، وأن يبذل لكل ذى حق حقه ، وذلك هو العفة والشجاعة والجود والعدالة ، وكذا إذا كان عدلا يحمله عدله على ترك تناول مالا يجوز تناوله ، وأن لا يحجم عما يلزمه الإقدام عليه وأن لا يبخل بفضل ما فى يده ، وإذا كان شجاعا لا تقهره شهوته على تناول ما لا يجوز تناوله وعلى ظلم غيره ، ولا يخاف الفقر فيبخل ، ولهذا النظر جعل بعض الشعراء الشجاعة سماحة والسماحة شجاعة فقال :

أيقنت أن من السماح شجاعة تدمى وأن من الشجاعة جودا

وجعل النبى صلى الله عليه وسلم دفع الشهوة جهاداً فقال « جهادك هواك » . وجعلت العفة جودا . فقيل الجود جودان ، جود بمافى يدك وجود عما فى يد غيرك وهو أعظمهما وهذه الفضائل إذا حصلت حصل بها الإنسانية والحرية والكرم ، وعنها يتأصل الإسلام والإيمان والتقوى والإخلاص .

## الباب الحادى والثلاثون

### البواعث على فعل الخير وتحرى الفضائل

البواعث على تحرّى الخيرات الدنيوية ثلاث أدناها الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره . والثانى رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتدّ بحمده

وذمه ، والثالث تحرى الخير وطلب الفضيلة ؛ فالأولى من مقتضى الشهوة وذلك من فعل العامة والثانية من مقتضى الحياء وهى من فعل السلاطين وكبار أبناء الدنيا والثالثة من مقتضى العقل ، وذلك من فعل الحكماء ، ولهذه المنازل الثلاث قيل خير ما أعطى الإنسان عقل يردعه ، فإن لم يكن فحياء يمنعه ، فإن لم يكن فخوف يقمعه ، فإن لم يكن فمال يستره ، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه تريح منه العباد والبلاد . وكذا البواعث على الخيرات الأخروية ثلاث الأول الرغبة فى ثواب الله تعالى والمخافة من عقابه ، وذلك منزلة العامة ، والثانى رجاء حمده ومخافة ذمه ، وذلك منزلة الصالحين ، والثالث طلبه مرضاته تعالى فى المتحـــــريات ، وذلك منزلة النبيين والصديقين والشهداء وهى أعزها وجودا ؛ ولذلك قال بعضهم أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى أن يعلم أنه لا يريد العبد من الدنيا والآخرة غيره ، قال الله تعالى ( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه ) .

وقيل لرابعة ألا تسألين الله تعالى فى دعائك الجنة فقالت الجار قبل الدار . فبهذا النظر قال بعضهم من عبد الله تعالى بعوض فهو لئيم ، وقال بعض العلماء هذه المنازل الثلاثة منازل الظالم والمقتصد والسابق ، وأجدر أن تكون هذه المنازل الثلاثة ما روى عنه عليه الصلاة والسلام « سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء » فقد قال بعض العلماء مساءلة العلماء ترغبك من الله تعالى فى ثوابه وتخوفك من عقابه ، ومخالطة الحكماء تقربك من الحمد وتبعدك من الذم ، ومجالسة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل البارى .

## الباب الثانى والثلاثون

## الموانع من تحرى الفضائل

وذلك ضربان قصور وتقصير ، فأما القصور فبأن لا تكون له المعانى العشرة التى قدمناها ولا التمكن من اكتسابها أو يكون له ذلك ، ولكن يعوقه عن استعماله عائق مرضى أو شغل ضرورى لعذره كحاجة إلى السعى فيما يسد به جوعته ويستر به عورته وهما عدم الوسع المذكور فى قوله تعالى ( لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ) ودواء الأمرين الفزع إلى الله تعالى والتضرع إليه بأن يجبر نقصه بتمام جوده وسعة رحمته .

وأما التقصير فأربعة أشياء الأول أن يكون إنسانا لا يعرف الحق من الباطل ولا الجميل من القبيح فيبقى غفلا فدواؤه سهل وهو التعليم الصائب ، والثانى أن يكون قد عرف ذلك لكن لم يتعود فعل الصالح وزين له سوء عمله فرآه حسنا فتعاطاه ، وأمره أصعب من الأول ، لكن يمكن أن يقهر على العادة الجميلة حتى يتعودها ، وإن كان قد قيل ترك العادة شديد . والثالث أن يعتقد فى الباطل والقبيح أنه حق وجميل فتربى على ذلك ومداواة ذلك صعب جدا ، فقد صار ممن طبع على قلبه إذا تنقش بنقش خسيس ككاغد كتب فيه ما يؤدى حذفه منه إلى حرقه وفساده . والرابع أن يكون مع جهله وتربيته على الاعتقاد الفاسد شريرا فى نفسه يرى الخلاعة وقهر النفس فضيلة وذلك أصعب الوجوه وإلى نحوه قصد من قال : من التعذيب تأديب الذيب ليتهذب وغسل المسح (١) ليبيض ، فالأول من هؤلاء الأربعة يقال له الجاهل ، والثانى يقال له الجاهل والضال ، والثالث يقال له جاهل وضال وفاسق ، والرابع يقال له جاهل وضال وفاسق وشرير .

---

(١) المسح : القطعة من الفضة .

## الباب الثالث والثلاثون

## الارتقاء فى درجات الفضائل والانحدار عنها إلى أقصى الرذائل

للإنسان فى منازل الفضائل مرتقى صعب ومنحدر سهل وعلى الارتقاء فيها حث ربنا تبارك وتعالى بقوله ( وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ) وبقـــوله ( فاستبقوا الخيرات ) ومدح قوما بقوله ( يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ) وعن الانحدار منها نهى الله تعالى بقوله ( ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ) وبقوله ( ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ) وذم قوما شأنهم ذلك بقوله ( إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ) وبقوله ( إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم ) وبقوله ( ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ) فإن الآية تقتضى هذا المعنى ، وإن كان ظاهرها يدل على الجهل الذى يورثه الهرم ، فالخيرات يترقى فيها فتبلغ إلى أشرف المنازل بأربع درجات ، وينحدر فتبلغ إلى أرذل المنازل بأربع درجات أيضا .

فأما درجات الارتقاء فأولها أن يرتدع الإنسان عن المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على ترك مقاومتها وذلك أول درجة التائبين المطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

وثانيها أن يقوم بالعبادات الموظفة عليه ويسارع فيها بقدر وسعه ، وذلك درجة الصالحين .

وثالثها أن يتحرى بعلمه الحقيقى تعاطى الحسنات من غـــير تلفت منه إلى

المحظورات بمجاهدة هواه وإماتة شهواته ، وذلك منزلة الشهداء .

ورابعها أن يكون مع هذه الأحوال المتقدمة يرضى ظاهراً وباطناً بقضاء الله تعالى فلا يتزعزع تحت حكمه ولا يتسخط شيئاً من أمره ، ويعلم أن الله تعالى أولى به من نفسه ، وذلك درجة الصديقين . وهذه المنازل الأربعة المرادة بقوله تعالى ( ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ) .

وأجدر أن تكون هذه المنازل الأربعة هي المأمور بها في قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ) .

واعلم أن منزلة الرضا أشرف المنازل بعد النبوة فمن رضى عن الله عز وجل فقد رضى الله عنه لقوله تعالى ( رضى الله عنهم ورضوا عنه ) فجعل أحد الرضائين مقرونا بالآخر ، فمن بلغ هذه المنازل عرف خساسة الدنيا واطلع على جنة المأوى وخطب مودة الملأ الأعلى وحظى بتحيتهم المعنية بقوله تعالى ( والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ) .

وأما درجات الانحدار والارتداد عنها فأولاها الكسل عن تحرى الخيرات وتورثه ذلك الزيغ المعنى بقوله ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) .

وثانيها الغباوة وهى ترك النظر ونقض العمل فيورثه ذلك رينا على قلبه بقوله ( كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ) .

وثالثها الوقاحة وهو أن يرتكب الباطل ويراه في صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة قلب كما قال تعالى ( ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ) .

ورابعها الانهماك فى الباطل وهو أن يستحسنه فيحبه ، ويحسنه ويحببه ، فيورثه ذلك ختما على قلبه ، وأقفالا عليه كما قال تعالى ( ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ) وكما قال ( أم على قلوب أقفالها ) والكسل سبب الغباوة والغباوة سبب الوقاحة والوقاحة سبب الانهماك ، كما أن الزيغ يوجب الرين والرين يوجب القساوة والقساوة توجب الختم والأقفال .

فحق الإنسان أن يراعى نفسه فى الابتداء ولا يرخص فى ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك إلى ارتكاب الكبائر كما قيل :

إن الأمور دقيقها      مما يهيج به العظيم

وقد قال الله تعالى ( فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ) فدل أن قعودهم أول مرة أدّى لهم إلى أن صار محكوما عليهم أنه لا يتأتى منهم الخروج معه صلى الله عليه وسلم بوجه .

## الباب الرابع والثلاثون

## بيان عبادة الله تعالى فى تهذيب الذين ترددوا فى الرذائل حتى فسدت أخلاقهم

الناس متى تركوا تعاطى الإحسان والأفضال وتحرى العدالة فيما بينهم فلا يأتوا بها لا خلقا ولا تخلقا ولا رياء ولا سمعة ولا رهبة ولا رغبة ، فصاروا فى تعاطى الشر سواء بسواء ثنيات كأسنان الحمار ، عدم فيهم الفضيلة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا » فحينئذ إن بقى فى نفوسهم أثر قبول الخير إن شاء الله تعالى فيهم من يهديهم باللسان والسيف

الحق كبعثة النبي صلى الله عليه وسلم فى العرب لما بقى فيهم من أثر الخير : من تعظيم الشهر الحرام والبيت الحرام والوفاء بالذمام، وإن قل فيهم أثر قبول الخير سلط الله عليهم سيفا جائراً كما قال تعالى ( وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله ينتصف من أوليائه بأوليائه ومن أعدائه بأعدائه » وعاملهم بما عامل به بنى اسرائيل حيث سلط عليهم بخت نصـــــر وقد ذكر ذلك فى قوله تعالى ( فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد) الآية وإن عدم منهم أثر القبول بعث فيهم عذابا يفنيهم إما طوفانا أو جائحة أو ناراً محرقة أوريحا فيها عذاب أليم فيطهر عنهم البلاد ويريح منهم العباد كما صنع الله بعاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح ، وذلك كالأرض إذا استولى عليها الشوك لا بد من تسلط النار عليها حتى تعود بيضاء .

## الباب الخامس والثلاثون

## أصناف النـاس

الناس ضربان خاص وعام فالخاص من قد تخصص من المعارف بالحقائق دون التقليدات ومن الأعمال ما يتبلغ به إلى جنة المأوى دون ما يقتصر به على الحياة الدنيا، والعام إذا اعتبر بذلك فالذين يرضون من المعارف التقليدات ومن أكثر الأعمال بما يؤدى إلى منفعة دنيوية .

وإذا اعتبر بأمور الدنيا فالخاص مايتخصص بأمور البلد بماينخرم من افتقاده إحدى السياسات المدنية ، والعام مالاينخرم بافتقاده شىء منها .

وهم من وجه آخر ثلاثة خاصة وعامة وأوساط والأوساط هم المسمون فى كلام العرب بالسوقة ؛ فالخاص هو الذى يسوس ولا يساس ، والعام هو الذى يساس ولا يسوس والأوسط هو الذى يسوسه من فوقه وهو يسوس من دونه .

ومن وجه آخر ثلاثة أضرب أصحاب الشهوات وهممهم الجدة واليسار والأكل ، والشرب والبغال،وأصحاب الكرامة والرياسة وهممهم المدح واستجلاب الصيت والمحمدة ، وأصحاب الحكمة وكل واحد منها يستعظم من هو من جنسه ، ولهذا احتاج السلطان إلى كل ذلك وتعنيته ليكون معظما عند كل ضرب من الجميع من الناس ، فيعظمه أصحاب الحكمة لحكمته ، وأصحاب الكرامة لكرامته والرياسه لرياسته ، وأصحاب الشهوات لماله وكثرة قنيانه .

ومن وجه آخر ثلاثة أضرب ملكى وشيطانى وإنسى ، فالملكى الذى يستعمل القوة العاقلة بقدر جهده وهم المؤمنون حقا ، والشيطانى الذى يستعمل القوة الشهوية من غير تلفت إلى مقتضى العقل ، والإنسى الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئاً وهم المذكورون فى قوله تعالى ( فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم ) وهو المؤمن والفاسق والكافر وهم المذكورون فى قوله تعالى ( وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون ) .

ومن وجه آخر ضربان أبرار وفجار ، فالأبرار ثلاثة أضرب ظالم ومقتصد وسابق ، وهم المذكورون فى قوله تعالى ( ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ) الآية . وهم أيضا اعنى الابرار ثلاثة أضرب أنبياء للمشاهدة والهداية لقوله تعالى ( لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ) وحكماء وهم الأولياء للمراقبة والرعاية لقوله تعالى ( ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ) وعوام للمجاهدة والكفاية وهم المذكورون فى قوله تعالى ( يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ) .

وهم أيضا ضربان عبد بالطبع وإن كان ملكا وملك بالطبع وان كان عبدا مسترقا ، والملك من حصل الفضائل النفسية التى بها يصير الإنسان بحيث يصح أن يوصف بأنه ربانى وإلهى وملكى ، ويصح أن يكون خليفة الله فى أرضه ، والعبد من قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس ولا انتعش وإذا شيك فلا انتقش » .

وقال بعض الحكماء ما من إنسان إلا وفيه خلق من أخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات ، ليكون الإنسان مشاركا لهما فى الجنسية ، وان كان مباينا لهما فى النوعية ، فمن الناس غشوم كالأسد وعابث كالذئب ، وخب كالثعلب ، وشره كالخنزير وجامع كالنمل ، ووقح كالذباب ، وبليد كالحمار ، وألوف كطير الوقا وصنع كالسلفة.وأنف كالأسد والنمر ، وغيور كالديك ، وهاد كالحمام ، ومنهم حسن المنظر والمخبر كالأترج ، ومنهم بخلاف ذلك كالعفص والبلوط ، ومنهم قبيح المنظر حسن المخبر كالجوز واللوز ، ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلى .

والمؤمن الخير هو فى الحيوانات كالنحل يأخذ أطايب الأشجار ولا يقطف ثمراً ولا يكسر شجراً ولا يؤذى بشرا ، ثم يعطى الناس ما يكثر نفعه ويحلو طعمه ويطيب ريحه ، وهو فى الأشجار كالأترج يطيب حملا ونورا وعودا وورقا .

والمنافق الشرير هو فى الحيوانات كالقمل والأرضة وفى الأشجار كالكشوت فلا أصل له ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا زهر ، يفسد الثمار ويبيس الأشجار ، وكالثمرة التى قل ورقها وكثر شوكها وصعب مرتقاها .

# الفصل الثانى

## فى العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها

### الباب الأول فضيلة العقل

العقل أول جوهر أوجده الله تعالى وشرفه ، بدلالة ماروى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم علىّ منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب» .

ولو كان على ماتوهمه قوم أنه عرض لما صح أن يكون أول مخلوق لأنه محال وجود شىء من الأعراض قبل وجود جوهر يحمله .

وقال عليه الصلاة والسلام « لا دين لمن لا عقل له » وقال « لا يعجبنكم إسلام امرىء حتى تعرفوا عقدة عقله » ومن هذا الوجه أشار النبى عليه الصلاة والسلام .

قالت الحكماء من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خصال الشر عليه ، وبالعقل صار الإنسان خليفة الله عز وجل ، ولو توهم مرتفعا لارتفعت الفضائل عن العالم فضلا عن الإنسان ، وبما غرسه الله تعالى فى الإنسان منه اهتدى من وفقه الله تعالى إلى تزكية نفسه المذكورة فى قوله تعالى ( قد أفلح من زكاها ) وحصل به حرث الآخرة فى قوله تعالى ( من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ) .

وثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة أشياء ، بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز وعلم بلا جهل ، وغنى بلا حاجة،وأمن بلا خوف ، وراحة بلا شغل ، وعز بلا ذل .

وإلى العقل أشار بقوله تعالى ( الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ) الآية فمعنى نور السموات أى منورها . والنور هو العقل ، وقد تقدم وجه ضرب هذا المثل .

ويقال العقل على ضربين أحدهما بغير إضافة وهو المذكور بأنه أول مخلوق . والثانى بالإضافة إلى آحاد الناس فيقال عقل فلان ، وهو من الأول بمنزلة الضوء من الشمس .

## الباب الثانى

## أنواع العقل

العقل عقلان : غريزى ، وهو القوة المتهيئة لقبول العلم ، ووجوده فى الطفل كوجود النخل فى النواة والسنبلة فى الحبة ، ومستفاد وهو الذى تتقوى به تلك القوة وهذا المستفادضربان ، ضرب يحصل عليه الإنسان حالا فحالا بلا اختيار منه فلا يعرف كيف حصل ومن أين حصل ، وضرب باختيار منه فيعرف كيف حصل ومن أين حصل وحصوله بعد اجتهاده فى تحصيله ،ولكون العقل غريزيا ومستفادا قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه .

العقل عقلان مطبوع ومسموع

فلا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

وإلى الأول أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل ، وإلى الثانى أشار عليه الصلاة والسلام بقوله لعلىّ رضى الله عنه : إذا تقرب الناس إلى خالقهم بأبواب البر فتقرب أنت إليه بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس فى الدنيا وعند الله فى الآخرة ، وقال رضى الله عنه ما اكتسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عن ردى .

ولاختلاف النظرين قال قوم العقل مبدع ، وقال قوم هو مكتسب ، وكلا القولين صحيح من وجه ووجه ، والعقل الغريزى للنفس بمنزلة البصر للجسد ، والمستفاد لها بمنزلة النور ، وكما أن البدن متى لم يكن له بصر فهو أعمى كذلك النفس متى لم يكن لها بصيرة أى عقل غريزى فهى عمياء ، وكما أن البصر متى لم يكن له نور من الجوّ لم يجد بصره ، كذلك العقل إذا لم يكن له نور من العلم مستفاد لم يجد بصيرته ، ولذلك قال تعالى : ( ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ) .

وقد جعل للعقل نظر وإدراك ورؤية وإبصار ، وجعل له أضداد من العمى وغيره ، وقال عز وجل : ( وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ) ، وقال : ( ما كذب الفؤاد ما رأى ) ، وقال : ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ) .

ولما كان فقدان البصيرة أشنع من فقدان البصر لأن بارتفاع البصيرة ارتفاع النفع بالبصر ، قال الله تعالى : ( فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ) فذمهم بفقدان البصيرة تنبيهاً أن فقدانها اختيارى إذ هو تركهم استفادة العلم ، وأكثر فقدان البصر ضرورى ، وقال تعالى : ( الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ) فلولا أن العين أريد منها البصيرة

لما قال عن ذكرى ، لأن الذكر لا يدرك بحاسة العين ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما لمن عيره بفقدان البصر : إنا نصاب فى أبصارنا وأنتم تصابون فى بصائركم ، وكيف لا يكون فقدان البصيرة أعظم ضرراً من فقدان البصر ، وقد تقدم أن البدن بمنزلة فرس والنفس بمنزلة راكبه ، وضرر عمى الراكب نفسه أشد عليه من عمى فرسه .

## الباب الثالث

## المكتسب من العقل الدنيوى والأخروى

العقل المكتسب ضربان : أحدهما التجارب الدنيوية والمعارف المكتسبة . والثانى : العلوم الأخروية والمعارف الإلهية وطريقاهما متنافيان ، وقد ضرب أمير المؤمنين على رضى الله عنه لذلك ثلاثة أمثال فقال إن مثل الدنيا والآخرة كفتى الميزان لا ترجح إحداهما إلا بنقصان الأخرى ، وكالمشرق والمغرب كل من قرب من أحدهما بعد من الآخر . وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى .

ولذلك ترى قوما أكياسا فى تدبير الدنيا بلها فى تدبير الآخرة وقوما أكياسا فى أمور الآخرة بلها فى أمور الدنيا حتى قال عليه الصلاة والسلام « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » وقيل لمن نسب بعض الصالحين إلى البله : أكثر أهل الجنة البله .

ولاختلاف طريقهما قال الحسن رحمه الله أدركنا قوما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا شياطين ولقلة الاعتداد بالمعارف الدنيوية ، قال لرجل وصف نصرانيا بالعقل معه إنما العاقل من وحد الله تعالى وعمل بطاعته ، وقال

تعالى حكاية عن أهل النار : ( لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ).

ومن تصور اختلاف الطريقين أعنى طريق الدنيا وطريق الآخرة لم تعرض له الشبهة التى عرضت لقوم قالوا لو أن هنا حقا لما جهله الذين لم يلحق شأوهم فى تدبير الدنيا ودقائق الصناعات وأوضحوا الحكم والسياسات ، وذلك كما أنه من المحال أن يظفر سالك طريق الشرق بما لا يوجد إلا فى الغرب أو يظفر سالك طريق الغرب بما لا يوجد إلا فى الشرق ، كذلك من المحال أن يظفر سالك معارف الدنيا بمعارف طريق الآخرة ، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله : ( إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ) ، وبقوله : ( ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ) الآية .

ولا يكاد يجمع بين معرفة الدنيا والآخرة معاً على التحقيق والتصديق إلا من رشحهم الله تعالى لتهذيب الناس فى أمر معاشهم ومعادهم جميعاً كالأنبياء وبعض الحكماء . ولما كان العقل هو الذى يردع الإنسان من الذنب واكتسابه على التمام والكمال فى الورى عسير لم ينفك أحد من ذنب يرتكبه ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما منا نبى إلا أذنب أو همّ » .

## الباب الرابع
## منازل العقل واختلاف أسمائها بحسبها

العقل اسم عام لما يكون بالقوة أو بالفعل ، ولما كان غريزيا وما كان مكتسباً ، وهو فى اللغة قيد البعير لئلا يندّ ، وسمى هذا الجوهر به تشبيها على عادتهم فى استعارة أسماء المحسوسات للمعقولات ، وخص بناء المصدرية لأنه لما

كان يستعمل تارة للحدث ومرة للفاعل نحو عدل وصوم وزور ، ومرة للمفعول نحو خلق وأمر ، لكن يتصور منه كونه سببا لتقيد الإنسان به وكونه مقيداً له عن تعاطى ما لا يجمل وكونه معتداً به من بين الحيوان .

والنهى فى الأصل جمع نهية أو اسم مفرد نحو جعل وصرد ، أو وصف نحو دليل خنع وسائق حطم ، وجعل اسما للعقل الذى انتهى من المحسوسات إلى معرفة ما فيه من المعقولات ، ولذلك أحيل أربابه على تدبر معانى المحسوسات فى قوله تعالى : ( أفلم يهدلهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ) وقال : ( وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ) .

والحجر أصله من الحجر أى المنع وهو اسم لما يلزمه الإنسان من حظر الشرع ، والدخول فى أحكامه ، وعلى ذلك قوله تعالى : ( هل فى ذلك قسم لذى حجر ) .

وسمى حجى من حجاه أى قطعه ومنه الأحجية فكأنه سمى بذلك لكونه قاطعاً للإنسان عما يقبح .

وأما اللب فهو الذى قد خلص من عوارض الشبه وترسخ لاستفادة الحقائق من دون الفزع إلى الحواس ، ولذلك علق الله تعالى فى كل موضع ذكره بحقائق المعقولات دون الأمور المحسوسة نحو قوله : ( إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ) فوصفهم بهداية الله إياهم ) .

وقد سمى الله تعالى العلم نوراً والجهل ظلمة فقال : ( الله ولىّ الذين آمنوا

يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا ) الآية . وسماه روحا فى قوله تعالى : ( وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ) الآية . وسماه حياة والجهل موتا بقوله تعالى : ( أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا ) الآية . وقوله : ( وما يستوى الأحياء ولا الأموات ) الآية . وسماه ماء بقوله : ( أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ) الآية .

والإيمان زبدة العقل والعمل ، ولذلك قال الله تعالى فى مواضع : ( إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ) فعلق به ما علق بهما وسمى العقل قلبا وذلك أنه لما كان القلب مبدأ تأثير الروحانيات والفضائل سمى به ، ولذلك عظم الله تعالى أمره لاختصاصه بما قد أوجد لأجله ، قال تعالى : ( يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ) وقال : ( من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ) وقال ( إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ) فنبه أن القلب فى الحقيقة يكون قلبا إذا كان متخصصا بما قد أوجد لأجله ، وما أوجد لأجله هو المعارف الحقيقية ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن فى البدن مضغة إذا استقامت استقام البدن وإذا اعوجت اعوج البدن ، ولما كان أشرف المعارف هو ما يخصص به القلب ، قال الله تعالى : ( نزل به الروح الأمين على قلبك ) فخصه بالذكر .

## الباب الخامس

## جلالة العقل وشرف العلم

العقل حيثما وجد يكون محتشما حتى إن الحيوان إذا رأى إنسانًا احتشمه بعض الاحتشام وانزجر بعض الانزجار ، ولذلك تنقاد الإبل للراعى ، وكذلك جماعة الرعاة إذا رأوا منهم من كان أوفر عقلا وأغزر فضلا فيما هم بصدده

انقادوا لهم طوعا ، فالعلماء إذا لم يعاندوا انقادوا ضرورة لأكثرهم علما وأوفرهم نفسا وأفضلهم عقلا ولا ينكر فضله إلا كل متدنس بالمعايب متطلب للرياسة حافظ على غرض دنيوى قد جعل عقله خادما لشهوته ، فلحفظه على رياسته ينكر فضل الفاضل .

ولفضيلة العقل الوافر كان كثير ممن كانوا يعاندون النبى صلى الله عليه وسلم قصدوه ليقتلوه ، فما كان إلا وقع طرفهم عليه فرؤى لهم نور الله تعالى معربا عنه فألقى فى قلوبهم منه روعة فهابوه ، فمن مذعن له طائع وخبيث لا ينكره بعد إلا جاحدا ولهذا المعنى قال الشاعر :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تغنيك عن خبره

وقد تقدم أن الانسان لم يتميز عن البهائم إلا بالعقل ولم يشرف إلا بالعلم ومن شرف العلم أن كل حياة انفكت منه فهو غير معتد بها بل ليست فى حكم الموجودة ، فإن الحياة الحيوانية لم يحصل ما لم يقارنها الاحساس ، فيلتذ بما يوافقه ويطلبه ويتألم بما يخالفه فيهرب منه ، وذلك أخس المعارف .

فمقتضى الحياة الإنسانية أنها إذا تعرت من المعارف المختصة بها أن لا يعتد بها ، ولذلك سمى الله تعالى الجاهل ميتا فى غير موضع من كتابه فقال ( أو من كان ميتا فأحييناه ) .

ولأجل أن الحياة تقارن العلم سمى الله تعالى العلم روحا فى قوله ( وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ) .

وقد ذكرنا أن حاجة الانسان إلى العلم أكثر من حاجته إلى المال ، لأن العلم نافع لا محالة ونفعه دائم فى الدنيا والآخرة ، والمال قد ينفع وقد يضر ، وإذا

نفع فنفعه منقطع ، فمن استفاد علما ثم ضيعة أو تمكن من استفادته فأهمله فقد خسر خسرانا مبينا كما قال تعالى ( واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ) إلى قوله ( لعلهم يتفكرون ) .

## الباب السادس

### الفرق بين العلم والعقل وبين العلم والمعرفة والدراية والحكمة

العلم إدراك الشىء بحقيقته وهو ضربان : أحدهما حصول صور المعلومات فى النفس . والثانى حكم النفس على الشىء بوجود شىء له هو موجود ، أو نفى شىء عنه هو غير موجود له ، نحو الحكم على زيد بأنه خارج أو ليس هو طائرا .

فالأول : هو الذى قد يسمى فى الشرع وفى كلام الحكماء العقل المستفاد وفى النحو المعرفة ، ويتعدى إلى مفعول واحد .

والثانى : هو الذى يسمى العلم ويتعدى إلى مفعولين ولا يجوز الاقتصار على أحدهما من حيث أن القصد إذا قيل علمت زيدا منطلقا إثبات العلم بانطلاق زيد دون العلم بزيد .

واعلم أن العقل والعلم بقياس أحدهما على الآخر على ثلاثة أوجه : أحدها عقل ليس بعلم وهو العقل الغريزى ، والثانى علم ليس بعقل وهو المتعدى إلى مفعولين، والثالث عقل هو علم وعلم هو عقل وهو العقل المستفاد ، والعلم الذى يقال له المعرفة،ولم يصح أن تعدى العقل إلى مفعولين ، فيقال عقلت زيدا منطلقا ، كما يقال فى علمت ، لكون العقل موضوعا للعلم البسيط دون المركب ، وسمى عقلا من حيث إنه مانع

تصاحبه أن تقع أفعاله على غير نظام ، وسمى علما من حيث إنه علامة على الشىء ، وهذا إذا اعتبر حقيقته مما يتبين به شرف اللغة العربية .

وأما الفرق بين العلم البسيط أعنى المتعدى إلى مفعول واحد وبين المعرفة ، أن المعرفة قد تقال فيما يدرك آثاره وإن لم يدرك ذاته ، والعلم لا يكاد يقال إلا فيما يدرك ذاته ، ولهذا يقال فلان يعرف الله تعالى ، ولا يقال يعلم الله عز وجل لما كانت معرفته يقال ليست إلا بمعرفة آثاره دون معرفة ذاته .

وأيضاً فالمعرفة تقال فيما لا يعرف إلا كونه موجودا فقط ، والعلم أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيته وعلته ، ولهذا يقال : الله تعالى عالم بكذا ولا يقال عارف به ، لما كان العرفان يستعمل فى العلم القاصر ، وأيضا فالمعرفه تقال فيما يتوصل إليه بتفكر وتدبر ، والعلم قد يقال فى ذلك وفى غيره ، ويضاد العرفان الإنكار والعلم والجهل .

وأما الدراية فالمعرفة المدركة بضرب من الحيل وهو تقديم المقدمة وإجالة الخاطر واستعمال الروية ، وأصله من دريت الصيد ، والدرية تقال لما يتعلم عليه الطعن وللناقة يسيبها الصائد ليأنس الصيد بها فيرمى من ورائها . والمدرى يقال لما يصلح به الشعر ولقرن الشاة ، ولا يصح أن يوصف بذلك البارى تعالى ؛ لأن معنى الحيل لا يصح عليه ولم يرد بذلك سمع فيتبع . وقول الشاعر :

لاهم لا أدرى وأنت الدارى

من تعجرف الأعراب الأجلاف .

وأما الحكمة فاسم لكل علم حسن وعمل صالح ، وهو بالعلم العملى أخص منه

بالعلم النظرى ، وفى العمل أكثر استعمالا منه فى العلم ، وإن كان العمل لا يكون محكما من دون العلم به ، ومنها قيل أحكم العمل إحكاما ، وحكم بكذا حكما ؛ والحكمة من الله تعالى عز وجل إظهار الفضائل المعقولة والمحسوسة ، ومن العباد معرفة ذلك بقدر طاقة البشر .

وقد حدت الحكمة بألفاظ مختلفة على نظرات مختلفة ، فقيل هى معرفة الأشياء الموجودة بحقائقها ويعنى كليات الأشياء ، فأما جزئياتها فلا سبيل للبشر إلى الإحاطة بها ، وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعلم ، وقيل هى إماتة الشهوات على ما يجب ، وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعمل فيما هو غايه المراد من الإنسان ، وقيل هى الاقتداء بالخالق فى السياسة بقدر طاقة البشر ، وذلك أن يجتهد أن ينزه علمه عن الجهل وعدله عن الظلم وجوده عن البخل وحلمه عن السفه ، وبنحو هذا العلم يقرب العبد من خالقه سبحانه فى الدنيا .

ونسبة العلوم إلى الحكمه من وجه كنسبة الأعضاء إلى البدن فى كونها أبعاضا لها ، ومن وجه كنسبة المرءوسين إلى الرئيس فى كونها مسئولية عليها ، ومن وجه كنسبة الأولاد إلى الأم فى كونها مولدة لها ، وهى فى تعارف الشرع اسم للعلوم العقلية أى المدركة بالعقل وقد أفرد ذكرها فى عامه القرآن عن الكتاب، فجعل الكتاب رسما لما لايدرك إلا من جهه النبوات والحكمه لما يدرك من جهة العقل وجعلا منزلين وإن كان إنزالهما من الله تعالى قد يكونان مختلفين ، وجمع بينهما فى الذكر لحاجة كل واحد منهما إلى الآخر ، فقد قيل لولا الكتاب لأصبح العقل حائرا ، ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب ، وقد قيل الكتاب بمنزلة اليد والعقل بمنزلة الميزان ، ولا تعرف المقادير إلا بهما ، وكذلك عبر عن الحكمة بالميزان فى قوله تعالى ( وأنزل الكتاب بالحق والميزان ) .

ولا يبلغ الحكمة إلا أحد رجلين إما مهذب فى فهمه مؤمن فى فعله ساعدته معلم ناصح ، وكفاية ، وعمر ، وإما إلهى يصطفيه الله تعالى فيفتح عليه أبواب الحكمة بفيض إلهى ويلقى إلية مقاليد جوده فيبلغه ذروة السعادة به ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

## الباب السابع

## توابع العقـــــل

العقل المشرق فى الإنسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة ، وقد تقدم ذكرهن ، ويحصل عنه أيضاً الذكاء والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر وجودة الفهم والتخيل والبداهة والكيس والخير وإصابة الظن والفراسة والزكانة والكهانة والعرافة والإلهام ودقة النظر والرأى والتدبير وصحة الفكر وجودة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة .

فأما الذكاء فالمضاء فى الأمر وسرعة القطع بالحق ، وأصله من ذكت النار وذكت الريح ، وشاة مذكاة يدرك ذبحها بحدة السكين ، وذكى الرجل تم فيه قوة الذكاء .

ولكن لما كان أكثر ما يوجد ذلك فيمن تمت سنه صار يعبر عنه عن تمام السن ، ومنه قيل جرى المذكيات غلاب .

وأما الذهن فقريب من الذكاء لكن يقال فى إدراك ما وقع فيه التنازع .

وأما الفطنة فسرعة إدراك ما يقصد إشكاله ولهذا يكثر فى استنباط الأحاجى والرموز .

وأما الفهم : فمقدمة للعقل فمن لا يعرف معنى الشىء فهما لم يتحققه عقلا ، وقد يسمى الفهم عقلا وإن كانت مرتبته دون مرتبة العقـــل فقوة الفهم أن يدرك الأشياء الجزئية والعقل يدرك كلياتها ، ومعنى ذلك أن العقل يعترف أن العدالة حسنة والظلم قبيح ، والفهم يبين فيميز كل واحد من الفعل هل هو عدل أو ظلم ، وقد يوصف بالفهم من لا يوصف بالعقل كالحاذق فى لعب الشطرنج ، وكل من يوصف بالعقل فإنه يوصف بالفهم .

وأما الخاطر : فحركة الفهم نحو الشىء ، يقال خطر الشىء ببالى ، ولم يقل خطر بالى بشىء ، فيجوز أن يكون ذلك من المقلوب كقولهم عيش ناصب ، وقد قيل فى قولهم عقلت الشىء وأحسست أنهما أيضا من المقلوب فالشىء هو المؤثر فى الحاسة والعقل لا هما فيه ، وأما الوهم فانقياد النفس لقبول أثر ما يرد عليها من قولهم جمل وهم وطريق وهم .

والفرق بينه وبين الخاطر أن الخاطر يقال فيما لا تقبله النفس ، والوهم لا يقال إلا فيما تقبله النفس .

وأما الخيال : فنحو الوهم لـكن لا يقال فى ماله اعتبار بما يكون من جهة الحاسة وفيما له صورة ما ، ومنه سمى الطيف الوارد من جهة المحبوب خيالا ، والخيال قد يقال لتلك الصورة فى المنام وفى اليقظة ، والطيف لا يقال إلا فيما يكون حال النوم ولهذا ينسب إلى الخيال لما كان ذلك من جانبه قال الشاعر :

نم فما زارك الخيال ولـكنك بالفـكر زرت طيف الخيال

وأما البديهة : فمعرفة ثاقبة تجىء بلا فـكر ولا قصد ، فالبديهة فى المعرفة كالبديع فى الفعل .

وأما الروية : فما كان من المعرفة بعد فكر كثير وهو من روى .

وأما الكيس: فهو القدرة على جود استنباط ما هو أصلح فى بلوغ الخير ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » من حيث أنه لا خير يصل إليه الإنسان أفضل مما بعد الموت ، وقول العرب أكيس من قشة لتصورها بصورة الكيس لأنها ذات كيس فى الحقيقه ، وكاس فى مشيته أى أظهر الكيس برفع إحــــدى رجليه ، وتسميتهم الغادر كيسان إما على طريق المجاز أو تنبيها على أن الغادر يعد ذلك كيسا أو لأن كيسان فى الأصل اسم لغادر ، ويسمى كل غادر كيسان ، كتسميتهم كل حداد هالكية .

وأما الخبر : فالمعرفة المتوصل إليها من قولهم خبرته أى أصبت خبره ، وقيل هو من قولهم ناقة خبرة أى غزيرة ، فكأن الخبر هو غزارة المعرفة ، ويجوز أن يكون قولهم ناقة خبرة أى المخبرة عن غزارتها ، كقولهم ناقة ناجرة .

وأما الظن فإصابة المطلوب بضرب من الامارة ولما كانت الامارات مترددة بين يقين وشك فتقرب تارة من طرف اليقين وتارة من طرف الشك صار يفسر أهل اللغة بها ، فمتى رؤى إلى طرف اليقين أقرب استعمل أن المثقلة والمخففة منها نحو قوله تعالى ( الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ) وقوله ( وظنوا أنه واقع بهم ) ومتى رؤى إلى طرف الشك أقرب استعمل معه أن التى للمعدومين من الفعل نحو ظننت أن تخرج وأن خرجت وإنما استعمل الظن بمعنى العلم فى قوله تعالى ( الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ) لأمرين أحدهما تنبيه أن علم أكثر الناس فى الدنيا بالإضافة إلى علمه به فى الآخرة كالظن فى جنب العلم . والثانى أن العلم الحقيقى فى الدنيا لا يكاد يحصل إلا للنبيين والصديقين المعنيين بقوله ( الذين يؤمنون بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ) .

والظن متى كان عن أمارة قوية فإنه يمدح ومتى كان عن تخمين لم يعتمد ذم به كما قال تعالى ( إن بعض الظن إثم ) .

وأما الفراسة: فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، وربما يقال هى صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله ، وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله ( إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ) وقوله (تعرفهم بسيماهم ) وقوله ( ولتعرفنهم فى لحن القول ) ولفظها من قولهم فرس السبع الشاة فكأن الفراسة اختلاس المعارف ، وذلك ضربان .

ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لايعرف سببه وذلك ضرب من الإلهام بل ضرب من الوحى ، وإياه عنى النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « المؤمن ينظر بنور الله » وهو الذى يسمى صاحبه المروع والمحدث وقال عليه الصلاة والسلام « إن يكون فى هذه الأمة محدث فهو عمر » وقيل فى قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ) الآية . إنما كان وحيا بإلقائه فى الروع وذلك للأنبياء كما قال عز وجل ( نزل به الروح الأمين على قلبك ) .

وقد يكون بإلهام فى حال اليقظة وقد يكون فى حال المنام ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

والضرب الثانى من الفراسة يكون بصناعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية ، ومن عرف ذلك كان ذافهم ثاقب بالفراسة ، وقد عمل فى ذلك كتب من تتبع الصحيح منها اطلع على صدق ما ضمنوه .

والفراسة ضرب من الظن ، وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما

فقال الظن بتقلب القلب،والفراسه بنور الرب، ومن قوى فيه نور الروح المذكور فى قوله تعالى ( ونفخت فيه من روحى ) كان ممن وصفه بقوله ( أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ) وكان ذلك النور شاهدا أصاب فيما حكم به ، ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام فى المتلاعنين « إن أمرهما بين لولا حكم الله ».

ومن الفراسة علم الرؤيا وقد عظم الله تعالى أمرها فى جميع الكتب المنزلة ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ( وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ) وقال ( إذيريكهم الله فى منامك ) الآية وقال فى قصة إبراهيم ( يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ) وقوله ( يا أبت إنى رأيت أحدعشر كوكبا ).

والرؤيا : هى فعل النفس الناطقة ، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة فى الانسان فائدة ، والله تعالى يتعالى عن الباطل ، وهى ضربان ضرب وهو الأكثر أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية لكون النفس فى تلك الحال كالماء المتموج لا يقبل صورة ، وضرب وهو الأقل صحيح ، وذلك قسمان قسم لا يحتاج إلى تأويل ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ، ويفرق بين طبقات الناس ، إذ كان فيهم من لا تصح له رؤيا وفيهم من تصح رؤياه ، ثم من صح له ذلك منهم من يرشح أن تلقى إليه فى المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك ، ولهذاقال اليونانيون يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام ، وذلك لأن له حظا من النبوة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » .

وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحريه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حذقا فيه ، ورب نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم توجد له فيه قوة عجيبة .

وأما الزكانة : فهو ضرب من الفراسة وهى معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم .

والقيافة : ضرب من الزكانة لكنها أدق وهى ضربان : أحدهما بتتبع أثر الأقدام والاستدلال به على السالكين ، والثانى الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على نسبته ، وخص بالقيافة من العرب بنو مدلج ، وقيل إن ذلك بمناسبة طبيعية لا بتعلم ، وهى محكوم بها فى الشرع . وقال بعض الحكماء خص الله بذلك العرب ليكون سبباً لارتداع نسائهم عما يورث ثقب نسبهم وخبث حسبهم وفساد بذورهم وزروعهم صيانة للنسبة النبوية ، ولأجل حفظه تعالى نسبهم بذلك قال تعالى (وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا ) أى ليعرف بعضكم بعضا بمعرفة أصله .

والكهانة : مختصة بالأمور المستقبلة والعرافة بالأمور الماضية وكان ذلك فى العرب كثيرا وآخر من وجد وروى عنه الأخبار العجيبة سطيح وسواد بن قارب .

وقيل كان وجود ذلك فى العرب أحد أسباب معجزات النبى صلى الله عليه وسلم لما كان يخبر به ويحث على اتباعه ، ونزع ذلك عنهم بعد النبوة ، حتى روى لا كهانة بعد النبوة ، وقال عليه الصلاة والسلام « من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما أتى به فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » تنبيها على أنه قد رفع ، ومما يجرى مجراها التطير وهو تشاؤم الإنسان بشىء يقع تحت المناظر والمسامع ومما تفر منه النفس مما ليس بطبيعى ، فأما نفارها مما هو طبيعى فى الإنسان كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار فلا يعد من هذا ، واشتقاقه من الطير وأصله فى زجر الطير وماسواه ملحق به قال :

وما أنا ممن يزجر الطير حوله   أصاح غراب أم تعرض طائر

ثم كثر فى غيره حتى قال تعالى حكاية ( قالوا اطيرنا بك وبمن معك ، قال طائركم عند الله ) أى السبب الذى يسعدكم أو يشقيكم عند الله ، وقال تعالى ( فإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ) وسمى عمل الإنسان الذى يعاقب عليه طائرا فقال تعالى ( وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ) .

والنظر : إجالة الخاطر نحو المرئى لإدراك البصيرة إياه ، فللقلب عين كما أن للبدن عينا ، فمن صح عين قلبه وأعانه نور الله اطلع على حقائق الأشياء وأدرك العالم العلوى ، وهو فى الدنيا ، فيرى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولكون الاطلاع عليه قال أمير المؤمنين لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا .

والرأى : إجالة الخاطر فى رؤية مايريده ، وقد يقال للقضية التى تثبت عن الرأى رأى ، والرأى للفكرة كالآلة للصانع التى لايستغنى عنها ، ويكون فى الأمور الممكنة دون الواجبة والممتنعة ، ليكون من جملة الممكنات فيما يكون إلينا ؛ فالطبيب لا يجيل رأيه فى نفس البرء بل يكون فى كيفية الوصول إليه .

ويحتاج الرأى إلى أربعة أشياء ، اثنان من جهة الزمان التقديم والتأخير أحدهما أن يعيد النظر فيما يرتبه لقوله عليه الصلاة والسلام « تفكروا فى لا إله إلا الله ولا تفكروا فى الله » قال تعالى ( أولم يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ) وقال تعالى ( يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ) .

وسئل بعض الحكماء عن الفكرة والعبرة فقال الفكرة أن تجعل الغائب حاضرا والعبرة أن تجعل الحاضر غائبا .

وأما الذكر فوجود الشيء فى القلب أوفى اللسان وذاك أن الشيء له أربع وجودات وجوده فى ذاته ووجوده فى قلب الإنسان ووجوده فى لفظه ووجوده فى كتابته ، فوجوده فى ذاته سبب لوجوده فى قلبه ، ووجوده فى قلبه سبب لوجوده فى نطقه ولوجوده فى كتابته ، ويقال للوجودين أى الوجود فى القلب والوجود فى اللسان الذكر ، ولا اعتداد بذكر اللسان مالم يكن ذلك عن ذكر فى القلب بل لا يكون ذاك شيئاً

والذكر بالقلب ضربان أحدهما استعادة ماقد استثبته القلب فأمحى عنه نسياناً أو غفلة وهذا فى الحقيقة هو التذكر ، والثانى ثبات وجود الشيء فى القلب من غير نسيان ولا غفلة ، وذكر الله تعالى على نحو الأول غير مرتضى عند الأولياء ، وإنما محمد إذا كان على النحو الثانى ، واعلم أن ذكر الله تعالى تارة يكون لعظمته فيتولد منه الهيبة فالإجلال ، وتارة يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن ، وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر ، ولذلك قيل ذكر النعمة شكرها ، وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العبر .

فحق المؤمن ألا ينفك أبدا عن ذكره على أحد هذه الأوجه ، وعليه دل قوله تعالى ( إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله ) الآية . أى يذكر ربه فى كل حال لأن الإنسان لا ينفك من هذه الأوجه الثلاثة .

إن قيل ماحقيقة ذكر الله تعالى عند ابتداء الأعمال حتى قيل « كل أمر لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر » .

قيل نبه بذلك على أن الأمور كلها يجب أن يقصد بها وجه الله تعالى ، وأنه

بكل أمر لا يقصد به ذلك فهو ناقص ، وشرع ذكره باللسان ليكون ذلك سببا التذكرة فيتحرى بفعله وجه الله تعالى ولا يعمل ما ينافى رضاه ، وعلى ذلك قوله ( واذكر ربك إذا نسيت ) أى إذا عرض لك نسيان لما يلزمك فاذكر بك تتذكر أنه مطلع عليك ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وأما الحفظ : فالمواظبة على مراعات الشيء وقلة الغفلة عنه ، ومنه محافظة الحريم حتى قيل للغضب المقتضى لذلك حفيظة ، ويقال الثبات صورة الشيء فى القلب الحفظ ، ويقال للقوة الحافظة أيضا حفظ ، وفلان جيد الحفظ أى القوة الحافظة ، والحفظ للنفس من وجه جار مجرى الخزانة للملك يضع فيها الذخائر إلى وقت الحاجة ، ومن وجه جار مجرى الكتاب الذى يكتب فيه الشيء فيرجع إليه ليتذكر به ، والناس متفاوتون فيه بحسب أمزجتهم ، فمنهم من قوى الله تعالى ذلك منه كما جعله لنبيه عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، فلذلك كان له من الحفظ ما يكفيه ويغنيه عن الاستعانة بالكتابة ، ولهذا قال الله تعالى ( لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ) فضمن أنه يحفظ عليه بما جعله فيه من القوة الإلهية ، وروى أنه لما نزل قوله تعالى ( وتعيها أذن واعية ) قال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله تعالى عنه « سألت الله تعالى أن يجعلها أذنك » فلم يسمع بعد ذلك شيئاً إلا وعاه .

ومن الناس من يسرع إليه النسيان فما سمعه يكون كالحفظ يكتب على بسيط الماء .

وأما البلاغة فإجادة اختيار الألفاظ والإصابة فى تأليفها وقدرها ومعناها

وتحرى الصدق فيها ، ولا يكون الكلام تام البلاغة مالم يجمع هذه المعانى ، فإنه إن قبح اللفظ أو قبح التأليف ، أو كان أكثر مما يجب أو أقل مما يجب ، أو لم يطابق اللفظ المعنى إما حقيقه أو استعارة رائقة أو كان المعنى محالا أو كذبا خرج الكلام بقدر مااختل منه عن باب البلاغة .

وقد وصفت البلاغة بأوصاف مختلفة بحسب أنظار مختلفة ، فقال بعضهم البلاغة هى الإيجاز من غير عجز والإطناب فى غير خطل ، وقيل مافهمه العامة ورضيه الخاصة ، وإلى غير ذلك من الأوصاف .

وأما الفصاحة فاشتقاقها من فصح اللبن أى خلص ، وهى الإصابة فى اللفظ فى الائتلاف دون اعتبار الصدق وصواب المعنى ، فكل كلام جزل اللفظ حسن التركيب فموصوف بالفصاحة صدقا كان أو كذبا ، فالبلاغة ترجع إلى اللفظ والمعنى ، والفصاحة إلى اللفظ دون المعنى .

## الباب الثامن

### ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية والمكتسبة وغاية مايبلغه الإنسان

من أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته ، وعلى ذلك دل قوله عليه الصلاة والسلام « العقل ثلاثة أجزاء جزء معرفة الله وجزء طاعة الله وجزء الصبر عن معصية الله » وقال عليه الصلاة والسلام « الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وماله العفة وثمرته العلم » فمعرفة الله العامية مركوزة فى النفس ، وهى معرفة كل أحد أنه مفعول وأن له فاعلا فعله ونقله فى الأحوال المختلفة وهى المشار إليها بقوله تعالى (فطرة الله التى فطر الناس عليها ) ؛

وبقوله ( صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ) وبقوله ( وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم ) الآية . فهذا القدر من المعرفة فى نفس كل واحد ويتنبه الغافل إذا نبه عليه فيعرفه ويعرف أن ماهو مساو لغيره فذلك الغير مساوله ، ومن هذا الوجه قال ( ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ) قال فى مخاطبة المؤمنين والكافرين ( فإليه تجأرون ) وقال بعده ( ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ) .

وأما معرفة الله المكتسبة فمعرفة توحيده وصفاته ومايجب أن يثبت له من الصفاة ومايجب أن ينفى عنه ، وهذه المعرفة هى التى دعت إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا قال كلهم قولوا لا إله إلا الله ، ولم يدع أحد إلى معرفه الله تعالى بل دعا إلى توحيده .

وهذه المعرفة أعنى المكتسبة على ثلاثة أضرب .

ضرب لا يكاد يدركه إلا نبى وصديق وشهيد ومن داناهم ، وذلك المعرفة بالنور الآلهى من حيث لا يعتريه شك بوجه كما قال تعالى ( إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ) .

وضرب يدرك بغلبة الظن أعنى الظن الذى يفسره أهل اللغة باليقين كما قال تعالى ( الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ) .

وضرب يدرك بخيالات ومثل وتقليدات وإياه عنى بقوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ) .

فالأول يجرى مجرى إدراك الشىء من قريب ، ولهذا قال الله تعالى فى وصفهم

( إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ) .

والثانى يجرى مجرى إدراك الشيء من بعيد ، وقد تعتريه شبهة لكن تزول بأدنى تأمل كما قال تعالى ( إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ) .

والثالث يجرى مجرى من يرى الشيء من وراء ستر من بعيد فلا ينفك من شبهات كما أخبر تعالى عن هذه حالته بقوله (إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين).

ولأجل معرفة الله تعالى على الحقيقة حتى يتخلص من آفات الشرك قال تعالى ( وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ) وقال تعالى ( قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ) وقال تعالى ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ) وقال تعالى ( قل الله أعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه ) وقال عليه الصلاة والسلام « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » .

وغاية معرفة الإنسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة ويعرف أثر الصنعة فيها ، وأنها محدثة وأن محدثها ليس إياها ولا مثالها بل هو الذى يصح ارتفاع كلها مع بقائه تعالى ولا يصح بقاؤها وارتفاعه، وبهذا النظر قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه سبحان من لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام « تفكروا فى لا إله إلا الله ولا تفكروا فى ذات الله » .

ولما كانت معرفة كله تصعب على الإنسان الواحد لقصور أفهام بعضهم عنها واشتغال بعضهم بالضرورات التى يعرفها منهم ، جعل تعالى لكل إنسان من نفسه وبدنه عالما صغيرا أوجد فيه مثال ما هو موجود فى العالم الكبير ،

ليجرى ذلك من العالم مجرى مختصر من كتاب بسيط ، يكون مع كل أحد نسخة يتأملها فى الحضر إلى السفر والليل والنهار ، فإن نشط وتفرغ للتوسط فى العلم نظر فى العالم الكبير — الكتاب الكبير — الذى هو الملكوت ليغزر عمله ويتسع فهمه ، وإلا فانه مقنع بالمختصر الذى معه ، ولهذا قال (وفى أنفسكم أفلا تبصرون ) ولشرف متأملى ذلك قال تعالى ( أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ) وقال تعالى ( إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ) الآية فنبه بمدحهم حيث قالوا ( ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك ) أنهم عرفوا المقصود بخلقه.

وذلك آخر الأبحاث لأن الأبحاث أربعة بحث عن وجود الشىء بهل هو ، وبحث عن جنسه بما هو وبحث عما يباين به غيره بأى شىء هو وبحث عن الغرض بلم هو .

وهذه الأبحاث يبتنى بعضها على بعض لا يصح معرفة الثانى إلا بمعرفة الأول ولا معرفة الرابع إلا بمعرفة الثالث .

وقولهم ( ربنا ماخلقت هذا باطلا ) يقتضى أنهم عرفوا الأبحاث الأربعة وإلا شهد وابما لم يتحققوا ومن شهد بما لم يتحقق كذب وإن كان ماشهد على ما شهد به ألا ترى أن الله تعالى كذب المنافقين حيث قالوا إنك لرسول الله مع أنه رسوله ، فدلت هذه الآية على أن البحث الذى يؤدى إلى معرفة حقائق الموجودات التى تتضمن معرفة البارى تعالى هو من العلوم الشريفة ، بخلاف قول الصم البكم الذين لم يجعل الله لهم نورا حيث يدعون من اشتغل بمعرفة ذلك .

## الباب التاسع

### وجوب بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقلة الاستغناء عنهم

بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الناس من الضرورات التى لابد لهم منها وذاك أن جل الناس نقص عن معرفة منافعهم ومضارهم الأخروية جزئياتها وكلياتها ، وبعضهم وإن كان لهم سبيل إلى معرفة كليات ذلك على سبيل الجملة فليس لهم سبيل إلى معرفة جزئياتها ، ولم يمكنهم أن يعرفوا كيف يجب وفى أى وقت يجب وكم يجب ، فلما كان كذلك من الله تعالى على كافة عباده خاصهم وعامهم ، بعث فيهم من أنفسهم برسل يتلون عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، لكى إذا تمسكوا به صلح معادهم ومعاشهم وسهل عليهم إدراكهم ، ولهذا أزال علتهم ببعثة الأنبياء فقال تعالى ( وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ) .

## الباب العاشر

### ما يعرف به صحة النبوة

لكل نبى آيتان إحداهما عقلية يعرفها أولو البصائر من الشهداء والصالحين ومن يجرى مجراهم والثانية حسية يدركها أولو الأبصار من العامة ، فالأولى ما لهم من أصولهم الزكية وصورهم المرضية وعلومهم الباهرة ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستصحبة وأنوارهم الساطعة التى لا تخفى على أولى البصائر ، كما قال الشاعر فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

لو لم يكن فيه آيات مبينة　　　كانت بداهته تنبيك عن خبره

وذاك أن حق النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون من أكرم تربة فى العالم وحيث يكون عقل أربابها أوفر ، ولهذا لم يبعث نبى من الأطراف التى تضعف عقول أصحابها ، ولهذا قال تعالى ( إن الله اصطفى آدم ونوحاً ) الآية ونبه بقوله ( ذرية بعضها من بعض ) أنه جعل النبوة فى بيت واحد ولا تخرج عنه لكونه أشرف .

ويجب أن يكون عليهم أنوار تروق من رآها وأخلاق تتملق من ابتلاها كما قال تعالى ( وألقيت عليك محبة منى ) وقال لنبينا صلى الله عليه وسلم ( وإنك لعلى خلق عظيم ) .

ويجب أن يكون كلامه ذا حجة وبيان يشفى سامعه إذا كان مخصصاً بنور العقل ، ولذلك قال تعالى ( وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ) الآية .

وهذه الأحوال إذا حصلت لا يحتاج ذو البصيرة معها إلى معجزة ولا يطلبها ، كما لا يطلب الأنبياء من الملائكة فيما يخبرونهم به حجة .

ولهذا لما عرض النبى صلى الله عليه وسلم على الصديق رضى الله تعالى عنه الإسلام تلقاه بالقبول حتى قال ( ما أحد عرضت عليه الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم فيه .

وأما الآية الثانية فهى المعجزة التى تدركها الحواس من الأنبياء ، وذلك يطلبه أحد رجلين إما ناقص عن الفرق بين الكلام الإلهى وبين البشرى ، وعن إدراك سائر ما تقدم ذكره ، فيحتاج ما يدركه حسه لقصوره عن إدراك ذلك وإما ناقص ومع نقصه هو معاند ، فقصده بما يطلبه العناد كما قال تعالى حكاية عن الكفار ( وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ) الآية .

## الباب الحادى عشر

### كون العقل والرسل هاديين الخلق إلى الحق

لله عز وجل رسولان إلى خلائقه ، أحدهما من الباطن وهو العقل ، والثانى من الظاهر وهو الرسول ، ولا سبيل لأحد بالانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن ، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ، ولولاه لما كان نلتزم الحجة ، ولهذا أحال الله من يشكك فى وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل وأمران يفزع إليه فى معرفة صحتها ، فالعقل قائد والدين مسدد ، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً ،ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً ، واجتماعهما كما قال تعالى ( نور على نور ) .

## الباب الثانى عشر

### تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتهذب فى العلوم العقلية

المعقولات تجرى مجرى الأدوية الجالبة للصحة والشرعيات تجرى مجرى الأغذية الحافظة للصحة . كما أن الجسم متى كان مريضاً لم ينتفع بالأغذية بل ينضر بها ، كذلك من كان مريض النفس كما قال تعالى ( فى قلوبهم مرض ) لم ينتفع بسماع القرآن الذى هو موضوع الشرعيات بل صار ذلك ضاراً له مضرة الغذاء للمريض وعلى هذا قوله تعالى ( وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ) الآيتان وأيضا فالقلب بمنزلة مزرعة للمعتقدات والاعتقاد فيه بمنزله البذر إن خيراً وإن شراً .وبكلام الله بمنزلة الماء إذا سقى الأرض تختلف تأثيراته وإلى ذلك أشار تعالى بقوله ( وفى الأرض قطع متجاورات

وجنات من أعناب ) الآية . وقال تعالى ( والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ) الآية .

وأيضاً فالجهل بالمعقولات جار مجرى ستر مرخى على البصر وغشاء على القلب ووقر فى الأذن ، والقرآن لا يدرك حقائقه إلا من كشف غطاؤه ورفع غشاؤه وأزيل وقره ، ولهذا قال تعالى ( وإذا قرأت القرآن جعلنا ) إلى قوله ( وقراً ) وأيضا فالمعقولات كالحياة التى بهـا الإسماع والإبصار ، والقرآن كالمدرك بالبصر والسمع ، فكما أن من المحال أن يسمع الميت قبل أن يجعل الله فيه الروح ، والسمع والبصر كذلك من المحال أن يدرك من لم يحصل المعقولات حقائق الشرع ، ولهذا قال الله تعالى ( فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ) إلى قوله ( إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ) يعنى آيات السموات والأرض وغيرهما .

## الباب الثالث عشر

## الإيمان والاسلام والتقى والبر

الايمان هو الإذعان إلى الحق على سبيل التصديق له واليقين ، ولهذا وصف الله الإيمان والعلم بوصف واحد فقال ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) وقال ( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) ووجل القلب هو الخشية للحق على سبيل التصديق له باليقين .

هذا أصل الايمان ، لكن صار اسما لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كالاسلام ، وصح أن يطلق على من يظهر ذلك وإن لم يتخصص به اعتقادا ، وثلج صدراً كاليهودى فى أن أصله للمنسوب إلى يهوذ ، والنصرانى فى أن أصله للمنسوب

إلى نصران ، وهي قرية ، ثم صارا إسمين للمتخصصين بالشريعتين .

على أن اشتقاق الإيمان لا يمنع من أن يطلق على من يظهره ، فإن المؤمن هو من صار ذا أمن ، وبإظهار الشهادتين يأمن الإنسان من أن يراق دمه أو يباح ماله في الحكم ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «من قال لا إله إلا الله فقد عصم منا دمه وماله إلا بحق» وروى « شهادة أن لا إله إلا الله كلمة جعلها الله بيننا، فمن قالها من قلبه فهو مؤمن ومن قالها بلسانه كان له مالنا وعليه ما علينا وحسابه على الله» وذلك أنه لا يطلع على القلوب إلا الخالق تعالى والشريعة واردة أن يطلق اسم الإيمان على من يظهر ذلك من نفسه من غير بحص عن قائله ، ولا يتحاشى من إطلاق ذلك عليه ما لم يظهر منه ما ينافى الإيمان ، بخلاف ما دعته للمعتزلة بأنه لا يصح إطلاق المؤمن على الإنسان ما لم يختبر فى الأصول الخمسة ، ويوقف منه على حقيقة ما عنده .

والإسلام هو الاستسلام بما يدعو إليه الشرع من فعل ما يقتضى فعله .

والملة القود إلى الطاعة ، والدين الانقياد له وهما بالذات واحد ، لكن الدين هو الطاعة فيقال اعتبارا بفعل المدعو فى انقياده إلى الطاعة ، والملة من أملت الكتاب ، فيقال اعتبارا بفعل الداعى إليها والشارع لها ، ولكونهما بالذات واحدا قال تعالى ( دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا ) فأبدل الملة من الدين .

والدين أعم من الإسلام إذ هو يستعمل فى الحق والباطل ، والإسلام لا يستعمل إلا فى الحق ولهذا قال الله تعالى ( إن الدين عند الله الإسلام ) وقال ( ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ) .

والإحسان تحرى الحسنة فى الإيمان والاسلام ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لما قيل له ما الإحسان قال « أن تعبد الله كأنك تراه » .

والتقوى جعل النفس فى وقاية من سخط الله تعالى ، وذلك بقمع الهوى .

والبر السعة فى علم الحق وفعل الخير ، مشتق من البر أى السعة فى الأرض وهو المعبر عنه بانشراح الصدر واطمئنان القلب ، وقال عليه الصلاة والسلام « البر ما سكنت إليه نفسك واطمأن به قلبك ، والإثم ما جال فى نفسك وتردد فى صدرك » وقال « البر طمأنينة والشر ريبة » ومن البر الجود ولأجله جعل الجود من الإيمان . قال الله تعالى ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ) .

والإخلاص أن يقصد الإنسان بما يفعله وجه الله تعالى متعريا عن الالتفات إلى غيره ولذلك قال الله تعالى ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ) ولقلة وجود ذلك قال الله تعالى ( وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ) .

ولما كان الإيمان يقال باعتبار العلم وهو متعلق بالقلب ، والإسلام بفعل الجوارح ، والتقوى بقمع الهوى قال صلى الله عليه وسلم « الاسلام علانية والايمان فى القلب والتقوى ههنا وأشار إلى صدره » لما كان الصدر مقر قوى الانسان من الفكرة والشهوة والغضب قال « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » وقال « الايمان قائد والعمل سائق والنفس حرون فإن أبى قائدها لم يستقم سائقها وإن أبى سائقها لم تطع قائدها » ولما كان الايمان والاسلام والتقوى متلازمة قال فى الجنة ( أعدت للمتقين ) وقال فى موضع آخر ( وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا ) وقال ( ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فله أجره عند ربه ) الآية .

## الباب الرابع عشر

## فى الايمان

اختلف فى الايمان هل هو الاعتقاد المجرد أم الاعتقادوالعمل معا ؟ واختلافهم بحسب اختلاف نظرهم ، فمن قال هو الاعتقاد المجرد فنظر منه إلى اشتقاق اللفظ وإلى أنه قد فصل بينهما فى عامة القرآن فعطف بالعمل عليه كقوله تعالى : ( والذين آمنوا وعملوا الصالحات ) ولأن النبى صلى الله عليه وسلم فرق بينهما فى خبر جبريل عليه السلام حين سأله عن الاسـلام والايمان ، ففسر الأول بالأعمال والثانى بالاعتقاد ، ومن قال هو الاعتقاد والعمل فلقوله عليه الصلاة والسلام « الايمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان » .

وكذلك اختلف أهل يكون فى الإيمان زيادة ونقصان ؟ فقال قوم يكون ذلك فيه لقوله تعالى ( فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) وقوله تعالى ( وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ) وقوله : ( ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ) ومن خالفهم يقول الشىء إنما يزيد بغلبته على ضده وينقص بغلبة ضده عليه ، قالوا والايمان لا يحصل إلا بعد الغلبة على الكفر فلا يضامه ، حتى يقال إنه يغلب عليه.

وكذلك اختلفوا فى جواز إطلاق اسم الايمان على من أقر بالشهادتين، فقال بعضهم يجوز ذلك نظرا منه إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الجارية التى سألها عن الله فأشارت إلى السماء وعن النبوة فأشارت إليه صلى الله عليه وسلم فقال اعتقها فإنها مؤمنة، ولأن الايمان ليس بذى منزلة واحدة . ومن قال لا يجوز فنظر منه إلى قوله تعالى ( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) لما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « من قال أنا مؤمن فهو فاسق ، ومن قال أناعالم فهو

جاهل » إن قيل ما معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن و لايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » قيل الايمان ذو منازل كما وصفه صلى الله عليه وسلم بقوله إنما يكون الانسان مؤمنا بلامثنوية إذا استوعب منازله فتعرى من جميع الشرور وتخصص بجميع الخيرات على قدر طاقة البشر ، ومتى انخرم بعض ذلك خرج عما هو كقولهم عشرة فى كونه اسما لعدد مخصوص إذا سقط بعضه سقط ذلك الاسم عنه ، ومن شرط الايمان الكامل أن لا يكون زانيا ولا سارقا .

## الباب الخامس عشر

## فى أنواع الجهل

الانسان فى الجهل على أربعة منازل الأول من لا يعتقد اعتقادا لاصالحا ولا طالحا ، وأمره فى إرشاده سهل إذا كان طيعا فإنه كلوح أبيض لم يشغله نقش ، وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر . ويقال له باعتبار العلم النظرى غفل وباعتبار العلم العملى غمر ويقال له سليم الصدر .

والثانى معتقد لرأى فاسد لكنه لم ينشأ عليه ولم يترب به فاستنزاله عنه سهل وإن كان أصعب من الأول ، فإنه كلوح يحتاج إلى حذف وكتابة وكأرض تحتاج إلى قلع وزراعة ، ويقال له غاو وضال .

والثالث معتقد لرأى فاسد قدر أنه قد تراءت له صحته فركن إليه بجهله وضعف بصيرته فهو من وصفه الله تعالى بقوله ( إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ) لا سبيل إلى تنبهه وتهذيبه كما قيل لحكيم يعظ شيخا جاهلا : ما تصنع فقال اغسل مسحا إن ابيض .

والرابع : معتقد اعتقادا فاسدا عرف فساده وتمكن من معرفته لكنه اكتسب دنية لرأسه وكرميا لرياسته فهو يحام عليها فيجادل بالباطل ليدحض به الحق ويذم أهل العلم ليجر إلى نفسه الخلق ، ويقال له فاسق ومنافق ، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر فى نحو قوله تعالى ( وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم ) وقوله تعالى ( فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ) فنبه الله تعالى أنهم ينكرون ما يقولونه ويفعلونه لمعرفتهم ببطلانه ، لكن يستكبرون عن التزام الحق ، وذلك حال إبليس فيما دعى اليه من السجود لآدم عليه السلام ، والجنون هوعارض يغمر العقل ، والحمق قلةالتنبه لطريق الحق، وكلاهما يكون تارة خلقة وتارة عارضا ، وقد عظم الحمق ما لم يعظم الجنون وقد قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

وقد حكى حكاية وهى وإن لم تصح فنافع ذكرها وهى أن عيسى عليه السلام أتى بأحمق ليداويه فقال أعيانى مداواة الأحمق، ولم يعيني مداواة الأكمه والأبرص . ومما يفرق بينهما أن المجنون يكون غرضه الذى يريده ويرومه فاسدا وسلوكه إليه خطأ ، ولهذا يعرف المجنون إذا رؤى بإرادته قبل سلوكه إلى مراده، والأحمق لا يعرف بمراده بل بسلوكه ، ولهذا متى صح إرادة المجنون صح فعله حتى تتعجب كثيرا من فلتات صوابه : والأحمق لا يكاد يصيب فى شىء من مسالكه وأما البله فقلة التنبه فى الأمور ، ويضاده الكيس .

وقد تقدم أن البله والكيس يقالان تارة باعتبار الأمور الأخروية ، فمن كان فى أحدهما كيسا كان فى الأخرى أبله ، وقال أبوبكر رضى الله تعالى عنه أكيس الكيس التقى وأحمق الحمق الفجور وأما الرقيع فالذى يلصق بقلبه كل محال كأنه

لصق بذلك والأرعن الذى يأتى بما يخرج عن الصواب تشبها برعن الجبل وهو الحيد منه ، والأحمق الناقص العقل من قولهم أحمقت السوق أى نقصت والغمارة قلة التجربة فى الأمور العملية مع تخيل سليم ، وقد يكون الانسان غمرا فى شىء غير غمر فى غيره ، والحمق يقال فى الجاهل بالأمور العملية وذلك بأن يفعل أكثر مما يجب أو أقل على غير النظام المحمود ، وفساد كل عمل لا يعد ، وهذه الوجوه الثلاثة ، ويضاده الحذق ، والبغى ارتكاب الهوى وترك ما يقتضيه الحق والعقل ، والضلال أن يقصد لاعتقاد الحق أو قول الصدق أوفعل الجميل فظن لسوء تصوره فيما كان باطلا أنه حق فاعتقده أو فيما كان كذبا أنه صدق فناله أو فيما كان قبيحا أنه جميل ففعله ، والجهل عام فى ذلك كله ، والخب استعمال الدهاء فى الأمور الدنيوية صغيرها وكبيرها والجربزة مثله لكن يقال فيما يقتضى الأمور الدينية ، والدهاء لكن يقال فى الأمور العظام إذا درك غاياتها ولهذاقالوا الدهاة فى الاسلام أربعة فذكروا المتوجهين فى الحالات الدنيوية الذين بلغوا بها أموراً كباراً ، ومن الجهل الكفر وهو عناد الانسان للحق على سبيل التكذيب له لا بيقين ، وأصله من سنن ما جعل الله للإنسان بفطرته وصبغته من المعارف بما يستعمله ويتحراه من عناد الحق ، ومن ترك النظر ، والاخلال بتزكية النفس المعنى بقوله تعالى ( قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ) .

## الباب السادس عشر

## فى قول النبى صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون بابا

ثبت الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : الايمان بضع وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق وهذه لفظة من تأملها وعرف حقيقتها أعلم أن الايمان الواجب هو اثنتان وسبعون درجة لا يصح

أن يكون أكثر منها ولا أقل ، ولا يوجد من الايمان ما هو خارج عنها بوجه صادق ، وأنه عليه الصلاة والسلام فيما يورده كما وصفه عز وجل بقوله ( وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ) وبيان ذلك أن الايمان شيئان اعتقاد وأعمال ، والاعتقاد على ثلاث منازل يقينى لا يعتريه شبهة كما قال تعالى ( الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ) وظنى وهو ما كان عن إمارة قوية ، وأعنى بالظن ههنا ما يفسره أهل اللغة باليقين نحو قوله ( الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ) وتقليدى وذلك مايعتقد عن رأى أهل البصائر ، كما وصفه تعالى بقوله ( ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ) والأعمال ثلاثة عمارة الأرض المعنية بقوله تعالى ( واستعمركم فيها ) وعبادته المعنية بقوله ( وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ) وخلافته المعنية بقوله : ( ويستخلفكم فى الأرض ) وقوله ( إنى جاعل فى الأرض خليفة ) وذلك بتحرى مكارم الشريعة ، فهذه ستة وكل واحد من هذه إما يتحراه الإنسان عن رغبة أو رهبة كما قال ( ويدعوننا رغبا ورهبا ) أو يتحراه عن إخلاص بطوع واختصاص نفس كما قال تعالى ( وأخلصوا دينهم لله ) فهذه اثنتا عشرة منزلة وكل واحدة من هذه إما أن يكون الإنسان فى مبدئه أو فى وسطه أو فى منتهاه لأن كل فضيلة ورذيلة لا ينفك الإنسان فيه من هذه الأحوال الثلاث ولهذا قال الله تعالى فى الفضيلة ( ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ) الآية وقال فى الرذيلة ( إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا ) الآية فجعل منازل الإيمان ومنازل التقوى ثلاثة كما ترى فهذه اثنتا عشرة فى ثلاثة بستة وثلاثين وكل واحد من هذه الستة والثلاثين إما أن يتوصل إليه من طريق الاجتباء أو من طريق الهداية ، فالاجتباء للأنبياء ومن يليهم من الأولياء وهو إيثار الله تعالى بعض عباده بفيض إلهى تأتيهم الحكمة بلا سعى منهم ، وعلى

هذا قوله تعالى ( وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ) وقوله ( ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ) والاهتداء للعلماء والحكماء وهو توفيق الله تعالى العبد ليطلب بسعيه وجهده الحكمة فيتحصل له منها بقدر ما يتحمل من المشقة ، وإياهما عنى بقوله تعالى ( الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ) وقوله ( وممن هدينا واجتبينا ) فهذه اثنتان وسبعون درجة لايمكن الزيادة عليها ولا النقصان عنها ، وكل ما ورد من الأخبار فليس بخارج منها والله الموفق .

فما هو من جملة العبادة قوله عليه الصلاة والسلام « الوضوء شطر الإيمان » وقوله « الايمان الصلاة من فرغ لها قلبه وأقامها بحدودها ووقتها وسنتها » ومما هو من مكارم الشريعة قوله عليه الصلاة والسلام « الحياء من الايمان » وقال لا يجتمع إيمان وشح فى قلب عبد » وقوله « ثلاث من جمعهن جمـــع الايمان الانفاق من الاقتار وإنصاف المؤمن من نفسه وبذل السلام » وقوله عليه الصلاة والسلام « أكمل المؤمنين أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » وقوله لأناس من أصحابه « ما إيمانكم قالوا الصبر على البلاء ونشكر فى الرخاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة » .

## الباب السابع عشر
## كون العلم مركوزا فى نفوس الناس

الانسان معدن الحكمة والعلوم وهى مركوزة فيها مجعولة بالفطرة لها وبالقوة كالنار فى الحجر ، والنخل فى النواة ، والذهب فى الحجارة ، وكالماء تحت الأرض لكن لا يوصل إليه بدلو ورشاء ومنه ما هو كامن يحتاج فى استنباطه إلى حفر وتعب شديد فإن عنى به أدرك وإلا بقى غير منتفع به ، كذا العلم فى نفوس البشر منه ما يوجد من غير تعلم بشرى وذلك كحال الأنبياء ، فإنهم تفيض عليهم المعارف

من جهة الملأ الأعلى ، ومنه ما يوجد بأدنى تعلم ، ومنه ما يصعب وجوده كحال عوام الناس .

ولكون العلوم مركوزة فى النفوس قال تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم) الآية فأقروا أن الله هو الذى يربيهم ويغذيهم ويرزقهم ويكملهم من الطفولية ، فهو إقرار نفوسهم كلهم بما ركن فى عقولهم، فأما الاقرار باللسان فلم يحصل من كلهم ، وكذا المعنى بقوله ( ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ) أى لئن اعتبرت أحوالهم لكانت نفوسهم وجوارحهم تنطق بذلك وعلى ذلك قوله ( فأقم وجهك للدين حنيفا ) الآية فبين أن الدين الحنيف وهو المستقيم قد فطر الناس عليه ، أى خلقهم عالمين به فإن المعاندين وإن قصدوا تبديله وإزالة الناس عنه لم يقدروا عليه ، وعلى ذلك قوله تعالى ( صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ) وقال فيمن قويت فى قلوبهم الفطرة والصبغة ( أولئك الذين كتب فى قلوبهم الايمان ) فسمى ذلك كتابا ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » وهذه الشهادة المأخوذة عليهم ، فالناس فيها ضربان ضرب أجالوا خواطرهم حتى أدركوا حقائقها فصاروا كمن حملوا شهادة فنسوها ثم تذكروها ، ولذلك قال فى غير موضع ( لعلهم يذكرون ، وليتذكر أولوا الألباب ) وضرب أهملوا أنفسهم ولم يشتغلوا بتذكر ما حملوا كما قال (وإذا ذكروا لا يذكرون) فهم فى الجهالة يتسكعون ، وعلى هذا حثنا الله على التذكر بقوله ( واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ) وقال ( ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ) أى يسرنا القرآن ليكون سببا أن تتوصلوا به إلى تذكر ما سبق من عهدكم .

والتذكر على أضرب الأول أن يكون باللسان عن صورة ما حصل فى القلب .

الثانى : أن يكون فى القلب كصورة حصلت عن شىء معهود إما من البصر أو من البصيرة أو غيره من المشاعر ، والثالث أن يكون عن صورة مضمنة بالفطرة فى الانسان وهو المشار اليه بهذه الآيات ، ومن هذا الوجه قال الحكماء التعليم ليس يجلب للسان شيئا من خارج فى الحقيقة ، وإنما يكشف الغطاء عما حصل فى النفس فيبرزه فمثله كمثل الحافر المستنبط الماء من تحت الأرض ، وكالصيقل الذى يبرز الجلاء فى المرآة ، وهذا ظاهر لمن نظر بعين عقله .

## الباب الثامن عشر
## حصر أنواع المعلومات

أنواع المعلوم ثلاثة أنواع : نوع يتعلق باللفظ ، ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ، ونوع يتعلق بالمعنى دون اللفظ ، أما المتعلق باللفظ فهو ما يقصد به تحصيل الألفاظ بوسائط المعانى ، وذلك ضربان أحدهما حكم ذوات الألفاظ وهو علم اللغة ، والثانى حكم لواحق الألفاظ وذلك شيئان شىء يشترك فيه النظم والنثر وهو علم الاشتقاق وعلم النحو وعلم التصريف ، وشىء يختص به النظم وهو علم العروض وعلم القوافى .

وأما النوع المتعلق باللفظ والمعنى فخمسة أضرب : علم البراهين ، وعلم الجدل ، وعلم الخطابة ، وعلم البلاغه ، وعلم الشعر .

وأما المتعلق بالمعنى فضربان علمى وعملى ، فالعلمى ما قصد به أن يعلم فقط وهو معرفة البارى تعالى ومعرفة النبوة ومعرفة الملائكة ومعرفة يوم القيامة ، ومعرفة العقل ، ومعرفة النفس ومعرفة مبادىء الأمور ، ومعرفة الأركان ، ومعرفة الآثار العلوية من الفلك والنيرين والنجوم ، ومعرفة طبائع النبات ويقال له علم الفلاحة ، ومعرفة طبائع الحيوانات ، ومعرفة طبائع الانسان ويقال له علم الطب .

وأما العملى فهو ما يجب أن يعلم ثم يعمل به فتسمى تارة السنن والسياسات ، وتارة الشريعة وتارة أحكام الشرع ومكارمه ، وذلك حكم العبادات وحكم المعاملات وحكم المطاعم وحكم المناكح وحكم المزاجر .

والطرق التى يستفاد منها العلوم أربعة أضرب الأول المستفاد من بديهة العقل ومصادمة الحس وذلك لكل من لم يكن مفقود الآلة وإن اختلفت أحوالهم فى ذلك . الثانى المستفاذ من جهة النظر إما بمقدمات عقلية أو بمقدمات محسوسة . الثالث المستفاد من خبر الناس إما بسماع من أفواههم أو بالقراءة فى كتبهم ، ولا يكون الخبر علما إلا ما كانت المظنة عن مخبريه مرتفعة . والرابع ما كان عن الوحى إما بلسان ملك مرئى كما قال تعالى ( نزل به الروح الأمين على قلبك ) وإما بسماع كلام من غير مصادفة عين كما سمع موسى عليه السلام ، وإما بإلقاء فى الروع فى اليقظة كما قال عليه الصلاة والسلام « إن يكن فى هذه الأمة محدث فهو عمر » . وإما بالمنام وهو المعنى بقوله « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وينطوى على ذلك قوله تعالى ( وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه من يشاء ) .

## الباب التاسع عشر
## ما يعرف به فضيلة العلوم

فضيلة العلم تعرف بشيئين : أحدهما بشرف ثمرته والآخر بوثاقة دلالته ، وذلك كشرف علم الدين على علم الطب ، فإن ثمرة علم الدين الوصول إلى الحياة الأبدية وثمرة علم الطب الوصول إلى الحياة الدنيوية ، وعلم الدين أصوله مأخوذة عن الوحى ، والطب أكثر أصوله من التجارب ، ورب علم يوفى على غيره بأحد

الوجهين وذلك الغير يوفى عليه بالوجه الآخر كالطب مع الحساب فللطب شرف الثمر إذ هو يفيد صحة البدن وللحساب وثاقة دلالة إذ كان العلم به ضروريا غير مفتقر إلى التجربة وليس يجب أن يحكم بفساد علم لخطأ وقع من أربابه كصنيع العامة إذا وجدوا من أخطأ فى مسألة حكموا على صناعته بالفساد ، وإذا رأوا من أصاب فى مسألة حكموا على صناعته بالصحة وذلك عادتهم فى الطب والتنجيم فيحكمون على الصناعة بالصنائع خلاف ما قال أمير المؤمنين علىّ رضى الله تعالى عنه ياحار الحق ملبوس عليك ، الحق لا يعرف بالرجال اعرف الحق تعرف أهله ، وليس يدرون أن الصناعة مبنية على شىء روحانىّ والمتعاطى لها يباشرها بجسم وطبع يضامها العجز خليق بوقوع الخطأ منه ، ثم الانسان قد ينتحل مالا يحسنه ويتذرع بدعوى مالم تجز آلته ثم كثير ممن يتخصص بصناعة يدعى لصناعته ماليس من طبعها كـكثير من المنجمين المدعين ماليس فى التنجيم ، فإذاً لا عبرة بدعاوى الناس .

## الباب العشرون

## استحسان معرفة أنواع العلوم

حق الإنسان أن لا يترك شيئاً من العلوم أمكنه النظر فيه واتسع العمر له إلا ويخبر بشمه عرفه وبذوقه طيبه ، ثم إن ساعده القدر على التغذى به والتزود منه فبها ونعمت ، وإلا لم يبصر لجهله بمحله ولغباوته عن منفعته إلا معادياً له بطبعه .

فمن يك ذا فم مرّ مريض      يجد مراً به الماء الزلالا

فمن جهل شيئاً عاداه والناس أعداء ماجهلوا ، بل قال الله تعالى ( وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ) وحكى عن بعض الفضلاء أنه رؤى بعدماطعن

فى السن وهو يتعلم أشكال الهندسة فقيل له فى ذلك ، فقال : وجدته علما نافعا فكرهت أن أكون لجهلى به معاديا له ، ولا ينبغى للعاقل أن يستهين بشىء من العلوم بل يجعل لكل حظه الذى يستحقه ومنزله الذى يستوجبه ويشكر من هداه لفهمه وصار سببا لعلمه ، فقد حكى عن بعض الحكماء أنه قال يجب أن نشكر آباءنا الذين ولدوا لنا الشكوك إذ كانوا أسبابا لما حرك خواطرنا لطلب العلم فضلا عن شكر من أفادنا طرفا من العلم ، ولولا إمكان فكر من تقدمنا لأصبح المتأخرون حيارى قاصرين عن فهم مصالح دنياهم فضلا عن مصالح أخراهم ، فمن تأمل حكمة الله تعالى فى أقل آلة يستعملها الناس كالمقراض حيث جمع بين سكينين مركبا على وجه يتوافى حداهما على نمط واحد للقرض أكثر تعظيم الله تعالى وشكره ، ويقول ( سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ) .

## الباب الحادى والعشرون

## معاداة بعض الناس لبعض العلوم

العلم طريق الله تعالى ذو منازل ، قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والثغور فى طريق الحج والغزو ، فمن منازله معرفته التى عليها مبنى الشرع ، ثم حفظ كلام رب العزة ، ثم سماع الحديث ، ثم الفقه ، ثم علم الأخلاق والورع ، ثم علم المعاملات ، وما بين ذلك من الوسائط من معرفة أصول البراهين والأدلة . ولهذا قال ( هم درجات عند الله ) وقال ( يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ) وكل واحد من هؤلاء الحفظة إذا عرف مقدار نفسه ومنزلته فى حق ما هو بصدده فهو فى جهاد يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثوابا على قدر علمه ، لكن قل ما ينفك كل منزل منها من شرير فى ذاته وشره فى مكسبه وطالب لرياسته وجاهل معجب بنفسه يصير لأجل تفقيق سلعته صارفا

عن المنزل الذى فوق منزلته من العلم وعائبا له ، فلهذا ترى كثيراً ممن حصل فى منزلة من منازل العلوم دون الغاية عائباً لما فوقه وصارفا عنه من رامه ، فإن قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل ، أو ينفر الناس عنه فعل ، فهو ممن قال الله تعالى فيهم ( وقال الذين كفروا ألا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ) وما أرى من هذا صنيعه إلا من وصفهم الله تعالى بقوله ( الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ) الآية . وذكر الترمذى هذه المسألة فقال إذا كان من يقطع على الناس طريق مكاسبهم الدنيوية يستحقون ما ذكر الله تعالى بقوله ( إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ) الآية فما الظن بما يستحق من العقوبة من يقطع الطريق على المسافر إلى الله تعالى ، وقد حكى عن عيسى عليه السلام أنه قال ياعلماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها ولم تدعوا غيركم يدخلها ، مثلكم كمثل الدفلى[١] زهره حسن وثمره يقتل من أكله .

## الباب الثانى والعشرون

### الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه

من كان قصده الوصول إلى جوار الله فليتوجه نحوه كما قال تعالى ( ففروا إلى الله ) وكما أشار صلى الله عليه وسلم بقوله « سافروا واغتنموا » فحقه أن يجعل العلوم كزاد موضوع فى منازل السفر فيتناول منه فى كل منزل قدر البلغة فلا يعرج على نقيضه واستفراغ ما فيه فيقضى الإنسان نوعاً واحداً من العلوم على الاستقصاء يستفرغ فيه عمراً بل أعماراً ثم لا يدرك قعره ولا يعبر غوره ، ثم نبهنا البارى تعالى على أن نفعل ذلك بقوله (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ) الآيةوقال الإمام على كرم الله وجهه العلم كثير فخذوا من كل شىء أحسنه . وقال الشاعر :

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم ... فى العين فضل ولكن ناظر العين

---

(١) الدفلى : نبت مر ، زهره كالورد وثمره كالقرون .

وقيل :

حل طبعك بالعيون والفقر

فالشجر لا يعيبها قلة الحمل إذا كانت ثمرتها نافعة ، ويجب أن لا يخوض الإنسان فى فن حتى يتناول من الفن الذى قبله على الترتيب بلغته ويقضى منه حاجته ، فازدحام العلم فى السمع مضلة للفهم، وعليه قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أى لا يجاوزون فناً حتى يحكوه علماً وعملا ، ويجب أن يقدم الأهم فالأهم من غير إخلال بالترتيب .

وكثير من الناس ثسكلوا الوصول بتركهم الأصول، وحقه أن يكون قصده من كل علم يتحراه التبلغ به إلى ما فوقه حتى يبلغ به النهاية ، والنهاية من العلوم النظرية معرفة الله تعالى على الحقيقة والمصدوقة ؛ فالعلوم كلها خدم لها وهى حرة ، وروى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء فى بعض مساجدهم وفى يد أحدهما رقعة فيها إن أحسنت كل شىء فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء ، وفى يد الآخر : كنت قبل أن عرفت الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلاشرب ، بل قد قال الله تعالى ما قد أشار به إلى ما هو أبلغ من حكمة كل حكيم (قل الله ثم ذرهم) أى اعرفه حق المعرفة ، ولم يقصد بذلك أن يقول ذلك قولا باللسان اللحمى ، فذلك قليل العناء مالم يكن عن طوية خالصة ومعرفة حقيقية ، وعلى ذلك قال عليه السلاة والسلام « من قال لا إله الله مخلصاً دخل الجنة » ويجب أن لا يتعرى علمه عن مراعات العمل فيه يتبلغ ، ألا ترى أنه ماخلى ذكر الإيمان فى عامة القرآن من ذكر العمل الصالح كقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وإلى ذلك أشار بقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقيل كثرة العلم من غير العمل مادة للذنوب ، وقيل العلم أس والعمل بناء والأس بلا بناء باطل . وقال رجل لرجل يستكثر من العلم

ولا يعمل : ياهذا إذا أفنيت عمرك فى جمع السلاح فمتى تقاتل، وقال الشاعر مايصلح أن يكون إشارة إلى هذا المعنى :

فلام إن لم أشف نفساً حرة ياصاحبى أجيد حمل سلاحى

## الباب الثالث والعشرون

## أحوال الإنسان فى استفادة العلم وإفادته

كما أن للإنسان فى حال مقتنياته أربعة أحوال حال استفادة فيكون مكتسباً وحال ادخار فيكون لما اكتسبه ويكون به غنياً عن المسألة ، وحال إنفاق فيصير به منتفعاً ، وحال إفادته غيره فيصير به سخياً كذلك أيضاً فى العلم أربعة أحوال ، حال استفادة ، وحال تسخير تحصيل ، وحال استبصار ، وحال تبصر وتعليم ، ومن أصاب مالا فانتفع به ونفع مستحقيه كان كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة ، والمسك الذى يطيب الناس وهو طيب ، وهذا أشرف المنازل ، ثم بعده من استفاد علماً فاستبصر به ، فأما من أفاد علمه غيره ولم ينتفع هو به فكالدفتر يفيد غيره الحكمة وهو عادمه ، وكالمسن يحد ولا يقطع ، وكالمغزل يكسو ولا يكتسى وكذبالة المصباح تحرق نفسها وتضىء لغيرها ، ومن استفاد علماً ولم ينتفع هو به ولا نفع غيره فإنه :

كالنخل يشرع شوكا لا يذود به عن حمله كف جان وهو منتهب

## الباب الرابع والعشرون

## مايجب على المتعلم أن يتحراه

حق المترشح لتعليم الحقائق أن يراعى ثلاثة أحوال : الأول أن يطهر نفسه من ردىء الأخلاق تطهير الأرض للبذر من خبائث النبات فقد تقدم أن الطاهر

لا يسكن إلا بيتاً طاهراً . وأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، والثانى أن يقلل من الأشغال الدنيوية ليتوفر فراغه على العلوم الحقيقية .

فصاحب القطواف يعمر منهلا ... وربما إذا لم يخل ربعاً ومنهلا

وقد قال الله تعالى ( ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ) والفكرة متى توزعت تكون كجدول تفرق ماؤه فينشفه الجو وتتشربه الأرض فلا يقع به نفع . والثالث أن لا يتكبر على معلمه ولا على العلم ، فالعلم خراب للمتعالى كالسيل خراب للمكان العالى ، ولهذا قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فإن أعطيته كلك فإنك من إعطائه إياك بعضه على خطر ، وكأنما إياه عنى من قال :

خدم العلى فخدمته وهى التى ... لا تخدم الأقوام مالم تخدم

ومتى لم يكن المتعلم من معلمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً فتلقاه بالقبول لم ينتفع به ، فحقه أن يضرع له كما قال تعالى ( لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ) أى لمن له بنفسه علم يستغنى به أو تذلل لاستماع الحق واقتباسه ممن عنده العلم ، وقال بعض العلماء فى قوله عليه الصلاة والسلام « اليد العليا خير من اليد السفلى » إشارة إلى فضل المعلم على المتعلم وفى تبيين فضل المعلم حث المتعلم كالانقياد له ، وكما أن حق المريض أن يكل إلى الطبيب الناصح الذى وقف على دائه ليطلب الطبيب فإنه دواءه وغذاءه فإنه إن تشهى لم يتشه إلا مافيه داءه ولم يختر ما فيه شفاؤه .

فمن يك ذا فم مُرّ مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

كذا من حق المتعلم إذا وجد معلما ناصحا أن يأتمر له ولا يتأمر عليه ولا يراده فيما ليس بصدد تعلمه وكفى على ذلك تنبيها ما حكى الله عن العبد الصالح أنه قال لموسى عليه وعلى جميع الأنبياء السلام حيث قال ( هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ) فقال ( لا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً ) فنهاه عن مراجعته ، وليس ذلك نهيا عما حث الله تعالى عليه فى قوله ( فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم

لا تعلمون ) وذلك لأن النهى إنما هو نهى عن نوع العلم الذى لم يبلغ منزلته بعد ، والحث إنما هو عن سؤال تفاصيل ما خفى عليه من النوع الذى هو بصدد تعلمه .

وحق من هو بصدد تعلم علم من العلوم أن لا يصغى إلى الاختلافات المشككة والشبه الملتبسة ما لم يتهذب فى قوانين ما هو بصدده لئلا تتولد له شبهة تصرفه عن التوجه فيؤدى ذلك به إلى الارتداد، ولذلك نهى الله تعالى من لم يكن تقوّى فى الإسلام عن مخالطة الكفار فقال ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ) وقال تعالى ( ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ) الآية ولأجل ذلك كره للعامة أن يجالسوا أهل الأهواء والبدع لئلا يغووهم ، فالعامى إذا خلا بأهل البدع فكالشاة إذا خلت بالسبع . وقال بعض الحكماء إنما حرم الله تعالى فى الابتداء لحم الخنزير لأنه أراد أن يقطع العصمة بين العرب وبين الذين كانوا يشككونهم باجتماعهم معهم من اليهود والنصارى ، فحرم على المسلمين ذلك إذ هو معظم ما كولاتهم وعظم الأمر فى تناوله ومسه ليتنزه المسلمون عن الاجتماع معهم فى المآكلة والأنس . وقال عليه الصلاة والسلام فى المؤمن والكافر : « لا تتراءى ناراهما » لذلك ، فأما الحكيم فلا بأس بمجالسته إياهم فإنه جارى مجرى سلطان ذى أجناد وعدة وعتاد لا يخاف عليه العدو حيث ما توجه ، ولهذا جوز له الاستماع للشبه ، بل أوجب عليه أن يتتبع بقدر جهده كلامهم ويسمع شبههم ليجادلهم ويجاهدهم ويدافعهم ، فالعالم أفضل المجاهدين ، فالجهاد جهادان جهاد بالبنان وجهاد بالبيان، ولما تقدم سمى الله تعالى الحجة سلطانا فى غير موضع من كتابه العزيز ، كقوله حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام ( إنى آتيكم بسلطان مبين ) .

## الباب الخامس والعشرون

## ما يجب أن يتحراه المعلم مع المتعلمين منه

حق المعلم أن يجرى متعلميه منه مجرى بنيه . فإنه فى الحقيقة أشرف من الأبوين كما قال الإسكندر وقد سئل منه أمعلمك أكرم عليك أم أبوك ، قال بل معلمى لأنه سبب حياتى الباقية ووالدى سبب حياتى الفانية . وقد نبه صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله « إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم » فحق معلم الفضيلة أن يقتدى بالنبى صلى الله عليه وسلم إذ هو فى إرشاد الناس خليفته فيشفق عليهم إشفاقه ويتحنن عليهم تحننه كما قال تعالى فى وصفه عليه الصلاة والسلام ( حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » وأى عالم لم يكن له من يفيده العلم صار كعاقر لا نسل له فيموت ذكره بموته ومتى استفيد علمه كان فى الدنيا موجوداً وإن فقد شخصه كما قال أمير المؤمنين[١] العلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة . وقال بعض الحكماء فى قوله تعالى ( هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب ) . أنه سأله نسلا يورثه علمه لامن يورثه ماله فأعراض الدنيا أهون عند الأنبياء من أن يشفقوا عليها، وكذا قوله ( وإنى خفت الموالى من ورائى ) أى خفت أن لا يرعوا العلم ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « العلماء ورثة الأنبياء » وكما أن حق أولاد الأب الواحد أن يتحابوا ويتعاضدوا ولا يتباغضوا كذلك من حق بنى العلم الواحد بل الدين الواحد أن يكونوا كذلك ، فأخوة الفضيلة فوق أخوة الولادة ، ولذلك قال تعالى ( إنما المؤمنون أخوة ) وقال ( الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ) .

وحق العالم أن يصرف من يريد إرشاده من الرذيلة إلى الفضيلة بلطف فى

---

(١) هو على كرم الله وجهه .

المقال وتعريض فى الخطاب والتعريض أبلغ من التصريح لوجوه . أحدها أن النفس الفاضلة لميلها إلى استنباط المعانى تميل إلى التعريض شغفاً باستخراج معناه بالتفكر ولذلك قيل رب تعريض أبلغ من تصريح . والثانى أن التعريض لا تنهتك به سجوف الهيبة ولا يرتفع به ستر الحشمة . والثالث أن ليس للتصريح إلا وجه واحد وللتعريض وجوه ، فمن هذا الوجه يكون أبلغ ومن هذا الوجه حذف أجوبة كثيرة من الشروط المقتضية للثواب والعقاب نحو قول الله تعالى ( حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ) الآية . والرابع أن للتعريض عبارات مختلفة فيمكن إيراده على وجوه مختلفة ، والتصريح ليس له إلا عبارة واحدة فلا يمكن إيراده إلا على وجه واحد . والخامس أن صريح النهى داع إلى الإغراء ولذلك قيل اللوم إغراء وقال :

دع اللوم إن اللوم يغرى وإنما أراد صلاحا من يلوم فأفسدا

وقال النبى صلى الله عليه وسلم « لو نهى الناس عن فت البعر لفتوه ، قالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شىء » وكفى بذلك شهادة ما كان من أمر آدم عليه السلام وحواء فى نهى الله تعالى إياهما عن أكل الشجرة . ومن حق المعلم مع من يفيده العلم أن يقتدى بالنبى صلى الله عليه وسلم فيما علمه الله تعالى حيث قال ( قل لا أسئلكم عليه أجراً ) فلا يطمع فى فائدة من جهة من يفيده علماً ثواباً لما يوليه وليعلم أن من باع علماً بعرض دنيوى فقد ضاد الله تعالى فى حكمه ، وذلك أن الله تعالى جعل المال خادماً للطعام والملابس جعلها خادمة للبدن وجعل البدن خادما للنفس وجعل النفس خادما للعلم ، فالعلم مخدوم غير خادم والمال خادم غير مخدوم ، فمن جعل العلم ذريعة إلى اكتساب المال فقد جعل ما هو مخدوم غير خادم : خادماً .

## الباب السادس والعشرون

## وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر أفهامهم

واجب على الحكيم العالم النحرير أن يقتدى بالنبى صلى الله عليه وسلم فيما قال « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلم الناس بقدرعقولهم » وأن يتصور ما قال أمير المؤمنين على رضى الله تعالى عنه حيث قال لكميل بن زياد وأومأ بيده إلى صدره فقال إن ههنا علوما جمة لو وجدت لها حملة بل أصيبت لقنا غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا فيستظهر بنعم الله على عباده وبحجته على كتابه ، أو منقادا لأهل الحق لا بصيرة له يقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهته . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله » وقال عليه الصلاة والسلام « ما أحد يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان ذلك فتنة على بعضهم » وقال عيسى عليه السلام : لا تضعوا الحكمة فى غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، وكن كالطبيب الحاذق يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع . وقيل تصفح طلاب حكمك كما تتصفح خطاب حرمك وبه ألمّ أبو تمام .

وما أنا بالغيران من دون جيرتى إذا أنا لم أصبح غيوراً على العلم

وقيل لبعض الحكماء ما بالك لا تطلع أحداً على حكمة يطلبها منك فقال اقتداء بالبارى عز وجل حيث قال ( ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ) فبين أنه إنما منعهم لما لم يكن فيهم خير ، وبين أن فى إسماعهم ذلك مفسدة لهم ، وسأل جاهل حكيماً عن مسألة من الحقائق فأعرض عنه ولم يجبه فقال له أما سمعت قول النبى صلى الله عليه وسلم « من كتم علما نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار » فقال نعم سمعته فاترك اللجام هنا واذهب فإذا جاء

من يستحق ذلك وكتمته فليلجمنى به. وقال بعض الحكماء فى قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) أنه نبه على هذا المعنى وذلك أنه لما منعنا من تمكين السفيه من المال الذى هو عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر تفادياً أنه ربما يؤديه إلى هلاك دنيوى، فلأن يمنع من تمكينه من حقائق العلوم الذى إذا تناوله السفيه أداه إلى ضلال وإضلال فهلاكه أحق وأولى. شعر :

إذا ما اقتنى العلم ذو شرة تضاعف ماذم من مخبره
وصادف من علمه قوة يصول بها الشر فى جوهره

وكما أنه واجب على الحكام إذا وجدوا من السفهاء رشداً أن يرفعوا عنهم الحجر ويدفعوا إليهم أموالهم لقوله تعالى (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) فواجب على الحكماء إذا وجدوا من المسترشدين قبولا أن يدفعوا إليهم العلوم بقدر استحقاقهم؛ فالعلم قنية يتوصل بها إلى الحياة الأخروية كما أن المال قنية يتوصل بها فى المعاونة إلى الحياة الدنيوية، وباذل العلم لمن لايستحق يستوجب عقوبة، ومانعه من أهله يستوجب عقوبات، ولذلك قال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وقال (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة) الآية.

فإذا ثبت ذلك وجب أن يكون من تقيد من العامة بقيد الشرع فحسنت حاله أن لا ينصرف عما هو بصدده فيؤدى ذلك إلى انحلاله عن قيده ثم لا يمكن أن يقيد بقيد الخواص فيرتفع السد الذى بينه وبين الشرور ومن اشتغاله بعمارة الأرض بين تجارة ومهنة، فحقه أن يقتصر به من العلم على مقدار ما يحتاج إليه من هو فى مرتبته فى عبادة الله تعالى العامية، وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة الوارد بهما القرآن ولا تولد له الشبه والشكوك، فإن اتفق إضراب بعضهم إما بانبعاث شبهة

تولدت له أو ولدها ذو بدعة دفعت إليه فتاقت نفسه إلى معرفة حقيقتها ، فحقه أن يختبر ، فإن وجد ذا طبع للعلم موافق وفهم ثاقب وتصور صائب خلى بينه وبين التعلم وسوعد عليه بما يوجد من السبيل إليه ، وإن وجد شريراً فى طبعه أو ناقصا فى فهمه منع أشد المنع ، ففى اشتغاله بما لا سبيل له إلى إدراكه مفسدتان : تعطله عما يعود بنفع إلى العباد والبلاد ، واشتغاله بما يكثر فيه شبهة وليس فيه نفعه .

وكان بعض الأمم المتقدمة إذا ترشح بعضهم ليخصص بمعرفة الحكم وحقائق العلوم والخروج من جملة العامة إلى الخاصة اختبر ، فإن لم يوجد خيراً فى الخلق أو غير متهيىء للتعلم منع أشد المنع ، فإن وجد خيراً ومتهيأ شورط على أن يقيد بقيد فى الحكمة ومنع من الخروج إلى أن يحصل له العلم أو يأتى عليه الموت .

ويزعمون أن من شرع فى حقائق العلوم ولم يبرع فيها تولدت له الشبه وكثرت فيصير ضالا مضلا فيعظم على الناس ضرره بهذا السبب ، وقيل : نعوذ بالله من نصف متكلم .

## الباب السابع والعشرون

## وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة إهمال ذلك

لا شىء أوجب على السلطان من مراعات المتصدين للرياسة بالعلم ، فمن الإخلال بها ينتشر الشر وتكثر الأشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر ، وذلك أن السواس أربعة : الأنبياء وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم . والولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم . والحكماء وحكمهم على بواطن الخاصة . والوعظة وحكمهم على بواطن العامة ، وصلاح العالم بمراعات أمر هذه السياسات لتخدم العامة الخاصة وتسوس الخاصة العامة ، وفساده فى عكس ذلك .

ولما تركت مراعات المتصدى للحكمة والوعظ فترشح قوم للزعامة بالعلم من غير استحقاق منهم لها فأحدثوا بجهلهم بدعا استغووا بها عامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم .

فكل قرين إلى شكله　　　كأنس الخنافس بالعقرب

وفتحوا بذلك طرقاً منسدة ورفعوا بها ستورا مسبلة وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوا إليها بالوقاحة بما فيهم من الشره ، فبدعوا العلماء وكفروهم اغتصابا لسلطانهم ومنازعة لمكانهم وأغروا بهم أتباعهم حتى وطئوهم بأخفافهم وأظلافهم فتولد من ذلك البوار والجور العام .

## الباب الثامن والعشرون

## ذكر من يصلح لوعظ العامة

لا يصلح الحكيم إلا لنقص الحكيم لا لنقص العامى

فلن ترى الشمسَ أبصارُ الخفافيش

وأيضاً فبين الحكيم والعامى من تنافر طبيعهما وتباين شكليهما من النفار قريب من ما بين الماء والنار ، والليل والنهار .

وقيل لسامة بن كهيل ما لعلى رضى الله تعالى عنه ؟ رفضته العامة وله فى كل خير ضرس قاطع فقال لأن ضوء عيونهم قصر عن نوره ، والناس إلى أشكالهم أميل . وبهذا النظر قال جاهل لحكيم إنى أحبك فقال نعيت إلى نفسى ، قيل له ولم ؟ قيل إن صدق فليس ميله إلا لنقيصة بدت من نفسى لنفسه فأنست بها ولهذا قال الشاعر :

لقد زادنى حباً لنفسى أننى　　　بغيض إلى كل امرىء غير طائل

فحق الواعظ أن تكون له مناسبة إلى الحكماء يقدر بها على الاقتباس منهم والاستفاة عنهم، ومناسبة إلى الدهاة يقدرون بها على الأخذ منه كمناسبة الوزير للسلطان الذى يجب أن يكون فيه أخلاق الملوك وتواضع السوقة ليصلح أن يكون واسطة بينه وبينهم، فكالنبى الذى جعله الله من البشر وأعطاه قوة الملك ليمكنه أن يأخذ من الملك ويمكن البشر أن يأخذوا منه، ومنه قوله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) تنبيها أنه ليس فى وسعكم التلقى عن الملك مالم يتجسم فيصير فى صورة رجل، فإذا حق للواعظ أن تكون له نسبة إلى الحكيم وإلى العامة يأخذ منه ويعطيهم كنسبة الغضاريف إلى اللحم وإلى العظم جميعاً، ولولاها لما أمكن العظم أن يكتسب الغذاء من اللحم، وهذا مما تؤمل، فاطلع منه على حكمة عجيبة وصنعة غريبة.

## الباب التاسع والعشرون

### ذكر الحال التى يجب أن يكون عليها الوعظ

حق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ ويبصر ثم يبصر ويهتدى ثم يهدى ولا يكون دفتراً يفيد ولا يستفيد، ومسنا يحد ولا يقطع، بل يكون كالشمس التى تفيد القمر الضوء ولها أكثر مما تفيده، وكالنار التى تحمى الحديد ولها من الحمى أكثر مما تنيل، ويجب أن لا يجرح مقاله بفعاله، ولا يكذب لسانه بحاله، فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله (ومن الناس من يعجبك قوله) إلى (والله لايحب الفساد) ونحو ماقال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه قصم ظهرى رجلان جاهل متنسك وعالم متهتك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم ينفرهم بتهتكه، والواعظ مالم تكن مع مقاله فعاله لم ينتفع به، وذاك أن عمله مدرك بالبصر، فأكثر الناس أصحاب الأبصار دون البصائر، فيجب أن تكون عنايته بإظهار عمله الذى يدركه أكثر من عنايته بالذى لايدرك إلا بالبصيرة، ومنزلة الواعظ من الموعوظ منزلة

المداوِى من المداوَى ، فكما أن الطبيب إذا قال للناس لا تأكلوا كذا فإنه سم ثم رأوه آكلا له عد سخرية وهزأ ، وكذلك الواعظ إذا أمر بما لا يعمله . وبهذا النظر قيل ياطبيب طب نفسك بل قال الله تعالى ( ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون )الآية ، والآيات منه كثيرة، وأيضا قالوا عظ من الموعوظ يجرى مجرى الطبائع بماليس منتقشابها ، وكذلك محال أن يحصل فى نفس الموعوظ ماليس موجودا فى نفس الواعظ ، وإذا لم يكن الواعظ إلا ذوقول مجرد من الفعل لم يتلق عنه إلا القول دون الفعل ، وأيضا فإن الواعظ يجرى من الناس مجرى الظل من ذى الظل فكما أنه محال أن يعوج ذو الظل والظل مستقيم كذلك محال أن يعوج الموعوظ والواعظ مستقيم ، وأيضا فكل شىء له حالة يختص بها فإنه يجر غيره إلى نفسه بقدر وسعه بإرادة منه أو غير إرادة ، كالماء الذى يحيل مايتلقاه من العناصر إلى نفسه بقدر وسعه ، وكذلك النار والأرض والهواء ، فالواعظ إذا كان غاويا جر بغيه غيره إلى نفسه ولهذا حكى الله تعالى عن الكفار (ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا) وقال أيضا ( فأغويناكم إنا كنا غاوين )فمن ترشح للوعظ ثم فعل فعلا قبيحا اقتدى به غيره فيه فقد جمع وزره ووزرهم ، وكما قال عليه الصلاة والسلام « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » بل قد قال الله تعالى ( وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء مايزرون ) وقال عز وجل ( وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ) .

## الباب الثلاثون

### صعوبة المعيار الذى تعرف به حقائق العلوم

كما أن للدراهم والدنانير ميزانا قد عرف أهلها صحته ، فلكل علم ميزان، نحو الحساب للمعدودات والهندسة للمحسوسات ، والعروض للشعر ، والنحو للألفاظ العربية ، وإلى هذا أشار تعالى بقوله ( ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم

الكتاب والميزان ) وأوصى الذين أعطاهم الميزان فقال ( وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ) فكل شاك أو منازع غيره فى مقدار فحقه أن يعتمد ميزانه إن عرفه ويقلد أربابه إن لم يعرفه ، وأن من ترك ذلك وأخذ يخرص[1] ويظن ويخمن لم يزل شكه ولم يسقط خلافه ؛ فالخرص قل ما يصدق والظن قل مايحقق ، ولذلك عبر بالخرص عن الكذب فقال تعالى ( إن هم إلا يخرصون ) وقال تعالى ( قتل الخراصون ) وقال تعالى ( إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ) ومعلوم أن ميزان الدين الذى صوابه يوصل إلى الثواب العظيم وخطأه يفضى إلى العذاب الأليم أصعب الموازين وأشرفها وأولاها بالمعرفة ، وكثير فى زماننا من تحلى بعلم الكلام وترشح فيه للجدال والخصام ، ورام الزعامة فيه قبل أوانها وطلب تحقيق موزوناته بغير ميزانها ، وأخذ كل واحد منهم يخرص خرصا ويظن ظنا ، ويسلك بظنه طريقا غير نهج ، فإذا وقع بينهم خلاف جعل كل واحد منهم ميزانه خرصه ، واعتقد فيما اتبعه ظنه ، فإذا تحاكموا إلى ما اتخذوه ميزانا صار خلافهم فى الميزان أكثر من خلافهم فى الموزون فهم فى ذلك كمن غص بطعام فاستغاث بالماء . لاجرم أن كثيرا من مناظراتهم لا تولد إلا شبهة ، ولا تثمر إلا حيرة ، ( ظلمات بعضها فوق بعض . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ) .

## الباب الحادى والثلاثون

## كراهية الجدال للعوام وذمه

إباحة الجدال للعامة الذين لم يتدربوا فى تحصيل القوانين ولم يهتدوا إلى سبيل البراهين ، يجرى مجرى حل قيد الشيطان ورفع يأجوج ومأجوج ، فإنها شؤون

---

(١) التخريص : التقدير نظرا بلا كيل أو ميزان .

سلطان قوتهم السبعية خالقة من يد قائد العقل وقيد الشرع ، فالجدال مكروه للعلماء الأولياء ، فكيف الجهال الأغبياء ، ألا ترى أن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ( وجادلهم بالتى هى أحسن ) فلم يطلق له جدال مخالفيه حتى قيده بالأحسن ، هذا مع وصفه عليه الصلاة والسلام بقوله ( وإنك لعلى خلق عظيم ) وقال تعالى فى ذم الجدال ( ماضربوه لك إلا جدلا ) وقال ( ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ) وقال ( وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم ) .

وللجدال مع كونه مكروها شروط وقوانين من تعاطاها ولم يكن متدربا فيها كان خصيما جدلا ، والخصومة عديمة الفائدة قليلة العائدة ، فإن الجدل مع مافيه قد يوقظ الفهم ويثير الأنفة لاقتباس العلم ، والخصومة لا تثمر إلا العداوة وإنكار الحق ، ولهذا جعلها الله شرا من الجدال فقال تعالى ( بل هم قوم خصمون ) وقال ( فإذا هو خصيم ) أى جيد الخصومة ( مبين ) ولم يذكر الخصام فى موضع إلا عابه .

وأيضا فالمتجادلان يجريان مجرى فحلين تعاديا وكبشين تناطحا ورئيسين تحاربا وكل واحد منهم يجتهد أن يكون هو الفاعل ، وصاحبه المنطبع ، والقائل كالمؤثر ، والسامع كالمتأثر ، ولم يتولد منهما خير بوجه . وقال حكيم : المجادل المدافع يقع فى نفسه عند الخوض فى الجدال أن لا يقنع بشىء ومن لا يقنعه إلا أن لا يقنع ، فما إلى إقناعه سبيل ولو اتفقت عليه الحكماء بكل بينة ، بل لو اجتمعت عليه الأنبياء بكل معجزة ، كما قال : ( ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ) إلى آخر الآية .

## الباب الثانى والثلاثون
## مايجب أن يعامل به الجدل المماحك

إذا ابتليت بمهارش مماحك مناوش قصده اللجاج لا الحجاج ومراده مناوأة العلماء وممـاراة السفهاء كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « من تعلم العلم ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء » الخ وكما قال الشاعر :

تراه معدا للخلاف كأنه ... بردٍّ على أهل الصواب موكل

فحقك أن تفر منه فرارك من الأساود والأسود فإن لم تجد من مزاولته بداً فـكابر إنـكاره الحق بإنـكارك الباطل ودفاعه الصدق بدفاعك الـكذب معتبرا فى ذلك قوله عز وجل ( ومـكروا ومـكرنا مـكرا ) وقوله ( ومـكروا ومـكر الله ). وقوله تعالى حـكاية عن المنافقين ( إنا معكم إنما نحن مستهزؤون الله يستهزئ بهم ). وقال ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) وبالغ فى ذلك معه وإياك أن تعرج معه إلى بث الحـكمة، وأن تذكر له شيئاً من الحقائق مالم تتحقق له قلباً طاهراً لائقاً للحكمة، فقد قال عليه الصلاة والسلام « لاتدخل الملائـكة بيتاً فيه كلب » فإن لـكل تربة غرساً ولـكل بناء أساً، وما كل الرءوس تستحق التيجان ولا كل طبيعة تستحق إفادة البيان ، وإن كل لابد فاقتصر معه على إقناع يبلغه فهمه فقد قيل : كما أن لب الثمار مباح للنحل ، والتبن معدود للأنعام كذلك لب الحـكمة معد لذوى الألبـاب وقشورها مجعولة للأنعام . وكما أنه من المحال أن يشم الأخشم ريحانا فمحال أن يفيد الحمار بياناً .

واعلم أن سبيل إنـكار الحجة والسعى فى إفسادها أسهل من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها ، ولهذا يتحرى المجادل الخصم أبداً بالدفاع لا المعارضة بمثلها وذلك أن الإفساد هدم والإتيان بالمثل بناء وهو صعب ، فإن الإنسان كما يمكنه قتل النفس

الزكية وذبح الحيوانات وإحراق النبات ، ولا يقدر على إيجاد شيء منها ، يقدر على إفساد حجة قوية بضرب من الشبه المزخرفة ، ولا يمكنه الإتيان بمثلها ، ولأجل ماقلنا دعا الله فى الحجج إلى الإتيان بمثلها فقال ( قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ) فرضى أن يأتوا بما فيه مشابهة له ، وإن كان ذلك مفترى ، وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ( فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ) والله الموفق .

## الباب الثالث والثلاثون

## الوجوه التى من أجلها يقع الشبه والخلاف

السبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل سببان : المعنى واللفظ . أما ما كان من جهة المعنى فإما أن يكون من جهة الناظر أو من جهة المنظور فيه وهو الحجة أو من جهة الآلة التى تستعمل فى النظر ، فإن الناظر فى الشيء المعتبر له جار مجرى وزّان ، وحججه كالميزان ، والمنظور فيه كالموزون ، فمتى كان الناظر غير تام العقل كان أعمى البصيرة فيجرى مجرى وزان أعمى البصر فلا سبيل له إلى الوزن ، ومن لم يكن أعمى البصيرة لكن هو غير مالك لقوانين البراهين والحجج والأدلة كان جارياً مجرى وزّان عديم الميزان فأخذ يخمن ، والمخمن قلما ينفك من غلط بل ما وقع منه من الصواب غير معتد به إذ لا أصل له تسكن إليه النفس ومتى لم يكن أعمى البصيرة لكن لا يعرف أى حجة يستعمل فيما هو بصدده فيطلب المعقول من جهة المحسوس والمحسوس من جهة المعقول كان جارياً مجرى وزان بصير لكن يزن الدنانير بصنج الدراهم والدراهم بصنج الدنانير .

وأما ما كان من جهة اللفظ فاما أن يكون ذلك واقعاً من جهة مفردات اللفظ أو من جهة مركباته ، فإن كان من مركبات اللفظ فإما أن يكون من حيث إن

اللفظ مشترك بين المعنيين كالعين[1] واليد ونحوهما أو يكون اللفظ عاما موضوعا موضع خاص أو خاصا موضوعا موضع عام ، أو مستعملا على سبيل المثل أو الرمز أو الإشارة ، أو مستعملا لشيء لم تتقرر صورة ذلك الشيء فى نفس السامع فيتخيل له وهم فاسد كاعتقاد كثير من الناس اعتقادات فاسدة فى الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار والميزان والصراط والكرسى .

فأما ما كان من جهة التركيب فإما أن يكون من جهة الكمية وذلك بأن يكون اللفظ أكثر مما يجب أن يكون أو أقل مما يجب أن يكون ، وأما من جهة الكيفية وذلك بأن يقدم ما حقه أن يؤخر ويؤخر ما حقه أن يقدم كقول الشاعر :

وما مثله فى الناس إلا مملكا    أبو أمه حى أبوه يقاربه

ومن أجل ماوقع فى الألفاظ من الشبه ، قالت الحكماء يجب أن يكون نظر الإنسان من المعنى إلى اللفظ فى الحقيقة لا يدل على المعنى إلا بوساطة صورة ذلك اللفظ فى القلب ، ومتى لم يثبت صورة المعنى فى القلب لم يفهم المعنى من اللفظ البتة .

## الباب الرابع والثلاثون

## بيان اختلاف جميع الناس فى الأديان والمذاهب

جميع الاختلاف بين أهل الأديان والمذاهب على أربع مراتب . الأولى : الاختلاف بين أهل الأديان النبوية وبين الخارجين عنها من الثنوية والدهرية، وذلك فى حدوث العالم وفى الصانع عز وجل وفى التوحيد . والثانية : الخلاف بين النبوة

---

(١) فالعين قد تستعمل للباصرة أو الجارية..

بعضهم بعضاً وذلك فى الأنبياء كاختلاف المسلمين والنصارى واليهود . والثالثة : الخلاف المختص فى أهل الدين الواحد بعضهم بعضاً فى الأصول التى يقع فيها التبديع والتفجير والاختلاف فى كثير من صفات الله عز وجل وفى القدر وكاختلاف المجسمة . والرابعة : الاختلاف المختص بأهل المقالات فى فروع المسائل كاختلاف الحنفية والشافعية .

فالاختلاف الأول : يجرى مجرى متنافيين فى مسلكيهما كآخذ طريق الشرق وآخذ طريق الغرب وآخذ ناحية الجنوب وآخذ ناحية الشمال . والثانى : يجرى مجرى آخذ نحو الشرق وآخذ يمينه أو شماله ، فهو وإن كان أقرب من الأول فليس يخرج أحدهما عن أن يكون ضالا بعيداً وإياهما قصد تعالى بقوله ( ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ) . والثالث : يجرى مجرى آخذين وجهة واحدة لكن أحدهما سالك المنهج والثانى تارك له وهذا التارك للمنهج ربما يبلغ وإن كانت الطريق تطلق عليه . والثالث : جار مجرى جماعة سلكوا منهجاً واحداً لكن أخذ كل واحد شعبة غير شعبة الآخر وهذا هو الاختلاف المحمود بقوله صلى الله عليه وسلم « الاختلاف فى هذه الأمة رحمة » وقولهم : كل مجتهد فى الفروع مصيب ، ولأجل الطرق الثلاثة أمرنا أن نستعيذ بالله تعالى ونتضرع إليه بقوله ( اهدنا الصراط المستقيم ) وقال تعالى ( وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ) وجميع الخلاف الواقع فى هذه الأمة اثنان وسبعون على ماورد فى الخبر لا زائداً ولا ناقصاً ، وقد ورد الخبر فى ذلك على وجهين . أحدهما : « ستفترق أمتى على اثنين وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » وفى الخبر الثانى . كلها فى الجنة إلا واحدة وهى الزنادقة وهذان خبران لا يمتنع أن يكونا صحيحين . ولكن على نظرين ومعنيين . وقد ذكر ذلك وبين فى رسالة مفردة ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير خلقه .

## الباب الخامس والثلاثون

## النطق والصمت

النطق أشرف ما خص به الإنسان فإنه صورته المعقولة التى باين بها سائر الحيوان ولهذا قال عز وجل ( خلق الإنسان ، علمه البيان ) ولم يقل وعلمه إذ جعل علمه تفسيراً لقوله خلق الإنسان ، تنبيهاً أن خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذى لو توهم مرتفعا لكانت الإنسانية مرتفعة ، ولهذا قيل ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة ، وقيل المرء مخبوء تحت لسانه ، قال الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده     فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

أى إذا توهم النطق الذى هو باللسان والقوة الناطقة التى هى بالقلب لم يبق إلا صورة اللحم والدم ، فإذا كان الإنسان هو الإنسان بذلك فمن كان أكثر منه حظاً كان أكثر منه إنسانية ، والصمت من حيث هو صمت مذموم فذلك من صفات الجمادات فضلا عن الحيوانات ، وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات بلا صوت وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب ومن مدح الصمت فاعتباراً بمن يسىء فى الكلام فيقع منه جنايات عظيمة فى أمور الدين والدنيا ، كما روى أن الإنسان إذا أصبح كفرت أعضاؤه اللسان فتقول اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا ، فأما إذا اعتبرا بأنفسهما فمحال أن يقال فى الصمت فضل فضلا أن يخاير بينه وبين النطق ، وسئل آخر عن فضلهما فقال الصمت عن الخنا أفضل من الكلام بالخطأ وعنه أخذ الشاعر :

الصمت أليق بالفتى     من منطق فى غير حينه

والفرق بين الصمت والسكوت والإنصات والإصاخة أن الصمت أبلغ لأنه يستعمل فى مالا قوة فيه للنطق ولما له قوة النطق ، ولهذا قيل لما له نطق الصمت .

والسكوت يقال لما له نطق فترك استعماله ، والإنصات سكوت مع استماع ، ومتى انفك أحدهما من الآخر لم يسم إنصاتا فى الحقيقة ، وعليه قوله تعالى : ( وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ) فقوله أنصتوا بعد قوله استمعوا يدل على أن الإنصات بعد الاستماع ركن خاص بعد عام ، والإصاخة الاستماع إلى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد .

## الباب السادس والثلاثون

## فى الصدق ومدحه والكذب وذمه

أصلهما فى القول ولا يكونان بالقصد الأول من القول إلا فى الخبر دون غيره من أصناف الكلام ، فأما بالعرض[١] فقد يدخل فى أنواع الكلام من الاستفهام والأمر والدعاء ، وذلك أن قول القائل أزيد فى الدار ؟ فى ضمنه إخبار بكونه جاهلا بحال زيد ، وكذلك إذا قال آسنى ، فى ضمنه أنه محتاج إلى المؤاسات وإذا قال لا تؤذنى ، فى ضمنه أنه يؤذيه ، وكلاهما أى الصدق والكذب يستعمل فى الاعتقاد أيضا كقولهم صدق ظنه واعتقاده وكذبا ، ويستعملان أيضا فى أعمال الجوارح نحو صدقوهم القتال وكذبوهم ، وحد الصدق التام هو مطابقة القول الضمير والخبر عنه معا ، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقا ، بل إما أن يوصف بالصدق والكذب أو تارة يوصف بالصدق وتارة يوصف بالكذب على نظرين مختلفين ؛ كقول الكافر إذا قال من غير اعتقاد محمد رسول الله ، فإنه يصح أن يقال فيه إنه صدق لكون المخبر عنه كذلك ، ويصح أن يقال فيه إنه كذب بمخالفة قوله ضميره ؛ ولهذا كذبهم الله تعالى حيث قال ( إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم . . . ) الآية ، وكذلك إذا

---

(١) نوع من أنواع التعريف تستعمله المناطقة .

قال من لم يعلم كون زيد فى الدار إنه فى الدار ، يصح أن يقال صدق وأن يقال كذب بنظرين ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام من قال برأيه فى القرآن فأصاب فقد أخطأ وفى خبر فقد كذب على الله ، والمبرسم لا قصد له ، فإذا قال زيد فى الدار لا يقال له صدق ولا كذب ، والصدق أحد أركان بقاء العالم حتى لو توهم ارتفاعه لما صح نظامه وبقاؤه وهو أصل المحمودات وركن النبوات ونتيجة التقوى ولولاه لبطلت أحكام الشرائع ، ولهذا قال عز وجل ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ) والاختصاص بالكذب انسلاخ من الإنسانية ، فخصوصية الإنسان النطق فمن عرف بالكذب لم يعتمد نطقه ومن لم يعتمد نطقه لم ينفع وإذا لم ينفع نطقه صار هو والبهيمة سواء بل يكون شرا من البهيمة فإن البهيمة إنه لم تنفع بلسانها لم تضر ، والكاذب يضر ولا ينفع ، ولهذا قال عز وجل ( إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ) .

واعلم أن كل كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الإخبار فليس بكذب على الحقيقة ، ولهذا لا يتحاشى المتحرزون من التحدث كقولهم فى الحث على مداراة العدو والتلطف فى خدمة الملوك : إن سبعاً وذئباً وثعلباً اجتمعن فقلن نشترك فيما نتصيد فصدن عيراً وظبياً وأرنباً فقال السبع للذئب اقسم فقال هو مقسوم العير لك والظبى لى والأرنب للثعلب فوثب السبع فأدماه ثم قال للثعلب أقسم فقال هو مقسوم العير لك لغذائك والظبى لمقيلك والأرنب لعشائك فقال من علمك هذه القسمة قال علمنى الثوب الأرجوانى الذى على الذئب ؟ وعلى المثل حمل قوم قوله عز وجل ( إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ) وقوله تعالى ( كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ) فقال يصح هذا لما كان مثلا وإن لم تجر العادة بوجود الحبة هكذا .

## الباب السابع والثلاثون

## ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب

ذهب كثير من المتكلمين إلى أن الصدق يحسن لعينه والكذب يقبح لعينه ، وقال كثير من الحكماء والمتصوفة إن الكذب يقبح لما فيه من المضرات الخاصة ، والصدق يحسن لما يتعلق به من المنافع الخاصة ، وذلك أن الأقوال من جملة الأفعال ، ومن الأفعال مالا يحسن ولا يقبح لذاته وإنما يقبح لما يتعلق به من الضرر على ما فيه من النفع وبالعكس ، ألا ترى أن أعظم ما يجرى فى العالم القتل والغض وقد يقع كل واحد منهما على وجه يحسن وعلى وجه يقبح فكذا المقال من الصدق والكذب ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « لا يحسن الكذب إلا فى ثلاث : إصلاح ذات البين وكذب الرجل لامرأته ليرضيها وكذب الرجل فى الحرب فإنها خدعة » وقد ورد إذا أتاكم عنى حديث يدل على هدى أو يرد عن ردى فاقبلوه قلته أو لم أقله ، وإن أتاكم عنى حديث يدل على ردى أو يرد عن هدى فلا تقبلوه فإنى لا أقول إلا حقاً . قالوا والكذب يكون قبيحاً بثلاث شرائط أن يكون الخبر بخلاف المخبر عنه ، وان يكون المخبر اختلقه عند الإخبار به ، وأن يقصد إيراد ما فى نفسه لا نفعاً أعظم من ضرره ذلك الكذب مع شرط أن لا يمكن الوصول إلى ذلك النفع بغيره ومع أنه إذا ظهر كان للكاذب عذر واضح عاجلا وآجلا ، قالوا ولا يلزم على هذا أن يقال احذروا الكذب فيما يرجى منه نفع دنيوى ، فالمنفعة الدنيوية ولو كانت ملك الدنيا بحذافيرها لا تعادل ضرر أدنى كذب ، وإنما هذا الذى قلناه يتصور فى نفع أخروى يكون الإنسان فيه معذوراً عاجلا ، كمن سألك عن مسلم استتر فى دارك وهو يريد قتله فتقول لا ، فهذا يجوز ، فإن نفع هذا الكذب موفى على ضرره وهو فيه معذور ، ولا خلاف

بى أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب ، ولم تزل الأنبياء والأولياء يفزعون إليها كقول النبى عليه الصلاة والسلام لمن سأله من أين أنت . قال : من ماء ، وقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنى سقيم ، وقوله هذه أختى[1] وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وأما الصدق فإنما يحسن حيث يتعلق به نفع ولا يلحق ضرره بأحد ، فمعلوم قبح قول من يقعد ويقول السماء فوقى والأرض تحتى من غير أن يريد أن يجعل هذا مقدمة دليل أو إفادة معنى تعلقه به ، فكذلك قبح النميمة والسعاية، وإن كانا صدقاً ، ولذلك قيل كفى بالسعاية ذما أنه يقبح فيها الصدق ، وأقبح الكذب مع قبح كله أوجله ما لا يتعلق به رجاء نفع عاجل أو آجل ويجلب للمقول له ضرراً ، كرجل يأتيك من بلد بعيد فيقول إن ملك ذلك البلد يرغب فيك ويتشوق إليك وسألك أن تأتيه لينيلك مالا وجاها فإذا أوردت فلم تجد لذلك صدقاً بل وجدت ذلك الملك حنقاً عليك .

## الباب الثامن والثلاثون
## أنواع الكذب والسبب الداعى إليه

الكذب إما أن يكون اختراع قصة لا أصل لها أو زيادة فى القصة أو نقصانا يغيران المعنى أو تحريضاً يغير عبارة فما كان اختراعاً يقال له الافتراء والاختلاق ، فإن كان بزيادة فمين وكل من أورد كذبٌ فى غيره فإما أن يقوله بحضرة المقول فيه وهو المعبر عنه بالبهتان[2] وكل من أورد حديثاً فإما أن يقوله عن علم أو عن غلبة ظن يحسن أو يقبح ، فما كان عن تخمين فظن مذموم وعليه قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ) الآية . واعلم أن الداعى إلى الكذب محبة النفع الدنيوى وحب التراث وذاك أن المخبر يرى أن له فضلا على المخبر بما علمه

(١) عندما سأله الملك عن زوجته هاجر .
(٢) لم يذكر مقابل إما

فهو يتشبه بالعالم الفاضل ، فيظن أنه يجلب بما يقوله فضلا ومسرة وهو يجلب به نقيصة وفضيحة ، ففضيحة كذبة واحدة لا توازى مسرة دهره ، والكذب عار لازم وذل دائم ، وحق الإنسان أن يتحرى الصدق ويتعوده ، ولا يترخص فى أدنى كذب ، فمن استحلاه عسر عنه فطامه ، وقال بعض الحكماء : كل ذنب يرجى تركه بتوبة أو إنابة ما خلا الكذب فإن صاحبه يزداد على الكبر فإنا رأينا شارب خمر أقلع ولصا نزع ، ولم نر كذابا رجع . وعوتب كذاب فى كذبه فقال لو تغرغرت به وتطعمت حلاوته لما صبرت عنه ، والله الهادى .

## الباب التاسع والثلاثون

## الذكر الحسن من المدح والثناء

محبة الذكر الحسن أشرف مقاصد أبناء الدنيا ، وهى من جبلة الناس فى خصائصهم ، ولا يوجد فى غيرهم من الحيوان ، كما قال الشاعر :

حب الثناء طبيعة الإنسان

ولولا الكلف به لما ظهرت العدالة من أكثر الناس ، ولما أخافه الهجاء ولأسره الثناء ، ولأردعه عن سوء الفعال إلا سوط أو سيف . ولذا قيل مما ينفر عن القبيح ويحث على الجميل خمسة أشياء : العقل ثم الحياء ثم المدح والهجاء ثم الترغيب والترهيب ، وقيل من لم يردعه الذم عن سيئة ولم يدعه المدح إلى حسنة فهو جماد أو بهيمة ، ولأجله تنازع الناس الرياسة والمنازل الرفيعة .

وليس الثناء فى نفسه بمحمود ولا مذموم ، وإنما يذم ويحمد بحسب المقاصد ، فمن قصده طلب ما يستحق به الثناء على الوجه الذى يستحب فذلك محمود ، وهو طريق إبراهيم — صلى الله عليه وسلم — حيث قال ( واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ) أى اجعلنى بحيث أفعل ما إذا مدحت به يكون مادحى صادقا ،

ومن هذا الوجه ندب للإنسان أن يقول إذا مدح اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون.
والمذموم أن يميل إليه من غير تجربة لفعل ما يقتضيه وذلك من أعظم الآفات
لمن تحراه فإنه يفتح باب الحسد ، والحسد يفتح باب الكذب ، والكذب رأس
كل مذمومة . وقد توعد الله سبحانه وتعالى من طلب المحمدة من غير فعل حسنة
فقال تعالى ( لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ) .
وينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » .
وقال « المؤمن إذا مدح فى وجهه ربا الإيمان فى قلبه » ومن الأول قول النبى صلى
الله عليه وسلم وقد سمع رجلا أثنى على آخر فقال « قطعت مطاه لو سمع ما أفلح » .
والفاضل يكره الثناء عليه فى وجهه سيما إذا كان من مادح مطرى ، وجليس
مغرى ، وممن يحرف قبل أن يعرف ، وممن إن وجد قادحاً قدح ، وإن وجد
مادحاً مدح .

وأما الثناء من الإنسان على نفسه فشناعة وفظاعة وقد قيل لحكيم ما الذى
لا يحسن وإن كان حقاً فقال: مدح الرجل نفسه ، وقال معاوية رضى الله تعالى عنه
لرجل : من سيد قومك ؟ فقال أنا ، فقال لو كنته لما قلته ، وإنما لم يستقبح من
يوسف عليه الصلاة والسلام قوله ( اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ) ؛
لأنه قصد بذلك التنبيه على استقلاله بما سأل أن يفوض إليه ، وقد أحسن ابن الرومى
حيث اعتذر عن مدح نفسه قصد الدلالة على مكانه بقوله :

وعزيز علىّ مدحى لنفسى ... غير أنى جشمته للدلالة
وهو عيب يكاد يسقط فيه ... كل حر يريد إظهار آله

وصلى الله على سيدنا محمد

## الباب الأربعون

## الشكر

الشكر تصور المنعم عليه النعمة وإظهارها ، وهو مقلوب عن الكشر ، ويضاده الكفر وهو من كفرت الشيء غطيته ، ودابة شكور أى مظهرة بسمتها إسداء صاحبها إليها ، وقيل أصله من عين شكرى أى ممتلئة ، فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه ، ومن هذا الوجه قيل هو أبلغ من الحمد ، لأن الحمد ذكر الشيء بصفاته ، والشكر ذكر الشيء بصفاته وبنعمه ، فالشكر على ثلاثة أضرب : شكر بالقلب وهو تصور النعمة ، وشكر باللسان وهو الثناء على المنعم ، وشكر بسائر الجوارح وهو مكافأته بقدر استحقاقه . وهو أيضاً باعتبار الشاكر والمشكور ثلاثة أضرب : شكر الإنسان لمن هو فوقه وهو بالخدمة والثناء والدعاء ، وشكر لنظيره وهو بالمكافآت ، وشكر لمن هو دونه وهو بالثواب . وقد وصف الله تعالى نفسه بالشكر لصالح عباده ، وشكر العبد له هو معرفة نعمه وبحفظ جوارحه بمنعها عن استعمال مالا ينبغى ، وشكر المنعم فى الجملة واجب بالعقل كما هو بالشرع ، وأوجبها شكر البارىء تعالى ثم شكر من جعله سبباً لوصول خير إليك على يده ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « لا يشكر الله من لم يشكر الناس » وقال عليه الصلاة والسلام « أشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فإنه لا تزول النعمة إذا شكرت ولا دوام لها إذا كفرت » وقال بعضهم : كل نعمة يمكن شكرها إلا نعمة الله فإن شكر نعمته نعمة منه فيحتاج العبد أن يشكر الثانى كشكره الأول ، وكذلك الحال فى الثالث والرابع ، وهذا يؤدى إلى مالا يتناهى ، ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام : إلهى أمرتنى بالشكر على نعمك وشكرى لك نعمة من نعمك ، ومن هذا أخذ الشاعر :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة　　على له فى مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله　　وإن طالت الأيام واتصل العمر ؟!

ولهذا قيل غاية شكر الله تعالى الاعتراف بالعجز عنه بل قد قال الله تعالى. ( وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ) وأيضاً فكل ما يفعل الله بعبده فهو نعمة منه. وإن كان بعض ذلك يعد بلية ، ولهذا قال بعض الصالحين: يامن منعه عطاء وبلاؤه نعماء ، ولأجل صعوبة شكره قال عز وجل : ( وقليل من عبادى الشكور ) ولم يثن. بالشكر على أوليائه إلا على اثنين منهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حيث قال تعالى ( شاكراً لأنعمه اجتباه ) فخص لفظ لأنعمه الدال على أدنى العدد وقال فى نوح عليه السلام ( إنه كان عبداً شكوراً ) .

واعلم أن الشكر والصبر جماع الإيمان كما روى فى الخبر «الصبر نصف الإيمان» لكن قال بعض المتصوفة الشكر أفضل من الصبر فإن الصبر حبس النفس إلى مسالمة البلاء ، والشكر أن لا تلتفت إلى البلاء بل تراه من النعماء ، فمن صبر فقد ترك إظهار الجزع ، ومن شكر فقد تجاوز إلى إظهار السرور بما جزع له الصابر ، وأيضاً الصبر ترك العمل السيء والشكر إظهار العمل الحسن، وليس من ترك قبيحاً كمن فعل جميلا ، وقابل تعالى الشكر بالجزاء فعل الحبيب بحبيبه فقال تعالى ( وسنجزى الشاكرين ) وقابل الصبر بالأجر فعل المستأجر بأجيره ، فقال تعالى ( إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ) وأين الأجر وإن كثر حتى صار بغير حساب من الجزاء ، ثم قال فى الصبر ( يوفى ) فلم يسم فاعله وقال فى الشكر (سنجزى الشاكرين) . فانظر إلى هذا اللطف فى المقال قبل الانتهاء إلى الفعال، ولم يذكر من أنبيائه بالشكر إلا اثنين كما تقدم ، ووصف جماعتهم بالصبر فقال ( كل من الصابرين ) وقال ( لكل صبار شكور ) فجعل الصبر مبدأ الشكر تنبيهاً ولأن الصبر محمول عليه قهراً ، والشكر مؤدى طبعاً .

## الباب الحادى والأربعون

### الغيبة والنميمة

الغيبة : أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيب من غير أن يحوج إلى ذكره ، وقد عظم الله تعالى أمرها فقال ( ولا يغتب بعضكم بعضاً ) الآية ، وقال تعالى ( هماز مشاء بنميم ) وقال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة قتات » وروى : النميمة تفطر الصائم وتنقض الوضوء ، وقل من كان عائباً إلا كان معيباً ، وقال قتيبة لرجل رآه يغتاب آخر : لقد تلمظت بما يعافه الكرم ، وحق الانسان أن لا يتعودها فإن لها ضراوة ، ولهذا عير إنسان آخر بالغيبة فقال لو تلمظت بها لما صبرت عنها ، ثم إن من اغتاب اغتيب ، ومن عاب عيب ، فبحثه عن عيوب الناس يورث البحث عن عيوبه ، وكما لا يجب أن يتحراها بقوله ، يجب أن لا يسمعها ، لأن سماع كل قبيح يعلق ضرره ووسخه بفكرته ، فنجس كلمة عوراء لا يمكن الطهر منه إلا بزمان مديد وعلاج شديد ، وسماع القبيح قد يكون سبباً لفساد الكبير المجيد ، وغواية العالم المستبصر فضلا عن فساد الحدث الغر والناشىء الغمر ، ولذلك قال عز وجل فى مدح قوم ( وإذا مروا باللغو مروا كراماً ) وقد أجاد من قال :

وسمعك صن عن سماع القبيح　　　كصون اللسان عن النطق به

وكقبح الغيبة والنميمه المسابة، قال صلى الله عليه وسلم « ماتساب اثنان إلاغلب ألأمهما ، وإلا انحط الأعلى إلى رتبة الأسفل منهما » وقيل إذا سمعت كلمة تؤذيك فتيامن لها حتى تتحاشاك ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

## الباب الثانى والأربعون

## الكلام القبيح البذاء

الكلام القبيح : يكون من القوة الشهوية طوراً كالرفث والسخف ، ويكون من القوة الغضبية طوراً فمتى كان معه استعانة بالقوة المفكرة كان معه السباب ومتى كان من مجرد الغضب كان صوتاً مجردا لا يفيد نطقا كما يرى فى كثير ممن فار غضبه وهاج هائجه .

والرفث فواحش الكلام فى باب النكاح ، وأوصاف النساء هو قبيح . وقال بعضهم إنى لأستقبح من الرجل أن يكون وصافا لبطنه وفرجه ، ومن حق الإنسان أن يصون عن ذلك سمعه كما يصون عن التفوه به فمه . ولذلك وصف الله تعالى قوماً فقال ( وإذا مروا باللغو مروا كراما ) وقال تعالى ( فإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ) .

والسباب ثلاثة : الأول قدح فى نسب المسبوب . والثانى : فى نفسه أو بدنه لعاهة به أو آفة . الثالث : فى شىء فعله أو قبل به ، والسفه التسرع إلى القول القبيح .

## الباب الثالث والأربعون

## المزاح والضحك

المزاح إذا كان على الاقتصاد فهو محمود كما روى عنه عليه الصلاة والسلام « إنى لأمزح ولا أقول إلا حقا » وروى عنه صلى الله عليه وسلم كلمات مازح بهن وقال سعيد بن العاص : اقتصد فى مزاحك فإن الإفراط فيه يذهب البهاء وتركه

يقبض المؤانسين ، ويوحش المخالطين ، لكن الاقتصاد منه صعب جدا لا يكاد يوقف عليه ، ولذلك تحرج عنه أكثر الحكماء حتى قيل : المزاح مسلبة للبهاء ومقطعة للأخاء وفحل لا ينتج إلا الشر ، وأما الضحك فمن خصائص الإنسان وذلك لأنه يكون عن التعجب ، والتعجب لا يكون إلا عن فكرة ، والفكرة تميز الإنسان عن البهائم ، والاقتصاد فيه ومعرفة ما هو حسن منه عسر كالمزاح . وقيل إياك وكثرة الضحك فإنها تميت القلب وتورث النسيان،وقيل كثرة الضحك من الرعونة . ويحكى عن عيسى عليه الصلاة والسلام أنه قال إن الله يبغض الضحاك من غير عجب ، والمشاء إلى غير إرب . وأما إيراد المضحكات على سبيل السخف فنهاية القباحة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك منه ، ويل له ويل له » .

## الباب الرابع والأربعون

## الحلف

الحلف الكذب : أقبح من اليمين الفاجرة ففيها مع الكذب الاستهانة بالمقسم به ، وحق المسلم أن يتحاشى من الاستعانة باليمين فى الحق فكيف فى الباطل ! وأن يتحقق تقدير القسم وما يراد به ليعلم أن الأعراض الدنيوية أوبخ أمرا وأخس قدرا من أن يفزع فيها إلى اليمين بالله ، وتقدير ذلك أن القائل إذا قال تالله إن لى عليك كذا أى إن وجود ذلك حق كما أن وجود الله حق ، وهذا كلام يتحاشى منه من فى قلبه حبة خردل من تعظيم الله تعالى . وقد قال تعالى ( ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ) وقال تعالى : ( ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا ) وقال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه : الحلف ينفق السلعة ويذهب البركة ولن يخص يمينا من يمين . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « من

لم يحلف على ماله فلا مال له » فإنه وإن كان بنظر الفقهاء أنه يفسح له فى الحلف صادقا فإنه بنظر الحكماء حث على إتيان تعظيم الله تعالى ، وتقديم على إيثار المال ، وتعريض بأن الذى فاته هو عرض حاضر لا الدين والمروءة وحق العاقل إذا اضطر إليه أن يسلك سبيل التعريض إليه دون التصريح ، وما لا يضطر إليه يتركه تعريضا وتصريحا ، وإن بدر منه سهوا حلف يدرؤه بالاستثناء كما قال صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفا فليقل إن شاء الله فإنه يدفع الحنث ويذهب الخبث وينجز الحاجة ويرد اللجاجة » وقيل العاقل إذا تكلم اتبع كلامه مثلا ، والأحمق إذا تكلم اتبع كلامه حلفا ، وعلامة الكاذب جوده بيمينه على غير مستحلف قال الشاعر :

وفى اليمين على ما أنت واعده ... مادلّ أنك فى الميعاد متّهم

وقال بعض الحكماء : الحلافة تدل على كذب أربابها ، لأن ذلك لقلة الركون إلى كلامهم ، وكما جوز عليه الصلاة والسلام الكذب إذا اضطر إليه جوز الحنث فى اليمين ، فقال « إذا حلف أحدكم على شىء فرأى غيره خيرا منه فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » .

## الفصل الثالث فيما يتعلق بالقوى الشهوية

### الباب الأول

### الحياء

الحياء : انقباض النفس عن القبائح وهو من خصائص الإنسان ، وأول ما يظهر من قوة الفهم فى الصبيان ، وجعله الله سبحانه فى الإنسان ليرتدع به عما تنزع إليه الشهوة من القبائح فلا يكون كالبهيمة ، وهو مركب من جبن وعفة ولذلك لا يكون المستحيي فاسقا ، ولا الفاسق مستحييا لتنافى اجتماع العفة والفسق ، وقلّ

مايكون الشجاع مستحييا والمستحيي شجاعا ، لتنا فى اجتماع الجبن والشجاعة ، ولقلة وجود ذلك تجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة وبين المدح بالحياء نحو قول الشاعر :

يجرى الحياء الغض من قسماتهم  فى حين يجرى من أكفهم الدم

وقال :

كريم يغض الطرف فضل حيائه  ويدنو وأطراف الرماح دوانى

ومتى مدح بالانقباض فمدح للصبيان دون المشايخ ، ومتى قصد به ترك القبيح فمدح لكل أحد ، وبالاعتبار الأول . قيل الحياء للأفاضل قبيح ، ومن هذا الوجه خزى خزيا فى الهوان وخزى خزاية فى الاستحياء فجعلا من منبع واحد ، وبالاعتبار الثانى : قيل ان الله يستحيى من ذى الشيبة فى الإسلام أن يعذبه ، أى يترك عذابه ، وأما الخجل فحيرة النفس لفرط الحياء ، ويحمد فى النساء والصبيان ويذم باتفاق من الرجال . والوقاحة مذمومة بكل إنسان إذ هى انسلاخ من الإنسانية وحقيقتها لجاج النفس فى تعاطى القبيح واشتقاقه من حافر وقاح أى صلب وبهذه المناسبة قال الشاعر :

ياليت لى من جلد وجهك رقعة  فأقد منها حافرا للأشهب (١)

وماأصدق قول الشاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد  إلا تكامل فيه الشر واجتمعا

فأما مداواة اكتساب الحياء إذاهم بقبيح فبأن يتصور أعظم مافى نفسه ، ولذلك لايستحيى من الحيوان ولامن الأطفال الذين لايميزون ، ويستحيى من العالم أكثر مما يستحيى من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر من الواحد ، والذى يستحيى منهم

(١) صفة من صفات الخيل .

الإنسان ثلاثة: البشر، وهو أكثر مايستحيي منه ، ثم نفسه ، ثم الله عز وجل. ومن استحيي من الناس ولم يستح من نفسه فنفسه أخس عنده من غيره ، ومن استحيي منهما ولم يستح من الله عزوجل فلعدم معرفته به ، فإن الإنسان يستحيي ممن يعظمه ويعلم أنه يراه ويسمع نجواه ومن لا يعرف الله فكيف يستعظمه وكيف يعلم أنه مطلع عليه ؟! وقوله صلى الله عليه وسلم : « استحيوا من الله حق الحياء فى ضمنه حث على معرفته ، وقال الله عز وجل ( ألم تعلم بأن الله يرى ) تنبيها على أن العبد إذا علم أن ربه يراه استحيي من ارتكاب الذنب. وسئل الجنيد عما يولد الحياء من الله تعالى فقال : رؤية العبد آلاء الله عليه ورؤية تقصيره عن شكره ، إن قيل كيف قال عليه الصلاة والسلام « من لا حياء له لا إيمان له » قيل الحياء أول مايظهر فى الإنسان من أمارة العقل والإيمان آخر مرتبة العقل ، ومحال حصول المرتبة الأخيرة لمن لم تحصل له الأولى ، فبالواجب إذا كان من لاحياء له لا إيمان له ، وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء شعبة من الإيمان » وقال « الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء » .

## الباب الثانى
## كبر الهمة

وأما كبر الهمة فخاص بالإنسان ، وأما سائر الحيوان فكل جنس يتحرى الفعل بقدر مافى طبعه ، وهو حال بين التفنج وصغر الهمة ، فالتفنج تأهل الإنسان لما لا يستحقه وهو البذخ ، وصغر الهمة ترك لما لا يستحقه وهو الدناءة ، وكلاهما مذموم ، لكن المتفنج جاهل أحمق ، وصغير الهمة جاهل غير أحمق ، وليس لكبر الهمة إفراط مذموم فى الحقيقة ، وإنما الإفراط يدخل فى كل فعل يتصوره بعض الناس تصوره عدم الهمة وليس كذلك .

واعلم أنه يقال : فلان كبير الهمة وفلان صغير الهمة إذا كان أحدهما يطلب

مقتنى أكثر أو أشرف مما يطلبه الآخر ، والكبير الهمة على الاطلاق : هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فلا يصير عبد عارية ببطنه وفرجه ، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة فيصير من أولياء الله وخلفائه فى الدنيا ومن مجاوريه فى الآخرة ، والصغير الهمة من كان على الضد من ذلك ، وقال أعرابى . فلان عظمه صغر الدنيا فى عينه فكان خارجا من سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد وخارجا من سلطان فرجه فلا يستحق له رأيا ولا بدنا ، وحق الإنسان أن يتظلف من ذلك فإنه وإن كان بعنصره حيوانا فبعقله وفكره ملك إذا ضيع نفسه صار شرا من البهيمة وذلك هو الخسران المبين .وقيل : من عظمت همته لم يرض بقنية مستردة وحياة مستعارة ، فإن أمكنك أن تقتنى قنية مؤبدة وحياة مخلدة فافعل فلا اعتداد بما له فناء والكبير الهمة على الإطلاق من يتحرى الفضائل لا لذة ولا لثروة ولا لاستشعار نخوة واستعلاء على البرية بل يتحرى مصالح العباد شاكرا بذلك نعمة الله وطالبا به مرضاته غير مكترث بقلة مصاحبيه فإنه إذا عظم المطلوب قل المساعد ، وطرق العلاء قليلة الإيناس .

## الباب الثالث

## الوفاء والغــــــدر

الوفاء أخو الصدق والعدل، والغدر أخو الكذب والجور ، وذلك أن الوفاء صدق باللسان والفعل معاً ، والغدر كذب بهما وفيه مع الكذب نقض العهد . والوفاء يختص بالإنسان ، فمن فقده فقد انسلخ من الإنسانية كالصدق ، وجعل الله سبحانه العهد من الإيمان وصيره قواماً لأمور الناس ، فالناس مضطرون إلى التعاون ولا يتم تعاونهم إلا بمراعاة العهد والوفاء ، ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفعت المعايش ،ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال تعالى (﴿وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى

فارهبون) وقال تعالى (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) وقال تعالى (وثيابك فطهر) أى نزه نفسك عن الغدر وقال عز وجل (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) وقال عز وجل (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وعظم حال السموءل فيما التزم به من الوفاء بدروع أمرىء القيس[١] ولقلة وجود ذلك فى الناس قال تعالى (ما وجدنا لأكثرهم من عهد) وضرب المثل به فى المعزة فقيل . هو أعز من الوفاء . قال الشاعر .

أبى الناس إلا ذميم الفعال ... إذا جربوا وقبيح الكذب

## الباب الرابع

## المشاورة

اشتقاقها : من شرت الدابة إذا استخرجت جريها وهى استنباط المرء رأى غيره فيما يعرض له من الأمور المشكلة ويكون ذلك فى الجهة التى يتردد المرء فيها بين فعلها ونعمت العدة هى ، قال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه : المشاورة حصن من الندامة وأمن السلامة . وقيل الأحمق من قطعة العجب عن الإستشارة والاستبداد عن الاستخارة فالرأى الواحد كالسحيل والرأيان كالخيطين والثلاثة أصرار لا ينقض وكفاك بمدحه قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وشاورهم فى الأمر) وقد استحسن الحكماء قول بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى لبيب أو فصاحة حازم

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة ... فريش الخوافى تابع للقوادم

لكن اعتبار من تجوز مشورته صعب جداً فإنه يحتاج أن يكون صديقاً مجرباً

---

(١) لما جعل ابنا للسموأل يأسره أعداء امرى القيس ويقتلونه ولم يفرط فى دروعه التى أودعها عنده .

حازماً ناصحاً رابط الجأش غير معجب بنفسه ولا متلون فى رأيه ولا كاذب فى مقالته فمن كذب لسانه كذب رأيه، ويجب أن يكون فارغ البال فى وقت مايستشار ، فقد أحسن بشار فى قوله .

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه   وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعنا عند واحد   فحق له من طاعة بنصيب

## الباب الخامس

## النصح

النصح أصله : من نصحت الثوب إذا خطته ، وهو إخلاص المحبة لغيره فى إظهار ما فيه صلاحه وهو ذوب المحبة المختصة بالفضيلة دون محبة النفع واللذة ، وقد عظم النبى صلى الله عليه وسلم أمرها فقال « الدين النصيحة فقيل لمن يارسول الله فقال لله ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم » فبين صلى الله عليه وسلم أن النصح واجب لكافة الناس ، وذلك بأن تتحرى مصلحتهم فى جميع أمورهم بقدر وسعك ، وأول النصح بأن ينصح الإنسان نفسه فمن غشها فقل ما ينصح غيره ، وحق من استنصح أن يبذل غاية النصح وإن كان ذلك فى شىء يضره ويتحرى فيه قول الله عز وجل ( يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم ) وقال تعالى ( وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ) وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه . لا يزال الرجل يزداد فى صحة رأيه ما نصح لمشيره فإذا غشه سلبه الله تعالى صحته ولا يلتفتن إلى ما قيل . إذا نصحت صاحبك فلم يقبل منك فتقرب إلى الله بغشه فذلك قول ألقاه الشيطان على لسانه ، اللهم إلا أن يريد بغشه السكوت ، فقد قيل كثرة النصيحة تورث الظنة .

ومعرفة الناصح من الغاش المستنصح صعبة جداً فالإنسان بمكره يعسر الاطلاع على سره إذ هو يبدى خلاف ما يخفى وليس كالحيوان الذى يمكن الاطلاع على طبيعته .

## الباب السادس

## كتمان السر

السر ضربان : أحدهما ما يلقى إلى الإنسان من حديث يستكتم ، وذلك أما لفظاً كقولك لغيرك أكتم ما أقول لك ، وإما حالا وهو أن يتحرى القائل حال انفراده فيما يورده أو يخفض صوته أو يخفيه عن مجالسه، ولهذا قيل إذا حدثك إنسان بحديث فالتفت فهو أمانة . والثانى : أن يكون حديثاً فى نفسك ماتستقبح إشاعته أو شيئاً تريد فعله . وإلى الأول من ذلك أشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « من أتى منكم من هذه القاذورات بشىء فليستتر بستر الله » وإلى الثانى أشار من قال من وهى الأمر إعلانه قبل إحكامه ، وكتمان النوع الأول من الوفاء وهو أخص بعامة الناس ، والثانى : من الحزم والاحتياط وهو أخص بالملوك وأصحاب السياسات ، وإذاعة السر من قلة الصبر وضيق الصدر وتوصف به ضعفة الرجال والنساء والصبيان ، والسبب فى أنه يصعب كتمان السر هو أن للانسان قوتين آخذة ومعطية وكلتاهما مما تتشوف إلى الفعل المختص بها ، ولولا أن الله تعالى وكل المعطيه بإظهار ما عندها لما أتاك بالأخبار من لم تزود فصارت هذه القوة تتشوف إلى فعلها الخاص تحت إطلاقها ، ولا يخدعنك عن سرك قول من قال شعراً

واكتم السر فيه ضربة العنق

وقوله :

ويكاتم الأسرار حتى إنه ليصونها عن أن تمر بباله

فذلك قول من يستنزلك عما فى قلبك فإذا استفرغ ما عندك لم يرع فيه حقك فقد قيل : الصبر على القبض على الجمر أيسر من الصبر على كتمان السر، وما أصدق من أنبأ عن حقيقة حاله حيث قال له صديقه أريد أن أفشى إليك سراً تحفظه على فقال لا أريد أن أرى قلبي بجوالك وأجعل صدرى خزانة شكواك فيقلقنى ما أقلقك ويؤرقنى ما أرقك فتبيت بإفشائه مستريحاً ويبيت قلبي يجره جريحاً . وقيل أكثر ما يستنزل الإنسان عن سره فى ثلاثة مواضع عند الاضطجاع على فراشه، وعند خلوته بعرسه ، وفى حال سكره. ومن حق من يسارر غيره أن يجتنب المحافل لأمرين أحدهما حذراً من أن يساء به الظن فهذا يقول قد خبأ شيئاً وهذا يستريب وذايتهم . والثانى : ربما يتبع بالفحص فيطلع على مراده ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث » .

## الباب السابع

## التواضع والكبر

التواضع ، مشتق من الضعة وهو رضى الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته ، وفضيلة لا تكاد تظهر فى أفناء الناس لانحطاط درجتهم ، وإنما ذلك يتبين فى الملوك وأجلاء الناس وعلمائهم ،وهو من باب التفضل لأنه يترك بعض حقه، وهو بين الكبر والضعة فالضعة وضع الإنسان نفسه منزلة تزرى به ليضع حقه ، والكبر وضع نفسه فوق قدره ، والفرق بين التواضع والخشوع : إن التواضع يقال فيما بين رفيع ووضيع ، وأيضاً فالتواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة . والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح ، ولذلك يقال تواضع القلب وخشعت الجوارح . وقال عز وجل ( خاشعة أبصارهم — وخشعت الأصوات للرحمن ) وقد عظم النبى صلى الله عليه وسلم التواضع فقال « طوبى لمن تواضع فى غير منقصة وذل فى نفسه من غير مسكنة » وقيل لبذر جمهر هل تعرف نعمة لا يحسد

عليها وبلاء لا يرحم صاحبه عليه قال : نعم أما النعمة فالتواضع وأما البلاء فالـكبر وقال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد عند الحكماء من الـكبر مع الأدب ، والسخاء فأحسن بحسنة غطت على سيئتين ، وأقبح بسيئة غطت على حسنتين، فالـكبر ظن الإنسان أنه أكبر من غيره فالتكبر إظهار ذلك ، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله عز وجل ، ومن أدعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ، ولذلك صار مدحاً فى البارىء تعالى، وذما فى البشر ، وإنما شرف المخلوق فى إظهار العبودية كما قال تعالى ( لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون ) تنبيهاً على أن ذلك لهم رفعة لا ضعة والمتكبر والضرع كلاهما جاهل ، لكن الضرع غبى والمتكبر غير أحمق وشتان ما بينهما ، والغبى قد يتأدب والأحمق لا سبيل إلى تأديبه ، ولأن الضرع قد ترك ماله والأحمق قد ادعى ما ليس له وشتان بين المنزلتين ، ولأن التكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الـكبر الامتناع من قبول الحق ، ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال ( إنه لا يحب المتكبرين ) وقال تعالى ( فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ) وقال تعالى ( كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ) وقال صلى الله عليه وسلم عن الله « العظمة إزارى والـكبرياء ردائى فمن نازعنى واحدة منهما قذفته فى نار جهنم » ونبه تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال ( ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ) وأقبح كبر بين الناس ما كان معه بخل ولذلك قال عليه الصلاة والسلام خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن الـكبر والبخل ، واستحسن قول الشاعر :

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما    نفس الملوك وأخلاق المماليك

ومن تـكبر لرياسة نالها دل على دناءة عنصره ، ومن تفكر فى ذاته فعرف

تعجبك من مبدأه ومنتهاة وأواسطه عرف بعضه ، وروض كبره ، وقد نبه الله على ذلك بقوله (فلينظر الإنسان مم خلق ) الآية وقال تعالى ( قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه ) قال تعالى ( إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ) وإلى هذا المعنى نظر مطرف بن عبدالله الشخير لما قال ليزيد بن المهلب .

كيف يزهى من ضجيعه　　　أبد الدهر رجيعه ؟ !

وقال :

ياقريب العهد بالخـــــــرج لم لا تتواضع ؟ !

فمن كان تكبره لقنيته فليعلم أن ذلك ظل زائل وعارية مستردة ، والاستطالة إظهاراً لطول فمن أظهر ذلك من غير طول فمنسلخ من الإنسانية ، ومن أظهره مع طوله فقد ضيع الطول ، والصلف يقال اعتبار الميل فى عنقه والصعر الميل فى خده ولذلك استعمل فيه لى الرأس نحو قوله تعالى ( لوّوا رؤسهم ) والبـاء(١) استقصاء النفس بالترفع عن الانقياد للواجب والخيلاء أن يظن فى نفسه ماليس فيها من قولهم خلت ، ولتصور هذا المعنى ، قال حكيم إعجاب المرء بنفسه أن يظن بها ماليس فيها مع ضعف قوة فيظهر فرحه والزهو الاستخفاف من الفرح بنفسه ، وأما العزة فالترفع بالنفس عما يلحقه غضاضة ، وأصلها من العزاز وهو الأرض الصلبة فالمتعزز من حصوله فى عزاز لا يلحقه فيه غضاضة كالمتظلف، فى كونه فى ظلف من الأرض لا يلحقه مذلة ، والعزة منزلة شريفة وهى نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامها عن الضراعة للأعراض الدنيوية، كما أن الكبر نتيجة جهل الإنسان بقدر نفسه وإنزالها فوق منزلتها ، وكثيرا مايتصور أحدهما بصورة الآخر كتصور التواضع والتضرع والتذلل بصورة واحدة وتصور الإسراف بصورة الجود والبخل بصورة

---

(١) باء وباى نفسه ؛ فخربها ورفعها .

الحزم ، ولهذا قال الحسن رضى الله تعالى عنه لمن قال له ماأعظمك من نفسك فقال، لست بعظيم ولكنى عزيز ، قال الله تعالى ( ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه » ولما قلنا قالوا : التكبر على الأغنياء تواضع ، تنبيها على أن هذا التكبر عزة نفس ، ومن أجل أن هذا التكبر غير مذموم قال عز وجل ( ويتكبرون فى الأرض بغير الحق ) وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : من خضع لغنى فوضع نفسه عنده طمعا فيه ذهب ثلثا دينه وشطر مروءته .

## الباب الثامن

## الفخر

الفخر : هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان ، وذلك نهاية الحمق لمن نظر بعين عقله وانحسر عنه قناع جهله ، فأعراض الدنيا عارية مستردة لا يؤمن كل ساعة أن ترتجع ، فالمباهى بها مباه بغير ثراه ومبجح بما فى نظر سواه ، كالفاجرة تبجح بزيها ، بل هو دون من ذلك فقد قال بعض الحكماء لمثر يفتخر بثرائه ان افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة [1] له دونك وان افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لا فيك ، ولو تكلمت هذه الأشياء لقالت هذه محاسننا فمالك من الحسن ؟! وأيضا فالأعراض الدنيوية سحابة صيف عن قليل تقشع وظل زائل عن قليل يضمحل كما قال الشاعر :

إنما الدنيا كرؤيا فرحت     من رآها ساعة ثم انقضت

بل كما قال الله عز وجل ( إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ) [2] فإن افتخرت فافتخر بمعرفة غير خارجة عنك ، وإذا

---

(١) الفراهة : الحسن وفى الدواب السرعة فى السير .

(٢) باقى الآية وفيه الشاهد ( فأصبح هشيما تذروه الرياح )

الدنيا شيء فاذكر فناءك وبقاءه أو بقاءك وزواله أو فناءكما جميعاً ، فإذا رابك ماهولك فانظر إلى قرب خروجه من يدك وبعد رجوعه إليك وطول حسابك عليه إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ،وقد ذم الله تعالى الفخور بقوله ( والله لا يحب كل مختال فخور ) .

## الباب التاسع

### العجب

العجب : ظن الإنسان بنفسه إستحقاق منزلة هو غير مستحق لها ، ولهذا قال أعرابى لرجل معجب بنفسه يسرنى أن أكون عند الناس مثلك عند نفسك وأكون فى نفسى مثلك عند الناس ، فتمنى حقيقة ما يقدره المخاطب ، ورأى ذلك إنما يتم حسنه متى هو عرف عيوب نفسه . وقد قيل للحسن من شر الناس فقال من يرى أنه أفضلهم وقال بعضهم : الكاذب أبعد الناس من الفضل والمرائى أسوأ حالا من الكاذب لأنه يكذب بقوله وفعله ، والمعجب أسوأ حالا منهما فإنهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفاءه،والمعجب أعمى عن مساوى نفسه فيراها محاسن ويبديها . قالوا والمرائى والكاذب قد ينتفع بهما كملاح خاف ركابه الغرق من مكان فى البحر فيؤديهم ذلك إلى العطب ، وقد يحمد رأى الرئيس إذا قصد أن يقتدى به فى فعل الخير ، والمعجب لاحظ له فى ذلك بوجه ، لإنك إذا وعظت المرائى والكاذب فنفسهما تصدقك وتبكتهما لمعرفتها بنقصهما ، والمعجب لجهله بنفسه يظنك فى وعظه ملغياً فلا ينتفع بمقالك ، وإياه قصد تعالى بقوله ( أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ) ثم قال تعالى ( فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ) تنبيهاً على أنهم لا يعقلون لإعجابهم وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » يقول إبليس إذا ظفرت من ابن آدم

بثلاث لا أطالبه بغيرها إذا أعجب بنفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه ، وكما أن المعجب بفرسه وإن كان رديئاً لا يروم أن يستبدل به غيره، كذلك المعجب بنفسه لا يريد بحاله — وإن كانت رديئة — بدلا ، وأصل الإعجاب من حب الإنسان نفسه وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « حبك الشىء يعمى ويصم » ومن عمى وصم تعذرت عليه معرفة عيوبه ، فيجب علينا أن نجعل على أنفسنا عيوناً . تعرفنا عيوبنا بحق ، قال عمر رضى الله تعالى عنه : رحم الله امرءاً أهدى إلىّ عيوبى .ويجب على الإنسان إذا رأى من غيره سيئة أن يرجع على نفسه ، فإن رأى منها ذلك نزعها ولم يغفل عنها قال الشاعر :

فمن جهلت نفسُه قدَره      رأى غيره منه مالا يرى

والتيه : قريب من العجب لكن العجب يصدق نفسه فيما يظن بها وهما والتياه يصدقها قطعاً كأنه متحير فى تيه .

## الباب العاشر

## أنواع اللذات وتفصيلها

اللذة : إدراك المشتهى ، والشهوة إنبعاث النفس لنيل ما تتشوفه وهى ثلاث بحسب القوى الثلاث : فبحسب المعينات الثلاث لذة عقلية ، وهى التى يختص الإنسان بها كلذة العلم والحكمة ، ولذة بدنية يشارك فيها جميع الحيوانات الإنسان كلذة المأكل والمشرب والمنكح ، ولذة يشارك فيها بعض الحيوان الإنسان كلذة الرياسة والغلبة ، وأشرفها وأقلها وجودا اللذة العقلية ، فشرفها أنها لا تمل وتبذل بها ، لكن لا يعرفها إلا من تخصص بها ، فالحكمة لا يعرفها إلا الحكيم وأدنى اللذات منزلة وأكثرها وجوداً اللذة البدنية فكل إنسان يتشوفها، وكل حيوان ، لكنها تمل تارة وتراد تارة ، وهى من وجوه مداواة من آلام ،ومن وجوه هى آلام ، وعلى

هذا قال الحسن فى وصف الإنسان : صريع جوع وقتيل شبع ، وجميع اللذات تنقسم عشرة أقسام: مأكل ومشرب ومنكح وملبس ومشم ومسمع ومبصر ومركب وخادم ومرفق من الآلات وما أشبهها ، وقد جعل ذلك سبعة ، وأدخل المركب والمرفق والخادم من جملة المبصرات ، وعلى ذلك ما روى أن أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه قال لعمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه ، وقد رآه يتنفس ، علام تنفسك ياعمار ؟! إن كان على الآخرة فقد ربحت تجارتك ، وإن كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك فإنى وجدت لذاتها سبعا : المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات ، فأما المأكولات فأفضلها العسل وهو من ذباب ، وأما المشروبات فأفضلها الماء وهو مباح أهون موجود وأعز مفقود ، وأما المنكوحات فبال فى مبال ، وحسبك أن المرأة تزين بأخس شىء وتراد بأقبح شىء منها ، وأما الملبوسات فأفضلها الديباج وهو نسج دود ، وأما المشمومات فأفضلها المسك وهو دم فأرة ، وأما المسموعات فريح هابة فى الهواء ، وأما المبصرات فخيالات صائرة إلى الفناء ، وقد ذكر الله عز وجل أصل ذلك فى قوله (زين للناس حب الشهوات(١)) والمشار إليه بحرث الدنيا هذه الأشياء السبعة على ما ذكر أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه ، والعشرة على ما ذكر غيره ، وكلا القولين فى التحصيل واحد، والمراد بالنساء اقتناهن والاستكثار منهن ، والبنين الذكر من الأولاد والحفدة والخدم ، وبالأنعام الأزواج الثمانية(٢) وبالخيل المسومة ، النائمة منها والمستعدة ، واعلم أن التى هى ضرورية للإنسان من هذه اللذات ولا قوام له إلا بها ما هو مشترك بينه وبين جنسه من الحيوان المأكل والمشرب يجمعهما اسم

---

(١) وبقية الآية ( . . . من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، . . ) .

(٢) المراد بالأزواج الثمانية الأصناف الأربعة من الذكور والأناث فى قوله تعالى « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين » .

الغذاء والمنكح، فبالغذاء بقاء الأشباح، بالنكاح بقاء الأنواع، ولذلك صارت الحاجة إليهما ضرورية وصارتنا ولها لابد للناس منه، وسائر الذات مخصوص بها الإنسان وليس بضروري له ويتناوله بفكرة، وتأنف الملوك من هذه الملاذ إلا اثنتين السماع لكونه لذة روحانية، والثناء لكونه دالا على الهمة الرفيعة، ومتى كانت الشهوة متناهية عقلية كانت أم بدنية قيل لها الحرص، والحريص قد يكون محموداً، ولذلك قال تعالى ( حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ) ومتى كانت الشهوة للقنيات قيل لها الشره، سواء كان مالا أو نكاحاً، فمتى كانت للطعام قيل لها النهم، ومتى كانت للنكاح قيل لها الشبق، وثلاثتها أعنى الشره والنهم والشبق مذمومة، وماروى من قوله مهومان لا يشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم، فالنهم بالعلم استعارة وهو أن يحمل على نفسه ما تقصر قواه عنه فينبت [1] وقد قال صلى الله عليه وسلم إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

## الباب الحادى عشر

## فيما يحسن تناوله من المطعم وفيما يقبح منه

الغذاء ضربان : أحدهما ما لا يستغنى عنه فى قوام البدن كالطعام الذى به يتغذى والماء الذى به يروى، والإنسان إذا تناول من ذلك مقدار مايمكن التبلغ بأقل منه على مايجب وكما يحب معذور بل مشكور ومأجور، وعلى هذا ماروى : عندأ كل الصالحين تنزل الرحمة، وحقه أن يتناوله تناول مضطر عالم بقذارته ويرى أن إدخاله نفسه كدخول المستراح [2] ويتحقق أن نسبة الإنسان إلى الفواكه والثمار نسبة الجعل [3] إلى الروث، فلو نطق الشجر لقال لك أنت تأكل فضالتى كما يأكل الجعل فضالتك، والخنزير إذا استطاب لقاطة الإنسان فما هو إلا كاستطابتنا لقاطة

---

(١) أنبت : انقطع عن أن يصل إلى حاجته .
(٢) دورة المياه .
(٣) الجعل : نوع من الحشرات .

الشجر ، وبهذا يعلم أن شرف المطعم والمشرب بالإضافة لا بالإطلاق فألق أيها الإنسان عن مناكبك الدثار وحل البصيرة واستعمل الاعتبار تجد صدق ماقلت ، ومن تناوله من الطعام أكثر من ذلك كره له طباً وشرعاً أماطباً :

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أوالشراب

وقد قال صلى الله عليه وسلم « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعود كل بدن ما اعتاد » وقال ابن زكريا المتطبب ماترك النبي صلى الله عليه وسلم من الطب شيئاً إلا وأتى به فى هذه الكلمات الثلاث ، وأما شرعاً فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما من وعاء أبغض إلى الله من بطن ملئ من حلال » وذلك أن امتلاء البطن مقوم للشهوة ، وتقومة الشهوة داعية الهوى ، والهوى أعظم جند الشيطان ، ومن آثر هواه انتشر فى بدنه وحلى فى كل عضو منه خرق بقدر وسعه له فكثر جنود الشيطان ، والشيطان إذا تسلط على الإنسان سباه من ربه وصرفه عن بابه . وقيل لحكيم مابالك مع كبرك لا تتفقد بدنك وقد انهد فقال لأنه سريع المرح فاحش الأثر ، فأخاف أن يجمح بى فيورطنى ، ولأن أحمله على الشدائد أحب إلى من أن يحملنى على الفواحش .

والضرب الثانى من المطعم ما يستغنى عنه ، ولو توهمناه مفقودا لم يختل بافتقاده البدن ، وأعظمها ضرراً المسكر فنفعه ليس بضرورى ( إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ) وقيل حيث الشراب واللهو لا تسكن الحكمة والعفة ، فإن قيل فقد قال الله تعالى ( قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيباب من الرزق ) فلم يخص من الحلال قدراً دون قدر وجنساً دون جنس ، قيل الطيب التام هو الذى جمع بين اللذة والنفع والفضيلة ، وذلك هو القدر المتبلغ به على ما يجب وكما يجب ، ألا ترى كيف ذم من لم يكن ذلك قصده فقال تعالى ( ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل ) وقال تعالى ( الذين

يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ) ومن الدلالة على خسة كثرة الأكل ادعاء العامة الاستغناء بالقليل وقلة وجود المفتخر بكثرة الأكل ، وقيل : من همته ما يدخل بطنه فقيمته مايخرج منها ، وقد استحسن قول الشاعر :

فإنك مهما تعط بطنك سؤله ... وفرجك نالا غاية الذم أجمعا

وقال صلى الله عليه وسلم : « حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن أبيت فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس » وقال عليه الصلاة والسلام « المؤمن يأكل فى معاء (١) واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » فنبه من الخبرين أنه لا يستحب للإنسان إلا الأكل فى ثلث بطنه وهو ماذكره من اللقيات وذلك دون عشر لقيمات ، لأن الجمع بالألف والتاء فيما دون العشر ، ثم رخص لمن يغلب عليه النهم أن يبلغ إلى ثلث بطنه ، فحصل من ذلك أن يكون أكل المؤمن فى اليوم بحسب شبع بطنه ثلثه .

## الباب الثانى عشر

### فيما يحسن من المنكح وما يقبح منه

قد تقدم أن النكاح ضرورى فى حفظ النسل وبقاء النوع ، كما أن الغذاء ضرورى فى حفظ الشخص ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » وقال « خير النساء الودود الولود » وقال : « سوداء ولود خير من حسناء عقيم » ولقصد النسل حظر إتيان النساء فى محاشها (٢) وعلى هذا نبه قوله عز وجل ( نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ) فنبه على أنه لايجوز إتيانها إلا فى المحرث (٣) وكره العزل (٤) توكيدا للمقصود من

---

(١) ويروى فى معى واحد .    (٢) فى أدبارهن .
(٣) فى الطريق الذى يأتى منه الولد .
(٤) الإنزال خارج الفرج وله أحكام فى الشريعة الإسلامية تطلب من كتب الفقه .

الجماع ، وعلى ذلك دل قوله عز وجل ( وابتغوا ما كتب الله لكم ) وتحرى النكاح على ضربين : أحدهما على الوجه الذى سنه الشرع وذلك إما محمود وهو أن يتعاطاه قاصدا به النسل أومزيلا على ما يجب لوجه أو مسكنا لنفسه ، فالماء إذا اجتمع فى مقره يدعو صاحبه إلى ماهو فى الشرع محرم أو مكروه طبآ ، إن لم يكن قد كره شرعا ، وذلك أن يتعاطاه المرء فضلا عما تقدم ذكره فإنه ينفذ العمر و يستنفذ القوى ، ويوسع أوعية المنى ، ويجلب إليها دما كثيرا ويزيده شهوته وأعظم فائدة فيه أن يلحق صاحبه بأفق البهائم من الجاموس والثيران ونحوها مما يوصف بالشبق . والضرب الثانى : هو أن يكون على غير الوجه المشروع وذلك ضربان أحدهما تعاطيه فى الحرث ولكن لاعلى الوجه الذى يجب وكما يجب كالزنا ، وقد عظم الله عز وجل أمره فقال : ( الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ) ومرة قرنه بالشرك وقتل النفس المحرمة فقال عز وجل ( والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ) [١] وسمى ذلك سفاحا من حيث إن المجتمعين عليه لا غرض لهما سوى سفح الماء الشهوة كمن ضيع مالا فى غير حرثه . والثانى تعاطيه فى غير الحرث كاللواطة وهى أعظم من الزنا ، لأن الزنا وضع البذر فى الحرث على غير الوجه المأمور به ، فهو كمن يزرع فى أرض غيره أو على غير الوجه الذى يجوز أن يزرع فيها ، وفى اللواطة مع ذلك تضييع البذر فمتعاطيها ممن قال عز وجل فيه (ويهلك الحرث والنسل ) ولهذا وصف الله تعالى قوم لوط بالإسراف فقال ( أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ) وأما العشق الشهوى فحمق وجهل بما وضع لأجله الجماع وتجاوز حد البهائم فى عدم ملكه النفس وذم الهوى ، لأن المتعشق لم يرض بإرادة لذة الباه التى هى من أسمج الشهوات حتى أرادها من موضع واحد ، فازداد بذلك عبودية وذلة على ذلة ، والبهيمة أحسن حالا منه لأنها إذا أسقطت

---

(١) وباقى الآية « .. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا» .

الأذى عن نفسها بالسفاد (١) سكنت فصارت إلى الراحة، وهو لم يرض بذلك حتى استعان بالعقل فى خدمة الشهوة واستحلائها، وإنما أعطاه العقل ليقمع به الشهوة القبيحة لا ليجعله خادما لها وساعيا فى حقها، وتعاطى العشق حال كل جاهل فارغ، سيما إذا نظر فى أحوال العشاق وجالسهم، وربما يؤدى الحال العشاق إلى الرق والذبول بل إلى الموت قال:

لو فكر العاشق فى منتهى　　　معشوقة قصر عن عشقه

ومن أراد شقوته فهو كمن يثير بهائم عارية وسباعا ضارية، ثم يلتمس دفاعها والخلاص منها، وكفى بما يهتاج من باعث الطبيعة عن إثارتك بالفكرة والروّية فمن أعان الطبيعة على ذلك كان كما قيل:

كلما ركب الزمان قناة　　　ركب المرء فى القناة سنانا(٢)

وقال حكيم لتلميذ له هوى جارية هل تشك فى أنك تفارقها يوما قال نعم قال فاجعل ذلك المرارة المتجرعة فى ذلك اليوم فى يومك هذا وارتح مابينهما من هول اليوم المنتظر وصعوبة ذلك بعد الاستحكام وانضمام الألفة إليه، وقال بعض الحكماء ما العشق فقال جنون لا يؤجر صاحبه عليه، وسئل آخر عنه فقال مرض نفس فارغة لاهمة لها، وقال آخر هو اختيار صادف نفسا فارغة. فأشاروا كلهم إلى معنى واحد.

## الباب الثالث عشر

### العفـــة

العفة لا تتعلق إلا بالقوة الشهوية لا بالملاذ الحيوانية، وهى المتعلقة بالفارين: البطن والفرج دون الألوان الحسنة والألحان الطيبة والأشكال المنتظمة. فإن قيل

---

(١) السفاد نزو الذكر على الأنثى والفعل منه سفد بكسر الفاء وبفتحها لغة حكاها أبو عبيدة. يقال ذلك فى التيس والبعير والثور والسباع والطير.

(٢) القناة: الرمح. والسنان نصل الرمح.

فاستطابة الرائحة قد تكون للبهائم ألا ترى أن الذئب يستطيب ريح الغنم ، والكلب يستطيب ريح الأرنب ، قيل استطابتها لذلك استطابة للأكل ، والذى قلناه من الرائحة هو ما يستطاب لذاته لا لأجل غيره وما هو لأجل أحد الغارين فحكمه حكمهما ، كاستطابة الإنسان ريح السكباج (١) . فثبت أن العفة هى ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية : وهى الحالة المتوسطة بين إفراط هو الشره وبين تفريط هو جمود الشهوة ، وهى أس الفضائل من القناعة والعفة والزهد ، وغنى النفس والسخاء ، وعدمها يغطى على جميع المحاسن ويعرى من لبوس المحامد ، ومن اتسم بسمة العفة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل ، وسهلت له سبيل الوصول إلى المحاسن ، وأسها يتعلق بضبط القلب عن الشهوات البدنية ، وعن اعتقاد ما يكون جالباً للبغى والعدوان ، وتمامها يتعلق بحفظ الجوارح ، فمن عدم عفة القلب والعقل يكون منه التمنى وسوء الظن اللذان هما أس كل رذيلة ، لأن من تمنى ما فى يد غيره حسده ، فإذا حسده عاداه ، وإذا عاداه نازعه ، ومن نازعه ربما قتله . ومن أساء الظن عادى وبغى وتعدى ، ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عنهما جميعاً فقال ( ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ) وقال ( يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ) فأمر فيهما بقلع أصل شجرتين يتفرع عنهما جل الرذائل . ولا يكون الإنسان تام العفة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر ، فمن عدمها فى اللسان السخرية والتجسس والغيبة والهمز والنميمة والتنابز بالألقاب ، ومن عدمها فى البصر مده العين إلى المحارم وزينة الحياة الدنيا المولدة للشهوات الرديئة ، ومن عدمها فى السمع الإصغاء إلى المسموعات القبيحة وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبها فى شىء مما يخص كل واحد منها إلا فيما يسوغ فيه العقل والشرع دون الشهوة والهوى . واعلم أنه لا يكون المتعفف عفيفاً إلا بشرائط وهى أن لا يكون تعففه عن الشىء انتظاراً لأكثر منه

---

(١) السكباج : مرق يتخذ من اللحم والخل .

أو لأنه لا يوافقه أو لجمود شهوته أو لاستشعار خوف من عاقبته أو لأنه غير عارف لقصوره، فإن ذلك كله غير عفة بل هو اصطياد أو تطبب أو مرض أو حزم أو عجز أو جهل، وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عن الغضب، والشهوة مغتالة مخادعة، والغضب مغالب، والمنحسر عن قتال المخادع أدرأ حالا من المنحسر عن المغالب. ولهذا قيل: عبد الشهوة أذل من عبد الرق، وأيضا فالشره قد يجهل عيبه فهو شبيه بمدينة لها ستة أبواب رديئة يتعاطونها وهم يعرفون قبحها، وليس من تعاطى قبيحاً يعرفه كمن تعاطاه وهو يظنه حسنا.

## الباب الرابع عشر

## القناعة والزهد

القناعة الرضا بما دون الكفاية، والزهد الاقتصار على الزهيد، أي القليل. وهما يتقاربان، لكن القناعة تقال اعتباراً برضى النفس، والزهد يقال اعتباراً بالمتناول لحظ النفس، وكل زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهد لا زهد، ولذلك قال بعض الصوفية: القناعة أول الزهد تنبيها على أن الإنسان محتاج أولا إلى قمع نفسه والتخصص بالقناعة ليسهل تعاطى الزهد، والقناعة هى الغنى فى الحقيقة، والناس كلهم فقراء من وجهين: أحدهما لافتقارهم إلى الله عزوجل كما قال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) والثانى لكثرة حاجاتهم فأغناهم أقلهم حاجة، فمن سد مفاقره بالمقتنيات فما فى انسدادها طمع، فهو كمن يرقع الخرق بالخرق، ويسد الفقر بالفقر، ومن سدها بالاستغناء عنها بقدر وسعه، والاقتصار على ضرورياته، فهو الغنى، والمقرب إلى الله تعالى، كما أشار تعالى إليه فيما حكى عن طالوت (إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم) ولأن الغنى هو عدم الحاجة، فأغناهم أقلهم حاجة، ولذلك كان الله سبحانه أغنى الأغنياء لأنه لا حاجة به إلى شىء، وعلى هذا نبه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله «ليس الغنى من كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس» ومن أبيات الحكمة:

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة فإن زاد شيئاً أعاد ذاك الغنى فقرا

والمخير بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بها ، كالمخير بين أن يكون مالكا أو مملوكا وقويا أو ضعيفاً ومعافى أو مبتلى، ميتاً أوحيا ، فمتى اختار الاستغناء بها فقد اختار أن يكون مملوكا وضعيفاًوميتاً ومبتلى ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش[١] » وقيل لحكيم لم لا تغتم ؟ فقال لأنى لم أجد ما يغمنى . واعلم أن الزهد ليس من ترك المكاسب فى شىء كما توهمه قوم أفرطوا حتى قربوا من مذهب المانوية والبراهمة والرهابنة . فإن ذلك يؤدى إلى خراب العالم ومضادة الله عز وجل فيما قدر ودبر وقد تقدم ، والزهد من وجه صبر ومن وجه جود ، والجود ضربان جود بما فى يدك متبرعا وجود عما فى يد غيرك متورعا وذلك أشرفهما ، ولا يحصل الزهد فى الحقيقة إلا لمن يعرف الدنيا ما هى ويعرف عيوبها وآفاتها ، ويتحقق ما يستغنى عنها ، ويعرف الآخرة وافتقاره إليها ، ولأجل أنه لا بد فى ذلك من العلم قال تعالى ( قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ) ولأن الزاهد فى الدنيا راغب فى الآخرة فهو يبيعها بها ثم قال تعالى ( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ) ومحال أن يبيع كيس عينا بأثر إلا إذا عرفها عارف وعرف فضل المبتاع على المبيع ، وقيل لبعض الزهاد ما أزهدك وأصبرك فقال : أما زهدى فرغبة فيما هو أعظم مما أنا فيه ، وأما صبرى فلجزعى من النار .

## الباب الخامس عشر

## الورع

الورع : أصله جبن وضعف وقد يستعمل فى كل واحد منهما لكن جعل فى

---

(١) أى إذ أصابته شوكة فلا وجد المنقاش الذى يخرجها به .

عرف الشرع لترك التسرع إلى تناول أعراض الدنيا ، وذلك على ثلاثة أضـرب : واجب وهو الإحجام عن المحارم ، وذلك للنـاس كافة ، وندب وهو الوقوف عن الشبهات وذلك للأواسط ، وفضيلة وهو الـكف عن كثير من المباحات والاقتصار على أقل الضرورات وذلك للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم «لا يكون العبد من الصالحين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس» وقال باعتبار المنزل الثانى لما قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم ما أيسـر الورع « إذا شككـت فى شىء فدعه » .

# الفصل الرابع

## فيما يتعلق بالقوى الغضبية

## الباب الأول

### ما يتبع من القوى الغضبية

الحمية قوة الغضب متى تحركت تحرك دم القلب فتولد منه ثلاثة أحوال ، وذلك لأنها إما تتحرك على من فوقه أو على من دونه أو نظيره ، فإن كان ذلك على من فوقه ممن يظن أنه لا سبيل له إلى الانتقام تولد منه انقباض الدم وذلك هو الجزع ، وإن كان على من دونه ممن يظن أن له سبيلا إلى الانتقام منه تولد منه انقباض الدم وتردده بين الانقباض والانبساط وذلك هو الحقد ، ولـكون الغضب والغم بالذات واحدا واختلافهما بالإضافة سـئل ابن عباس رضى الله تعالى عنه فقال : مخرجهما واحد واللفظ مختلف ، فمن نازع قادرا عليه أظهره غضبا ، ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنا ، ومنه قول الشاعر :

فحزن كل أخى حزن أخو الغضب

والانبساط دم القلب لحقد يحمى وجهه تارة ، وذلك إذا كثر واشتد غضبه كنار فى غار فيسود جوه ، ولانقباض دم الجزع عن ظاهر الجلد واجتماعه فى القلب

يصفر وجهه ، حتى ربما يهلك من ذلك ، ولتردد دم الحقد بين هذه الأحوال يحمر ويصفر ويسود ، والحرد هو الغضب ، لكن يستعمل إذا كان معه قصد المغضوب عليه ، ولذلك يقال حرد الأسد .

## الباب الثانى

## أنواع الصبر ومدحه

الصبر ضربان جسمى ونفسى ، فالجسمى هو تحمل المشاق بقدر القوة البدنية ونهايته المعلومة ، وأكثرها لذوى الجسوم الخشنة وليس ذلك لفضيلة تامة ، قال :

والصبر بالأرواح يعرف فضله　　　صبر الملوك وليس بالأجسام

وذلك فى الفعل كالمشى ودفع الحجر ، وفى الانفعال كالصبر على المرض واحتمال الصرف والقطع والثانى نفسى وبه تعلق الفضيلة وذلك ضربان صبر عن تناول مشتهى ويقال له العفة ، وصبر على تحمل مكروه أو محبوب وذلك تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقعه ، فإذا كان ذلك فى نزول مصيبة فإنه مما استعد به اسم الصبر ، ويضاده الجزع والهلع والحزن ، وإن كان فى احتمال غنى فقد سمى ضبط النفس ويضاده الدقع[1] والبطر ، وإن كان فى محاربة سمى شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان فى إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمى حلما ، ويضاده التذمر ، وإن كان فى نائبة مضجرة سمى سعة الصدر ، ويضاده ضيق الصدر والضجر والتبرم ، وإن كان فى إمساك كلام فى الضمير سمى كتمان السر ، ويضاده الإفشاء ، وإن كان فى الإمساك عن فضولات العيش سمى قناعة وزهدا ، وهذا يضاده الحرص والشره ، ولكون الصبر عاما قال عز وجل : ( والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ) فذكر أنهم يصبرون فى البأساء أى الفقر وفى الضراء أى المصيبة وحين البأس أى المحاربة . قال بعضهم بل هما من الأسماء المترادفة على معنى واحد ، إن قيل مامعنى قول النبى صلى الله عليه

---

(١) الدقع : الصبر على معيشة الكفاف . .

وسلم «الصبر نصف الإيمان» قيل لما كان جميع المحامد ضربين : ترك الشر ويعبر عنه بالصبر ، وفعل الخير ويعبر عنه بالشكر ، صار الصبر الذى هو ترك الشر نصف الإيمان .

## الباب الثالث

### الشجاعة

الشجاعة إن اعتبرت وهى من النفس ، فصرامة القلب على الأهوال وربط الجأش فى المخاوف وإن اعتبرت بالفعل فالإقدام على موضع الفرصة ، وهى فضيلة بين التهور والجبن ، وتولدها من الغضب والفزع إذا كانا متوسطين ، فإن الغضب قد يكون مفرطا كمن يحتدم مريعا من أشياء صغيرة ، وقد يكون مفرطا كمن لا يغضب على حرمة وشتم أبيه وأمه ، وقد يكون متوسطا على ما يجب فى وقت ما يجب وبقدر ما يجب ، وكذلك الفزع يكون مفرطا فيتولد منه الجبن المالع ، ومفرطا فيتولد منه الوقاحة والغمارة ، كمن لا يفزع من شتم أبيه وتضييع حرمه وأصدقائه ، وقد يكون متوسطا كما يجب وبقدر ما يجب ولكونهما أعنى الغضب والفزع على حالتين محمودة ومذمومة صارا يحمدان تارة ويذمان تارة ، فإن الغضب فى نحو قوله عز وجل (غضب الله عليهم) والفزع فى نحو قول الشاعر :

غضبت لظلمه . . . الخ

محمودان ، والتهور هو الثبات المذموم فى الأمور المعطبة وأنواع الشجاعة خمسة سبعية كمن أقدم لثوران غضب وتطلب غلبة ، وبهيمية كمن حارب توصلا إلى مأكل أو منكح ، وتجريبية كمن حارب مرارا فظفر فجعل ذلك أصلا يبنى عليه ، وجهادية كمن يحارب ذبا عن الدين ، وحكمية وهى ما تكون فى كل ذلك عن فكر وتمييز وهيئة محمودة بقدر ما يجب على ما يجب ، ألا ترى كيف يحمد من أقدم على كافر غضبا لدين الله أو طمعاً فى ثوابه وخوفا من عقابه أو اعتمادا على ما رأى من إنجاز الله

تعالى وعده فى نصرة أوليائه ، فإن كل ذلك محمود ، وإن كان محض الشجاعة أن لا يقصد بالإقدام حوز ثواب ودفع عقاب فقد قيل من عبدالله بعوض فهو لئيم . والفرق بين المقدم فى الحرب لمحض الحكمة وإخلاص الدين وبين المقدم نغير ذلك أن المقدم لغير الحكمة والإخلاص يخاف الموت أكثر مما يخاف المذمة والمقدم للحكمة والإخلاص بالضد من ذلك ، فإنه يختار الموت الحميد على الحياة الذميمة ، ولذلك قال على رضى الله تعالى عنه : أيها الناس إن لم تقتلوا تموتوا والذى نفس ابن أبى طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على فراش ' ومن الشجاعة المحمودة مجاهدة الإنسان نفسه أو غيره ، وكل واحدة منهما ضربان : مجاهدة النفس بالقول ، وذلك بالتعلم ، وبالفعل ، وذلك بقمع الشهوة وتهذيب الحمية ، ومجاهدة العين بالقول وذلك بتعيين الحق وتعليمه ، وبالفعل وذلك مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب .

## الباب الرابع

### أسماء أنواع الفزع والجزع والفرق بينهما وما يحمد منهما ويذم

الفزع والجزع أخوان ، لكن الفزع ما يعترى الإنسان من الشىء الخفيف ، والجزع ما يعترى من الشىء المؤلم ، والفزع لفظ عام سواء كان عارضاً عن إمارة أو دلالة ، ومتى كان عن شىء يضر فهو الفرق والذعر ، ومتى كان الخوف محبوباً فهو الإشفاق ، ولهذا قال تعالى حكاية عن أهل الجنة ( إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ) والخوف توقع مكروه عن إمارة ، والخشية خوف يشوبه تعظيم المخشى مع المعرفة به ولذلك قال تعالى ( من خشى الرحمن بالغيب ) والوجل استشعار عن خاطر غير ظاهر ليس له أمان قال الله تعالى ( والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ) الآية والرهبة مع تحرز واضطراب لتضمن الاحتراز قال تعالى ( وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ) والهيبة وهبة جالبة للخضوع عن استشعار تعظيم ولذلك يستعمل فى كل محتشم قال الشاعر :

أهابك إجلالا وما بك قدرة علىّ ولكن ملء عين حبيبها(١)

وهذه الأشياء قد تذم باعتبار الأمور الدنيوية وتحمد باعتبار الأمور الأخروية قال الله تعالى ( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) وقال (وإياى فارهبون ) وقال ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) والخوف من الله تعالى ليس يشار به إلى ما يخطر فى البال من الرعب كاستشعار الإنسان الرعب من الأسد، وإنما يشار به إلى ما يقتضيه الخوف وهو الكف عن المعاصى ، ولذلك قيل لا تعدن خائفاً من لا يترك الذنوب . وقال تعالى ( إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ) أى لا تفعلوا ما يقتضيه الخوف منه وافعلوا ما يقتضيه خوفى ، إن قيل كيف مدح المؤمن بالحزن والخوف مع قوله ( ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) قيل أما الممدوح فهو مقتضاهما وذلك بإقامة العبادات ، وأما المنفيان عنهم فهما اللذان يكونان من الأشرار .

## الباب الخامس

## مداواة الغم وإزالة الخوف

حق الإنسان أن يعلم أن الدنيا جمة للمصائب ، ريقة المشارب ، تثمر للبرية أضعاف البلية ، فيها مع كل لقمة غصة ، ومع كل جرعة شرقة ، فهى عدوة ومحبوبة كما قال أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق !!

وكما روى عن الحسن أنه قال مامثلنا مع الدنيا إلا كما قال كُثَيِّر(٢) :

أسيئي بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقليـــة إن تقلت

---

(١) وبعده :

وما هجرتك النفس أنك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها

(٢) كثير هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن الخزاعى الشاعر الغزلى الشهير بمحبوبته عزة بنت أبى بصرة الضمرية توفى سنة ٧٢٣ .

فما أحد فيها إلا وهو فى كل حال غرض لأسهم : ثلثه سهم بلية وثلثه سهم رزية وثلثه سهم منية :

تناضله الآفات من كل جانب فتخطأه يوما ويوما تصيبه

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقد محبوب أو فوت مطلوب ، ولا يسلم منهما إنسان ، لأن الثبات والدوام معدومان فى عالم الكون والفساد ، فمن أحب أن يعيش هو وأهله وأحبابه فهو غير عاقل ، لأنه يريد أن يملك ما لا يُملك ويوجد له ما لا يوجد ، فحق المرء أن يخلى قلبه من اعتبار ما يرى من الارتجاع لودائعها من أربابها وحلول توادعها بأصحابها ، وما أحسن قول ابن الرومى :

ألم تر رزء الدهر من قبل كونه كفاحا إذا فكرت فى الخلوات
فمالك كالمرمى من نائل له بنبل أتته غير مرتقبات
فإن قلت مكروه أتى فجأة به فما فوجئت نفس مع الخطرات
ولا عوقبت نفس بسلوى وقدرأت عظات أتتها ثم بعد عظات
إذا بعثت أشياء قد كان مثلها قديما فلا تعتدها بغتات

ثم من حقه أن يقلل من اقتناء ما يورثه الحزن ، فقد قيل لحكيم لم لا تغتم فقال لأنى لم أقتن ما يغمنى فقده ، فقد أخذه من الشاعر حيث قال :

فمن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقيل لحكيم هل للإنسان أن يعيش آمنا قال نعم إذا احترس من الخطيئة وقنع بحلاله ولم يحزن لما هو واقع به لا محالة ، واعلم أن الجزع على ما فات لا يلم ما يشعث ولا يبرم ما انتكث كما قال :

وهل جزع أحد علىّ فأجزعا

فأما غمه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه إما فى شىء ممتنع كونه أو واجب كونه أو ممكن ، فإنه كان على ماهو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا

كان من الواجب كونه كالموت الذى هو حتم فى رقاب العباد ، وإن كان ممكنا كونه فإن كان من الممكن الذى لا سبيل إلى دفاعه كإمكان الموت قبل الهرم فالحزن له جهل واستجلاب غم إلى غم ، وإن كان من الممكن الذى يصح دفعه فالوجه أن يحتال إلى دفاعه بفعل غير مشوب بحزن ، فإن دفعه وإلا تلقاه بصبر ، وليتحقق قوله عز وجل ( ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم ) فمن علم أن ما جرى فى حكمه وسبق فى علمه لا سبيل إلا أن لا يكون هانت عليه النوب واعلم أن الذى يغر الناس حسن ظنهم باغترار الآفات واغترارهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات ، ولو تأملوها لتحققوا أنها كما قال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه ما قال الناس لقوم طوبى لكم إلا وقد خبأ الدهر لهم يوم سوء . شعر :

إن الليالى لم تحسن إلى أحد إلا أساءت إليه بعد إحسان

وأما سبب الاغتمام بالموت ، فلا ينفك من أربعة أوجه : إما لشهوة بطنه وفرجه أن تفوت ، وإما على ما يخلفه من ماله ، وإما على جهله بماله ، وإما خوفا مما قدمه من عصيانه . فإن كان ذلك لخوفه على شهوة بطنه وفرجه أن تفوت فليعلم أن ذلك كشتة داء ايقابله بداء مثله ، فإن الإنسان لا يستلذ بالطعام حتى يجوع ، والجوع داء مهروب منه . فمثل من يحب الجوع ليستطيب بعده الأكل كمن يستطيب القعود فى الشمس لينااله الحر ثم يستطيب القعود فى الظل فمحبة ذلك رقاعة لا تحمد ولا تعد ، وإن كان ذلك على ما يخلفه من ماله فذلك لجهله بخساسة الأعراض الدنيوية وكونها تجمع كل بلية ، وبنفاسة الأملاك الحقيقية التى وعد المتقون بها ، وإن كان لجهله بماله فاعدم مداواته العلم والمعرفة الحقيقية التى تريه حال ما للإنسان بعد الموت ، كما قال حارثة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وإلى أهل النار يتعاوون فيها . وإن كان خوفا لما قدمه من عصيانه فدواؤه للمبادرة بالتوبة وكفاه إن كان ذا بصيرة ما جعله الله له سبيلا من تدارك ما فرط منه ، وما وعد التائبون .

## الباب السادس

## أحوال الناس فى محبة الموت والاحتيال لقلة المبالاة به

الناس فى ذلك على ثلاثة أضرب : الأول حكيم يعلم أن الحياة تسترقه والموت يعتقه ، وأن الإنسان فى هذا العالم وإن طال فيه لبثه فهو لحظة برق لمعت فى آفاق السماء ثم عادت للاختفاء ، وأنه فى دنيــاه كمبعوث إلى ثغر يحوطه وبلد يسوسه ، يراعى ما استرعى ويسر بدعائه إذا دعى ولا يكاد يود خروجه منها إلا بقدر ما يفوته من خدمة ربه والازدياد من تقربه والإشفاق مما يقول ، ويقال له كما قال بعض الصالحين وقد رؤى منه جزع عند الموت فقال جزعى أن أسلك طريقاً لم أعهده وأقدم على رب لم أره ولم أدر ما أقول وما يقال لى . والناس رجل ألف هذا العالم وإن كرهه فسبيله سبيل من ألف بيتاً مظلما قذراً ولم ير غيره فهو يكره الخروج منه ، وإن كان قد كره دخوله فيه كما قال :

دخلنا كارهين لهــا فلمــا ألفناها خرجنا مكرهينا
وما حب البلاد بنا ولــكن أمرّ العيش فرقة من هوينا

وحق ما قيل لو رضى الناس بأرزاقهم رضاهم بأوطانهم لمــا شكا أحد فقره . فهذا متى خرج من دنياه واطلع على ما أعد للصالحين من ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر سر بخلاصه ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عمن استقر به القرار فى جنة النعيم حيث قالوا ( الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ) والثالث : رجل أعمى البصيرة متلطخ السريرة عما ارتــكبه من أنواع الجريمة رضى بالحياة الدنيا واطمأن بها ويئس من الآخرة كما يئس الــكفار من أصحاب القبور ، فإذا خرج منها إلى دار الخلود أضر ذلك به :

كما تضر رياح الورد بالجعل(١)

---

(١) الجعل حشرة تتضرر بالريح الطيبة .

فإذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالم العلى فى مصاحبة الملأ الأعلى ومنادمة أولى العلى فيعمى، كما قال تعالى ( ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى ) (١) ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » فإن من تربى فى هذا العالم بغذائه من العلم والعمل الصالح جدير بأن لا يشتاق إليه بعد خروجه منه وإن خرج كارهاً ، كما لا يشتاق إلى بطن أمه بعد الخروج منه ، ويدلك على أنه خرج من بطن أمه كارها : بكاؤه . قال بعض العلماء : أول ما يسأل الصبى عن غمه عند سقوطه لما يضغطه من مضيق خروجه ويصيبه من ألم الهوى فيتوجع ، والوجع يورثه الغم والغم يحمله على البكاء وقال إن للصبى كل ما يكون للحيوان غير التملق بالألم واللذة والجوع والعطش . وقال ابن الرومى :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منهـــا وإنها لأفسح مما كان فيـــه وأرغد

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما أحد إلا والموت خير له من الحياة ، لأن الله تعالى قال فى الأخيار « وما عند الله خير للأبرار » وقال فى الأشرار « إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً » وقيل : الصالح إذا مات استراح من الدنيا والطالح إذا مات استراحت منه الدنيا . قال بعض الصالحين : من قال لغيره صانك الله من نوب الأيام وصروف الزمان فإنه يدعو عليه بالموت ، لأن الإنسان لا ينجو من ذلك إلا بعد خروجه من دار الكون والفساد ، وقال بعض الصوفية : حق ملك الموت أن يحبه المسلم من بين الملائكة ، فإنه يفصل حياته الأبدية من حياته البدنية ، ولهذا أمرنا أن نقول فى دعائنا اللهم صل على جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . وإن جبريل وميكائيل سبب لإنبائنا من ذلك العالم بما فيه خلاصنا من دار الكون والفساد ، فإذاً حقه عظيم وشكره لازم ، وقد حكى أن قوماً من الأوائل كانوا يعظمون زحل وقالوا بأنه لا يعين على

---

(١) « .. وأضل سبيلا »

الحياة العرضية ، بل هو سبب إنقاذنا من الدنيا الدنية ، وقال بعض الأولياء فى مناجاته إلهى إن سألتك الحياة فى دار الممات فقد رغبت فى البعد عنك وزهدت فى القرب منك ، فقد قال نبيك وصفيك « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » وقال بعضهم إن كان فى قلة الحياة الدنيوية غنى ففى انقطاع الحاجة كلها الغنى الأكبر ، ولا انقطاع لها إلا بمفارقة الدنيا التى هى سبب فاقتنا والعبودية لغير الله تعالى ، وقبيح بالعاقل صحبة الفاقة والتخصص بعبودية غير رب العزة . والموت سبب نقص ذلك الإنسان . ومن رغب عن كماله فهو من الذين خسروا أنفسهم ، ومن كره الموت أخرج من الدنيا كارهاً فيكون كعبد آبق رد إلى مولاه مأسوراً ، وقيد إلى حضرته مقهوراً . وشتان بين عبد دعاه مولاه فأتاه طوعاً ، وعبد آبق أسر فأتى به قسراً . وحق العاقل أن يكثر من ذكر الموت ، فذكره للموت لا يقرب أجله ، ويفيده ثانى القناعة بما رزق . والمبادرة بالتوبة والنشاط فى العبادة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أكثروا ذكر هادم اللذات فإنه ما ذكره أحد وكان فى ضيق إلا وسعه عليه ولا فى سعة إلا ضيقها عليه » وقيل ذكر الموت يطرد فضول الأمل ويكف عرق المنى فيهون المصائب ويحول بين الإنسان والطغيان .

## الباب السابع
## السرور والفرح

السرور انشراح الصدر بلذة فيها طمأنينة الصدر عاجلا وآجلا ، وذلك فى الحقيقة لا يكون إلا إذا لم يخف زواله ، ولا يكون إلا فى القنيات الأخروية ، ولذلك قيل لا سرور فى الدنيا على الحقيقة . والفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة غير آجلة وذلك فى اللذات البدنية الدنيوية . ولهذا قال عز وجل ( لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ) والفرح يدعو إلى النشاط والنشاط إلى المرح والمرح إلى الأشر والأشر مقدمة البطر ، وأكثر ما يحدث ذلك فى الأحداث والصبيان بقدر ما يغلب

عليهم من الغفلة . وقد ذمه سبحانه وتعالى بقوله ( وفرحوا بالحياة الدنيا ) وقال ( إن الله لا يحب الفرحين ) وقال تعالى ( ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ) وقال تعالى ( كل حزب بما لديهم فرحون ) .

وقد يسمى الفرح سروراً والسرور فرحاً لكن على نظر من لا يعتبر الحقائق ويتصور أحدهما بصورة الآخر ، ولذلك قيل : من طلب السرور كان خارجاً منه لم ينله .

## الباب الثامن

## العـــــذر والتوبة

المذنب إذا عوتب أو خاف العتب لا ينفك من وجهين : إما أن يكون مصراً أو معتذراً فأما المصر فقد يستحسن فى بعض الأحوال التجافى عنه ، وقد سمع رجل حكيماً يقول : ذنب الإصرار أولى بالاعتفاء ، فقال صدق ليس فضل من عفا عن السهو القليل كفضل من عفا عن العمد الجليل ، وأما المعتذر فهو المظهر لما يمحو به الذنب ، وجميع المعاذير لا تنفك من ثلاثة أوجه : إما أن يقول لم أفعل أو يقول فعلت لأجل كذا فيبين ما يخرجه عن كونه ذنباً ، أو يقول فعلت ولا أعود فمن أنكر وأنبأ عن كذب ما نسب إليه فقد برئت ساحته ، وإن فعل وجحد فقد يعد التغابى كرماً وإياه قصد الشاعر بقوله :

تغابى وما بك من غفـــلة  لفرط الحياء وفضل الكرم !

ومن أقر فقد استوجب العفو لحسن ظنه بك ، قال بعض البلغاء تجاوز عن مذنب لم يسلك بالإقرار طريقاً حتى أخذ من رجائك رفيقاً . وإن قال فعلت ولا أعود فهذا هو التوبة ، والإنسان حقه أن يقتدى بالله فى قبولها ، وللتوبة شرائط فرضاً ونفلا ففرضها ترك الذنب مع عدم العود إليه ، ونفلها التأسف لما سلف من الذنب والاستغفار له وترك بعض المباحات مقابلة لما فات من العصيان .

واعلم أن المذنب التائب إذا تاب توبة نصوحاً فضيلة على من لم يذنب من ثلاثة أوجه الأول لأنه جرب العيوب والذنوب وعرف مداخل الشيطان على الإنسان فيكون أهدى إلى الاحتراز ، فقد قيل لحكيم : فلان لا يعرف الشر قال : ذاك أجدر أن يقع فيه . والثانى أن المذنب التائب محتشم قد غلب الخوف على قلبه فيأتى مولاه خزيانا متكسراً ، ومن لم يذنب ربما يعجب بنفسه ويدل بفعله ، وليس خدمة عبد عصى ملكا وخرج عليه خارجياً ثم عاد إليه وجلا فتجوفى عنه ، كخدمة مدل بطاعته . والثالث أن التائب حلب الدهر بشطريه خيره وشره وحلوه ومره فهو أرفق بالمذنبين وأوفق لهم وأصلح للرياسة ممن يظن أن الذنب خارج عن الطبيعة الإنسانية فيعجب بنفسه ويزرى بغيره .

## الباب التاسع

## الحلم والعفو

الحلم إمساك النفس عن هيجان الغضب ، والتحلم إمساكها عن قضاء الوطر منه إذا هاج ، ولما كان الحلم عن تأثير العقل وغيره منفك عنه صار يعبر به عن كل عقل ظهر فعلا ، كقوله عز وجل فى ذم الكفار على سبيل التعجب منهم : (أم تأمرهم أحلامهم بهذا ) ومتى استعمل الحلم فى البارىء تعالى فإنما يراد العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال يعرض له . ولن يتم حلم الإنسان إلا بإمساك الجوارح كلها : اليد عن البطش ، واللسان عن الفحش ، والعين عن فضولات النظر . وأقرب لفظ يستعمل فى ضد الحلم التذمر .

وأما العفو والصفح فهما صورتا الحلم ومخرجاه إلى الوجود ، فالعفو ترك المؤاخذة بالذنب ، والصفح ترك التثريب ، واشتقاقه من تجاوز الصفحة التى أثبت فيها ذنوبه . أى الإعراض بصفحة الوجه عن التلفت إلى ما كان منه ، وهو محمود إذا كان على الوجه الذى يجب ، فقد قال تعالى ( فاصفح الصفح الجميل ) فحض تنبيهاً على ما يحمل

منه ، وقد حث الله تعالى على ذلك بقوله ( والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ) فأمر بالحلم والعفو ، وقال تعالى ( وليعفوا وليصفحوا ) وقال تعالى ( فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ) وقال ( فمن عفا وأصلح فأجره على الله ) والعفو إنما يستحب فيما إذا كانت الإساءة مخصوصة بالعافى كمن أخذ ماله أو شتم عرضه ، فأما إذا كانت الإساءة عائدة بالضرر على الشرع أو على جماعة الناس فإنه إن كان فيها أدنى شبهة ، فللسلطان العفو لقوله صلى الله عليه وسلم : « ادرءوا الحدود بالشبهات » فإن لم تكن ذات شبهة فليس عفواً ، ولذلك قال الله تعالى فى الزنا ( ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ) وحق المعاقب أن لا يكون سبعاً فى انتقامه بل لا يعاقب حتى يزول سلطان غضبه لئلا يقدم على ما ليس بواجب ، ولذلك جرت سنة السلطان بحبس المجرم حتى ينظر فى جرمه ويعيد النظر فيه ، قال بعضهم ينبغى للسلطان أن يؤخر العقوبة حتى ينقضى سلطان غضبه ، ويعجل مكافأة المحسن ، ويستعمل الأناة فيما يحدث ؛ فتأخير العقوبة فيه إمكان العفو إن أحب ذلك ، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان مسارعة الأولياء إلى الطاعة . أتى الاسكندر بمذنب فصفح عنه فقال بعض جلسائه لو كنت إياك لقتلته ، فقال فإذ لم أكن أنا إياك ولا أنت إياى فكيف قتله ، وانتهى إلى بعض أصحابه فوجده يغتابه ، فقال بعض جلسائه لو أنهكته عقوبة فقال إذا أبسط عذراً ولساناً فى اغتيابى .

واعلم أن لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ، ولذة التشفى يلحقها ذم الندم ، والعقوبة ألأم حالات ذى القدرة ، وهى طرف من الجزع . ومن رضى أن لا يكون بينه وبين الظالم إلا ستر رقيق فلينتصف . وقد نبه الله تعالى على ذلك بلطيف من المقال فقال ( وجزاء سيئة سيئة مثلها ) فسمى مجازاة المسىء بإساءته إساءة وقال تعالى ( فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ) فسمى المجازى على الاعتداء معتدياً تنبيهاً على أنه قد كاد يكون إياه . والعقوبات بين الناس أقبحها ما كان فيما لم يظهر بالفعل فقد قال بعض الملوك : إنما نملك الأجساد دون الضمائر ونفحص عن الظواهر لا عن

السرائر ، ثم من سلم ظاهره احتمل جرائمه فقد يهفو المرء وآيته سليمة ، ويزل وطريقته مستقيمة .

## الباب العاشر

## ثوران الغضب وفضل كظمه

الغضب بمنزلة نار مايشتعل والناس يختلفون فيه فبعضهم كالحلفاء[١] سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضا ، بطيء الخمود ، بطيء الوقود ، وبعضهم ، سريع الوقود بطيء الخمود ، وبعضهم بعكس ذلك وهو أحمدهم مالم يكن مفضياً به إلى زوال حميته وفقدان غيرته. واختلافهم تارة يكون بحسب الأمزجة ، فمن كان طبعه حارا يابسا يكثر غضبه ، ومن يكون بخلافه يقل ، وتارة يكون باختلاف العادة فى النـاس من تعود السكون والهدوء وهو المعبر عنه بالذلول والهين واللين ، ومنهم من تعود الانزعاج والطيش فيحتد بأدنى ما يطرقه ككلب يسمع صوتاً فينبح قبل أن يعرف ما هو ، وأكثر الناس غضباً الصبيان والنساء ، وأكثرهم ضجرا الشيوخ ، وأجل النـاس شجاعة وأفضلهم مجاهدة وأعظمهم قوة من كظم الغيظ ، وعلى ذلك دل قوله عز وجل ( والـكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ) وقال عليه الصلاة والسلام وقدمر بقوم يرفعون حجراً فقال « لا أخبركم بأشدكم ، من ملك نفسه عند الغضب[٢] » واعلم أن نار الغضب متى كانت عتيقة تأججت واضطرمت واحتد منه غليان الدم فى القلب ، وامتلأت الشرايين والدماغ دخاناً مظلماً مضطرباً يسوء منه حال العقل ويضعف به فعله ، فكما أن الـكهف الضيق إذا ملىء حريقاً اختنق فيه اللهب والدخان وعلامته الأجيج فيصعب علاجه واطفاؤه ، ويصير كل مايدنو منه مادة لقوته ، وكذلك النفس إذا اشتعلت غضباً عميت عن الرشد وصُمّت عن الموعظة فتصير مواعظه

---

(١) نوع من المزروعات الجافة سريعة الاشتعال .

(٢) ويروى الحديث : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عندالغضب .

مادة لغضبه ، ولهذا حكى عن إبليس أنه قال متى أعجزنى ابن آدم فليس يعجزنى إذا غضب فإنه ينقاد لى فى كل ما أبتغيه ويعمل بما أريده وأبتغيه ، وقيل الغضب حزن ساعة ، وربما أدى إلى تلف وهو اختناق حرارة فى القلب ، وربما كان سبباً لأمراض صعبة مؤدية إلى التلف ، وأسباب العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاج والتيه والضيم والاستهزاء وطلب مافيه التنافس وشهوة الانتقام . وحق من اعترته غضبيته أن يتفكر ، فإن كان المغضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطته إذ هو ممكن من الانتقام منه على سكون الجأش ، فإن كان غضبه على من لاسبيل له فلا معنى لتعذيبه نفسه فى الوقت بل حقه أن يصبر حتى يتمكن منه ثم يفعل بالواجب ، وقال حكيم سد طرس الغضب قبل تلهب ناره فى لحمك ودمك فإنما يمكن إطفاؤها قبل انتشارها فأما إذا انتشرت فلا سبيل إلى إطفائها ، وقال سلطان لحكيم : كيف لى أن لا أغضب فقال بأن تكون كل وقت ذاكراً أنه يجب أن تطيع لا أن تطاع فقط وأن تخدم لا أن تخدم فقط ، وأن تحمل لا أن تحمل فقط ، وأن تتحقق بأن الله تعالى يراك دائما ، فإذا فعلت ذلك لم تغضب وإن غضبت غضبت قليلا .

## الباب الحادى عشر

## الغيرة والجوار

الغيرة ثوران الغضب حماية على إكرام الحرم وأكثر مايراعى فى الحرم والنساء ، وجعل الله سبحانه هذه القوة فى الإنسان سببا لصيانة الماء وحفظا للأنساب، ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها ، وقد يستعمل ذلك فى صيانة كل مايلزم الإنسان صيانته فى السياسات الثلاث التى هى سياسة الرجل نفسه وسياسة منزله وأهله وسياسة مدينته وضيعته، ولذلك قيل ليست الغيرة ذب الرجل عن امرأته ولكن ذبه عن كل مختص به . وقيل الغيرة الذب عن كل ضعيف، وتسمى كراهة النعمة عندمن لا يستحقها غيرة ، والغيرة وإن كانت قوة إنسانية فواجب كونها

فى كل جيل فقد كثرت فى العرب حتى إن من دخل دار أحدهم والتجأ إلى فنائه عدوا فعله حرمة وجوارا وذمارا بل أن تعلق ذلك بالوحشيات والهوام حتى كانوا يسمون بذلك : مجير الجراد ، ومجير الغزال ، ومجير الذئب . وسمى الغضب المقتضى للغيرة الحفيظة فقالوا أحفظنى فلان أى أغضبنى الغضب الذى أثار منى قوة الحفظ .

## الباب الثانى عشر

## الغبطة والمنافسة والحسد

الذى ينال الإنسان بسبب خير يصل إلى غيره على سبيل التمنى أن يكون له مثله هو الغبطة ، وإن كان فى ذلك سعى منه فى أن يبلغ هو مثله من ذلك الخير أو مافوقه فمنافسة وكلاهما محمود ، وإن كان مع ذلك يتمنى زوال مابصاحبه من غير استحقاق لزواله فحسد ، والحسد تمنى زوال نعمة مستحقة من غير أن يكون طالبا ذلك لنفسه ، ولذلك قيل الحاسد قد يرى زوال نعمتك نعمة عليه ، قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن يغبط والمنافق يحسد » وقال تعالى ( وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ) فحثنا على التنافس إذ هو الباعث لنا على طلب المحاسن وذلك كقوله تعالى ( سابقوا إلى مغفرة من ربكم ) وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا ينجو منها أحد : الظن والطيرة والحسد ، وسأخبركم بالمخرج من ذلك . إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض ولا تستن ، وإذا حسدت فلا تبغ » أى إذا أصابك غم بخير يناله غيرك فلا تبغ إزالته عنه ، واعلم أن الحسد من وجه غاية البخل لأن الحاسد يبخل بمال الله والبخيل بمال نفسه . ولذلك قيل الحاسد بخيل بما لا يملكه ، ومن وجه هو أظلم ظالم لأنه يظلم غيره فى إزالة حاله ويظلم ربه فيما قدره ، وقيل الحسد والحرص ركنا الذنوب ومنه نتج ذنب إبليس وآدم ، فإبليس حسد آدم فصار لعينا ، وآدم حرص على مانهى عنه فأخرج من الجنة فهما شجرتان تجتنى منهما سائر الرذائل ، فمن قطع أجتنابهما نجا . إن قيل ماوجه قول النبى صلى الله عليه وسلم « لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فجعله فى حق

ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها » قيل عنى بالحسد ههنا الغبطة وقد تسمى بالحقد من حيث إنهما الغم الذى ينال الإنسان من خير يناله غيره ولا يناله هو ، وعلى ذلك يقول الإنسان لولده لا تحسد فلانا فيما يتعلمه أى لا تتمن حاله . واعلم أن الحسد ضرب من الحماقة لأن اغتمامه بما يناله ذووه وأهل بلده يقتضى أنه ربما يغتم بما يناله أهل الصين والهند ، على أن الخير الذى يناله ذووه وأقاربه هو أنفع له مما يناله الأباعد .

## الفصل الخامس

### فى العدالة والظلم والمحبة والبغض

### الباب الأول

### ذكر العدالة وفضيلتها

العدالة لفظ يقتضى ذكر المساواة ولا يستعمل إلا باعتبار الإضافة ، وهى فى التعارف إذا اعتبرت بالقوة هيئة فى الإنسان يطلب بها المساواة ، وإذا اعتبرت بالفعل فهى القسط القائم على الاستواء ، وإذا وصف الله تعالى بالعدل فليس يراد به الهيئة وإنما يراد به أن أفعاله واقعة على نهاية الانتظام . والإنسان فى تحرى فعل العدالة يكون تام الفضيلة إذا حصل مع فعله هيئة متنزه لتعاطيه ، وقد يقع فعل العدالة من الإنسان ولا يكون ممدوحا به نحو أن يقسط مراءاة أو توصلا إلى نفع دنيوى أو خوف عقوبة السلطان ، والعدالة تارة يقال هى الفضائل كلها من حيث لا يخرج شىء من الفضائل عنها وتارة يقال هى أجمل الفضائل من حيث إن صاحبها يقدر أن يستعملها فى نفسه وفى غيره ، وهى ميزان الله المبرأ من كل زلة ، وبها يستتب أمر العالم ولذلك قال الله عز وجل ( الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ) وقال ( والسماء رفعها ووضع الميزان ) وعبر عن العدالة بالميزان إذ كان من أثرها ومن أظهر أفعالها الحاصلة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « بالعدل قامت السماء والأرض » أى لو كان شىء من موجودات العالم وأصولها زائداً على الآخر أو ناقصا عنه لم يكن منتظما

هذا النظام ومن فضله أن الجور الذى هو ضده لا يتسبب إلا به ، فلو أن لصوصا تشارطوا فيما بينهم شرطا فلم يراعوا العدالة فيه لم ينتظم أمرهم ، ومن فضلها أن كل نفس تتلذذ بسماعها وتتألم من ضدها ، ولذلك يستحسن الجائر عدل غيره إذا رآه أو سمع به . وقيل العدل إتحاف الله أى من حيث العدالة لاخوف عليه، ولحسن العدالة والمساواة تتألم النفس من كل ما كان مركبا فى العالم ليس له نظام فيكره العرج والعور ويتشاءم به . ولتحرى المساواة جعل الله أعضاء الإنسان الواقعة فى الأطراف زوجين اثنين وفى الأوساط واحداً ، وللاقتداء بذلك تحرى النقاشون بإزاء كل منقوش فى جانب منقوشا مثله فى الآخر لئلا تصير الصورة معوجة العدالة وسط أطرافها كلها جور ، فالجور الخروج من وسط بزيادة أو نقصان ، ولذلك صار الجور والخطأ بالإضافة إلى العدل والصواب من حيز مالانهاية له ، والعدل والصواب من المتناهى ، وإدراكهما صعب عسر ، ولصعوبة ذلك قال عليه أفضل الصلاة والسلام « استقيموا ولن تحصوا» وتمدح سبحانه وتعالى بقوله (وأحصى كل شىء عدداً) تنبيها على أنه المتحقق بالعدالة والصواب من كل شىء وقال بعض الصوفية رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت له يارسول الله : بلغنى أنك قلت «شيبتنى سورة هود وأخواتها » فما الذى شيبك منها . قال قوله تعالى ( فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ) ولما كانت طريق الوصول عسرة صار طالبها إذا تحراها بجهده وإن أخطأ فيها معذوراً بل مأجوراً ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من اجتهد فأخطأ فله أجر ومن اجتهد فأصاب فله أجران » .

## الباب الثانى

## أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه

العدل ضربان : عدل مطلق يقتضى العقل حسنه ولا يكون منسوخاً فى شىء من الأزمنة ولا يوصف بالجور فى حال ، وذلك جذب الإحسان إلى من أحسن إليك

وكف الأذية عمن كف أذاه عنك ، وعدل مقيد يعرف كونه عدلا بالشرع ويمكن أن يكون منسوخا فى بعض الأزمنة وذلك مقابلة السوء بمثله كأحوال القصاص وأرش الجنايات وأخذ مال المرتد ، وهذا النحو يصح أن يوصف على المجاز فى بعض الأحوال بالجور . ولذلك قال عز وجل ( وجزاء سيئة سيئة مثلها ) فسمى جزاء السيئة سيئة من حيث إنه لو لم يكن معتبراً بالسيئة المتقدمة كانت هى سيئة ، وعلى ذلك ( أن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ) وبالنظر إلى النوع الأول والاعتبار به قال بعض المتكلمين: يعرف العدل والجور بالعقل قبل الشرع ، وبالنظر إلى الأول والاعتبار به قال بعضهم: لا يعرف إلا بالشرع ، وبالجملة إن الشرع مجمع العدالة وبه تعرف حقائقها ، ولو توهمناه مرتفعاً لكان يؤدى إلى أن لا يكون عدالة على الحقيقة فى شىء من جزئيات الأفعال ، ولا يكون فى كثير من كلياتها . والعدالة المحمودة هى التى تتحرى لا رياء ولا سمعة ولا رغبة ولا رهبة ، وإنما تكون عن تحر للحق عن سجية ، والذى يجب أن يستعمل الإنسان معه العدالة خمسة : الأول بينه وبين رب العزة بمعرفة أحكامه . والثانى : من قوى نفسه وهو أن يجعل هواه مستسلماً لعقله ، فقد قيل: أعدل الناس من أنصف عقله من هواه . والثالث : بينه وبين أسلافه الماضين فى إنفاذ وصاياهم والدعاء لهم . والرابع : بينه وبين معاملته من أداء الحقوق والإنصاف فى المعاملات من المبايعات والمقارضات والكرامات . والخامس: بث النصيحة بين الناس على سبيل الحكم . وذلك إلى الولاة وخلفائهم ، وأما أحكام العدل فى الأرض فثلاثة : حاكم من الله تعالى وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والعامل والآمر به وهو كل وال عدل ، والناض المعتبر به وأعلاه الدينار ومعناه بالفارسية الدين أورده ، والناض من وجه كالحاكم ، ومن وجه كالآلة للحاكم يعتبر إذا قيس عمل بعمل ، ولما كانت الشريعة مجمع العدالة ومنبعها صار من امتنع من انتظامها والتزامها أظلم ظالم ، ولهذا قال عز وجل ( ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ) ولكون

الـكفر ظلما قال عز وجل ( وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ) فقابل المؤمن بالظالم .

## الباب الثالث

## ما يحسن ترك العدالة فيه

ترك العدالة أى الظلم عمداً مذموم فى جميع الأحوال ، والخارج منها إلى الظلم مستوجب بقدر خروجه عنها سخطاً من الله عز وجل إلا أن يتغمده الله تعالى بعفوه. وأما الخارج عنها إلى الانظلام أى إلتزام الظلم فقد يحمد ، والانظلام من حيث الـكمية ثلاثة أضرب . انظلام فى المال وهو الاستخذاء للظالم فى أخذ ماله، وانظلام فى الـكرامة وهو الاستخذاء فى بخس منزلته من التعظيم ، وانظلام فى النفس وهو استخذاء لمن يؤمله ،وكل واحد يكون محموداً ومذموماً . ومن حيث الـكيفية ضربان : محمود ومذموم، فالمحمود التغابن فى حق له فى المال أو فى الـكرامة أو فى النفس بقدر ما يحسن وهو المعبر عنه بالانخداع ، والتغافل الذى فيه العقل مكيال ثلثه فطنة وثلثاه تغافل ، وإياه قصد معاوية رضى الله تعالى عنه بقوله من خدعك فانخدعت له فقد خدعته ، وقال الشاعر :

ممن يغر على الثناء فيخدع

وذلك إذا كان فى المال فمسامحة، وإذا كان فى النفس فعفو ، وإذا كان فى الـكرامة فتواضع . وأما على الوجه المذموم ففى المال والرأى غبن ، وفى النفس والـكرامة هوان ومذلة ، وقد تقدم أن الإحسان والإفضال أشرف من العدالة إذا كان الحـكم بينك وبين غيرك، وأما إذا حكمت بين اثنين فليس إلا العدالة . وإنما الإحسان إلى المتحاكمين. ولهذا قال تعالى ( إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ) وقال فيمن له الحق ( وإن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ) وقال يحيى بن معاذ اصحبوا الناس بالفضل لا بالعدل فمع العدل الاستقصاء وإنى لأرجو أن لا يحاسب عباده بالعدل وقد أمرهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بالفضل ، وقد

يعظم الله تعالى أمر الإفضال والإحسان فقال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فأن وهل يأمر الحكيم بأمر ثم لا يفعله؟! وكيف يترك الحكيم التفضل ويقتصر على العدالة، وقد بين أن التفضل أفضل، وكيف لا يرجى فضله وأفعاله كلها عدل وعدله كله تفضل لأنه يبتدئ بما لا يلزمه، والابتداء بما لا يلزم تفضل، وهل يجوز أن يترك التفضل انتهاء وقد تحراه؟!.

## الباب الرابع

## ذكر الظلم

الظلم هو الانحراف عن العدالة، ولذلك حد بأنه وضع الشيء في غير موضعه المخصوص. وقد تقدم أن العدالة تجرى مجرى النقطة من الدائرة فتجاوزها من جهة الإفراط والعدوان والطغيان، وإليه أشار تعالى بقوله (قد ضلوا ضلالا بعيداً) والانحراف عنها في بعض جوانبها جور، والظلم أعم الأسماء، ولما كان الظلم ترك الحق الجارى مجرى النقطة من الدائرة صار العدل عنها إما بعيداً وإما قريباً، فمن كان عنه أبعد كان رجوعه إليه أصعب، ولذلك قال عز وجل (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً) تنبيها على أنه متى أمعن بهم في البعد عن الحق صعب عليهم حينئذ الاهتداء، ولأجل من جعلهم الشيطان كذلك قال تعالى (أولئك ينادون من مكان بعيد) وأما المستعمل معهم الظلم فخمسة وهم الذين يجب أن تستعمل العدالة معهم، وقد تقدم ذكرهم. الأول رب العزة سبحانه: الثانى قوى النفس، الثالث أسلاف الرجل، الرابع معاملوه من الأحياء. الخامس الناس إذ تولى إنسان الحكم بين بعضهم بعضاً، وقال بعض العلماء: شر الناس من جار على نفسه ثم من جار على ذويه ثم من جار على كافة الناس، وأفضلهم من عدل مع كافة الناس ثم مع عشيرته ثم مع نفسه. وهذا قول أورد بنظر عامى، فإن الظالم لا يكون ظالماً لغيره حتى يكون ظالماً لنفسه، فإنه أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه، فإذا الظالم أبداً مبتدأ بنفسه بالظلم، والعادل فى الناس إذا هم بالعدل وتحراه فقد عدل مع نفسه

تقبل أن يعدل مع غيره ، قال بعضهم : الظلمة ثلاثة الظالم الأعظم وهو الذى لا يدخل تحت شريعة الله تعالى ، وإياه قصد تعالى بقوله ( إن الشرك لظلم عظيم ) والأوسط وهو الذى لا يدخل تحت حكم السلطان ، والأصغر وهو الذى يتعطل عن المكاسب والأعمال فيأخذ منافع الناس ولا يعطيهم منفعة . ومن خرج عن تعاطى العدالة بالطبع والخلق والتخلق والتصنع والرياء والرغبة والرهبة فقد انسلخ من الإنسانية ، ومتى صار أهل صقع(١) كلهم كذلك تهارشوا وتغالبوا وأكل قويهم ضعيفهم ولم يبق فيهم أثر قبول ، فقد تقدم أن عادة الله فى أمثالهم إهلاكهم عن آخرهم .

## الباب الخامس

## الأسباب التى يحصل منها الإضرار

جميع ذلك أربعة أسباب ، الأول الشرارة كمن يضر بغيره مستلذا بنفعه وذلك أخس الوجوه . الثانى الشهوة وهى أن يرى أنه لا يمكنه إدراك شهوته إلا بأن يضر غيره كعامة المتلصصة العاثين فى الأرض ، الثالث الخطأ وهو أن لا يقصد الإضرار بمن ضره بوجه ، بل قصد فعلا آخر فاتفق منه ذلك ، كمن رمى قرطاساً فأصاب رجلا فهو معذور من وجه ، والرابع الشقاوة كمن أصابه ريح فأوقعه على إنسان فمات ذلك الإنسان ، فذلك معذور ومرحوم .

## الباب السادس

## ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة

المكر والخديعة يتقاربان ، وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله فى باطنه خلاف ما يقتضيه ظاهره ، وهو ضربان : أحدهما مذموم وهو الأشهر عند الناس والأكثر ، وذلك أن يقصد فاعله إنزال مكروه بالمخدوع وإياه قصد صلى الله عليه وسلم بقوله « المكر والخديعة فى النار » والمعنى يؤدى بقاصدهما إلى النار . والثانى بعكس ذلك وهو أن

(١) أهل صقع : أهل ناحية .

يقصد فاعلهما إلى استجرار المخدوع والممكور به إلى مصلحة لهما كما يفعل بالصبى إذا امتنع من فعل خير ، قال بعض الحكماء المكر والخديعة محتاج إليهما فى هذا العالم ، وذلك أن السفيه يميل إلى الباطل ولا يقبل الحق ولا يميل إليه لمنافاته لطبعه فيحتاج أن يخدع عن باطله بزخارف مموهة خدعة الصبى عن الثدى عند الفطام ، ولهذا قيل مخرق فإن الدنيا مخاريق(١) وسفسط فإن الدنيا سوفسطائية ، وليس هذا حثا على تعاطى الخبث بل هو حث على جذب الناس إلى الخير بالاحتيال ، ولكون المكر والخديعة ضر بين سيئاً وحسنا قال الله تعالى ( والذين يمكرون السيآت أولئك لهم عذاب أليم ومكر أولئك هو يبور ) وقال تعالى ( فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا استكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ) وقال ( أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الأرض ) فخص فى الآيات السيء من المكر تنبيها على جواز المكر الحسن ، ووصف نفسه تعالى بالمكر الحسن فقال ( ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ) وأما الكيد فإرادة لاستتار مايراد به ، لكن أكثر ما يستعمل ذلك فى الشر ومتى قصد به شر فمذموم ، ومتى قصد به خير فمحمود ، وعلى الوجه المحمود قال تعالى ( كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ) وعلى ذلك الاستدراج منه قال تعالى ( سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ) فاستدراجه تعالى تغطية السبيل على الإنسان وتمكينه منه ليطلبه بالآلات التى أعطاه ، وذلك تكليف له لما تعذر عليه ، وإن كان فيه مشقة ، ولتمكينه من إدراك ذلك قال تعالى ( ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين ) فمن جاهد فى سبيله وأعمل فكرته حتى ظفر به فسلكه على مايجب وكما يجب سهل عليه الوصول وكان ذلك منه منة ولطفاً وإحساناً ، ومن عطل إمعانه من الفكرة والبصر والسمع حتى أضل طريقه كان ذلك خذلانا وعذابا له ، وعلى نحو ما تقدم وصف تعالى نفسه بالحيلة والمماحلة .

(١) المخرقة : اللعب والمزاح .

فقال تعالى ( وهو شديد المحال ) وهذه ألفاظ لولا أن البارىء تعالى أطلقها في مواضع مخصوصة قاصداً بها معانى صحيحة لما تجاسر بشر عرف الله تعالى أن يخطر ذلك بباله فضلا عن أن يجريه فى مقاله ، وإن قصد بها المعنى الصحيح تنزيها له وتعظيما ، ويجب أن تتلى في القرآن حيثما وردت ولا يتعدى بها ، وقد ذكر المفسرون أن كثيراً من الأوصاف الشريفة كالرحيم والغفور والودود ما كان يتجاسر أن تطلق عليه سبحانه لولا السمع ، لما في هذه الأسماء من الكيفية والكمية والإنفعال في معنى اللغة والله تعالى منزه عن ذلك كله ، وهذا فصل كبير يختص به غير هذا الكتاب .

## الباب السابع

## ماهية المحبة وأنواعها

المحبة ميل النفوس إلى ما تراه أو تظنه خيراً ، وذلك ضربان : أحدهما طبيعى وذلك فى الإنسان والحيوان ، وقيل قد يكون بين الجمادات كالألفة بين الحديد وحجر المغناطيس . والثانى إختيارى وذلك يختص به الإنسان فأما ما يكون بين الحيوانين فألفة ، وهذا الثانى أربعة أضرب : الأول للشهوة وأكثر ما يكون ذلك بين الأحداث . والثانى للمنفعة ومن جهة ما يكون بين التجار وأرباب الصناعات المهينة ، والثالث ما يكون مركبا من ضربين كمن يحب آخر للنفع وذلك يحبه للشهوة . والرابع للفضيلة كمحبة المتعلم للعالم وهذه المحبة باقية على مرور الأوقات وهى المستثنات بقوله تعالى ( الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ) وأما الضروب الأخر فقد تطول مدتها وتقصر بحسب دوام أسبابها ، والصداقة أخص من المحبة ، وقلما تقع بين جماعة ولا تستعمل إلا فى الحيوان ، وأما العشق فمحبة بإفراط ، وذلك إما بحسب اللذة فيكون مذموما أو بحسب الفضيلة فيكون محموداً ولا يكون للنفع ، فإن النافع يراد لغيره والفضيلة واللذة يرادان لأنفسهما .

## الباب الثامن

## فضيلة المحبة

أحد أسباب نظام أمور الناس المحبة ثم العدالة ولو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا عن العدلة ؛ فقد قيل العدالة خليفة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة ، ولذلك عظم الله المنة بإيقاع المحبة بين أهل الملة ؛ فقال (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ماألفت بين قلوبهم) وقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) أى محبة القلوب تنبيهاً على أن ذلك أجلب للعقائد وهو أفضل من المهابة ، فإن المهابة تنفر والمحبة تؤلف ، وقيل طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة لأن طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج تزول بزوال سببها وكل قوم إذا تحابوا تواصلوا وإذا تواصلوا تعاونوا وإذا تعاونوا عملوا وإذا عملوا عمروا وإذا عمروا[١] ولفضل وقوع المحبة شرعاً شرع الله اجتماع أهل الملة الواحدة فى مساجدهم خمس مرات لإقامة صلاتهم واجتماع أهل محلاتهم فى بلد كل أسبوع مرة فى الجامع ، واجتماع أهل المدينة وأهل السواد كل سنة مرتين فى الجبانة ، واجتماع أهل البلدان النائية فى العمر مرة بمكة كل ذلك ليتأكد باجتماعهم الأنس وليقع بسبب ذلك الود .

## الباب السادس

## فضيلة الصداقة

الصديق محتاج إليه فى كل حال أما عند سوء الحال فيعاونونه ، وأما عند حسن الحال فليؤانسوه ، وليضع معروفه عندهم ومن ظن أنه يمكنه الاستغناء عن صديق فمغرور ، ومن ظن أن وجوده سهل فمتوه ولكثرة نفعه سئل حكيم عن الصديق فقال: هو آخر بالشخص إلا أنه أنت بالنفس ، ولعزة وجوده سئل آخر عنه فقيل هو اسم على غير معنى ، حيوان غير موجود ، فمن وجد إخوانا ذوى ثقة وجدهم عونا وآذانا

---

(١) لم يذكر جواب إذا فى قوله : إذا عمروا

وقلوبا كلها له فيرى الغائب بصورة الشاهد ، واختيار من تركن إليه لتصادقه صعب إذ قـــــد يتشيع لذلك الناقص فتظنه فاضلا فيـكون كمن يحسب الشحم فيمن شحمه ورم[١] .

## باب العاشر

## فى ذكر المحب فى الناس

من حببه الله إلى الناس فقد أنعم عليه نعمة وسيعة ، كما أن من بغضه إليهم فقدجعل له نقمة فظيعة ، والسبب فيمن يكون محباً إلى الخلق أن من رعاه الله فصفى جوهره وطاب وحسن عمله حصل له نور ليتزيا فى مشاعر من يراه فيحبه ، وإياه قصد تعالى بقوله لموسى عليه السلام ( وألقيت عليك محبة منى )وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً ألقى محبته فى الماء فلا يشربه عبد إلا أحبه وإذا بغض عبداً ألقى بغضه فى الماء فلا يشربه أحد إلا أبغضه » ولما ألقى الله تعالى على نبينا من المحبة فلما كان يأتيه من يبغضه فيهم بقتله إلا إذا رآه وقلب فى آفاق وجهه طرفه وألقى إلى كلامه سمعه وأعجب به ففارقه .

## الباب الحادى عشر

## الحث على مصاحبة الأخيار والحث على مفارقة الأشرار

حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار فهى قد تجعل الشرير خيراً كما أن مصاحبة الأشرار قد تجعل الخير شريراً ، قال بعض الحـكماء من جالس خيراً أصابته بركته؛ فجليس أولياء الله لا يشقى وإن كان كلبا كـكلب أصحاب الـكهف، حيث قال جل وعز( وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) ولهذا أوصت الحـكماء بمنع الأحداث عن مجالسة السفهاء ، وقال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه لا تصحب الفاجر فيزين

---

(١) مأخوذ من قول المتنبي :

أعيذها نظرات منك صادقة     أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

لك فعله ويعدانك مثله وقيل جالسوا من تذكركم الله رؤيته ويزيد فى خيركم نطقه » وقالوا إياك ومجالسة الشرير فإن طبعك يسرق من طبعه وأنت لا تدرى. بل قال صلى الله عليه وسلم « مثل الجليس الصالح كمثل الدارى[١] إن لم يحذك من عطره يعلقك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل القين إن لم يحرقك بشرره يؤذك بدخانه » وقال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخالل » أى يجذبه إلى دينه، ومن قوة هذا المعنى فى النفوس شاع على الألسنة قول الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتـــــدى

وليس إعداء الجليس جليسه خلقه بمقاله وفعاله فقط، بل وبالنظر إليه، فالنظر فى الصور يؤثر فى النفوس أخلاقاً مناسبة إلى خلق المنظور إليه، فإن من دام نظره إلى مسرور سر ومن دام نظره إلى محزون حزن، وذلك ليس فى الإنسان فقط بل فى الحيوان وسائر النبات، فإن الجمل الصعب قد يصير ذلولا بمقارنة الذلول، والذلول يصير صعباً بمقارنة الصعاب، والريحانة الغضة تذبل بمقارنة الذابلة، ولهذا يلتقط أصحاب الفلاحة الرمم عن الزروع لئلا تفسدها. ومعلوم أن الماء والهوى يفسدان بمجاورة الجيفة إذا قربت منهما وذلك مما لا ينكره ذو تجربه. وإذا كانت هذه الأشياء قد بلغت فى قبول التأثير هذا المبلغ فما الظن بالنفوس البشرية التى موضوعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها. فقد قيل سمى الإنس إنسا لأنه يأنس بما يراه إن خيراً وإن شراً، وللإنسان فى المعاشرة ثلاثة أحوال. إما أن يكون شكساً أى قاسى بالطبع، وإما أن يكون ملقاً، أى سلس الطبع، أو مساعداً أى تاركا للخلاف على مقتضى العقل وهو المحمود. وحق الإنسان فى المعاشرة أن يتقوى من جهة المفكرة بالمطابقة فى الكلام، ومن جهة الغضب بالتحالم، ومن جهة الشهوة بالجود، وأن يتعرى من أضداد ذلك، وأن يجامل للعاشرين وللعارين وللمتشمتين بالإخوان ويصابرهم ويكاسرهم طمعاً فى رجوعهم

(١) الدارى : العطار : نسبة إلى دارين بلد بالبحرين يحمل إليها المسك من الهند.

إخواناً واتقاء من شرورهم حتى يكون ظريفاً ؛ فإن الظرف عبارة عن استجماع آلة العشرة من الطلاقة .

## الباب الثانى عشر

## فضيلة تفرد الإنسان عن الناس ورذيلته

قد كثر اختلاف الناس فى مفاضلة التفرد والاختلاط ، فبعضهم آثر التفرد عن الناس وبعضهم آثر الاختلاط بهم ، وأورد كل فريق منهم فى ذلك أخباراً وذلك بسبب اختلاف نظريهما وابتلاء أحدهما بمصاحبة من لم تحمد مصاحبته ، ومصاحبة الآخر من مصاحبته حميدة : والأصل أن اجتماع بعضهم من بعض أمر ضرورى لتعلق بعضهم ببعض ، ولهذا لما سمع عمر رضى الله تعالى عنه قائلا يقول اللهم اغننى عن الناس . قال يارجل أراك تسأل الموت ، قل اللهم اغننى عن شرار الناس ، فالناس لا يستغنى بعضهم عن بعض . وقيل التفرد مكروه إلا لثلاثة : سلطان لإنشاء تدبير المملكة . وحكيم لاستنباط الحكمة ، ومتنسك لمناجاة رب العزة ، فإن التفرد يبطل الإنسانية ولا يظهر من صاحبه فضيلة ، ومن ظن التفرد خيراً فلأجل أن ليس يظهر منه شر ، وذلك يشاركه فيه الموتى ، وفضيلة الإنسان أن يكون خيراً لا أن يكون شريراً وإن كان زماننا كما قيـــــل :

إنا لفى زمن ترك القبيـــــح به ... من أكثر الناس إجمال وإحسان

فحق الفاضل العاقل أن يجتمع مع العامة فى ظواهر أحكام الشرع وإقامة وظائف العبادات وإنالتهم من الفضيلة بقدر الوسع ، ويترفع عن منزلتهم فى المعارف والأخلاق والأفعال الجميلة ، ولمراعات حكم الظاهر قال عليه الصلاة والسلام « عليكم بالسواد الأعظم » ولمراعاة الترفع عن منزلتهم فى المعارف والأخلاق قيل : المروءة التامة مباينة العامة ، بل قيل من استأنس بالله استوحش من الناس ، وذلك لمخالفته إياهم فى الخلق ، وللنهى عن الاغترار بكثير منهم والركون إليهم سيما من ليس قصده الآخرة وطلب الحق

قال تعالى ( إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبؤك مثل خبير ) وقال تعالى ( إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم )

## الباب الثالث عشر

## العـــــداوة

العدوّ هو الذى يتحرى اغتيال الآخر ويضاده فيما يؤدى إلى ضرره ، ومنه تعدى فلان أى فعل فعل العدوّ وهو من قولهم مكان ذو عدو أى متنافى الأجزاء باث[1] لن حله والعداوة ضربان باطن لا يدرك بالحاسة وظاهر يدرك بالحاسة فالباطن اثنان أحدهما الشيطان وهو أصل كل عدوّ ويعادى معادن جوهرته ، وقد حذرنا الله تعالى منه غاية التحذير فقال ( إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ) وقال ( ألم أعهد إليكم ) الآية وقال ( لا تتبعوا خطوات الشيطان ) والثانى الهوى المعبر عنه بالنفس فى قوله تعالى ( إن النفس لأمارة بالسوء ) وقول النبى صلى الله عليه وسلم « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » وكذلك الغضب إذا كان فوق ما يجب ، ولكون هذه القوة فى الإنسان إذا أثيرت طريقاً للشيطان فى وصوله إلينا وكونها كالخليفة له سماها النبى صلى الله عليه وسلم باسمه فقال « الهوى شيطان والغضب شيطان » وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام « هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » وأما الظاهر من الأعداء فالإنسان وذلك ضربان ضرب هو عدو مضطغن للعداوة قاصداً إلى الإضرار إما مجاهرة وإما مساترة . وذلك اثنان واحد يعادى كل أحد وهو إنسان سبعى الطبع ، خبيث الطينة، مبغض لكل من لم يحتج إليه فى العاجل بغيض إلى كل نفس ، يهارش كل من لا يخافه كما قال الشاعر :

يسطو بلا سبب وتلك طبيعة الكلب العقور

---

(١) يقال : باث متاعه . بدده .

ومثله هو الذى عنى تعالى بشياطين الإنس ، والثانى عدو خاص العداوة وذلك إما بسبب الفضيلة أو الرذيلة كمعادات الجاهل العالم ، وإما بسبب نفع دنيوى كالتجاذب فى رياسة ومال وجاه، وإما بسبب لحمة ومجاورة مورثة للحسد كمعادات بنى الأعمام بعضهم لبعض ، وذلك فى كثير من الناس كالطبيعى ، وقال رجل لآخر إنى أحبك ، فقال قد علمت ذلك ، قال ومن أين علمت ؟! قال لأنك ليس لى بشريك ولا نسيب ولا جار قريب ، وأكثر المعاداة بين الناس تتولد من شىء من ذلك . والضرب الثانى عدو غير مضطغن بالعداوة ولكن يؤدى حاله بالإنسان إلى أن يقع بسببه فى مثل ما يقع من كيد عدوه فسمى عدواً لذلك كالأولاد والأزواج ولذلك قال عز وجل ( إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ) وقال عليه الصلاة والسلام « ليس عدوك الذى إن قتلته آجرك الله فى قتله وإن قتلك أدخلك الجنة ، ولكن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وامرأتك التى تضاجعك وأولادك الذين من صلبك » وجعل عليه الصلاة والسلام هؤلاء أعداء الإنسان لما كانوا سبباً لإهلاكه الأخروى لما يرتكبه من المعاصى من أجلهم ، فيؤدى ذلك إلى هلاك الأبد الذى هو شر من إهلاك المعادى المناصب إياه . واعلم أنه لكون بعض الناس مشاركاً للشيطان فى المعادات سمى الله تعالى الأعداء شياطين ، فى قوله ( شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ) وقد سمى كل ما يتأذى به شيطاناً حتى قالوا ما ورود الفقير إلا شيطان مجنون يؤذى بروح الإنسان . والفقير هو اسم بئر فجعل ورودها شيطانا يتأذى به . والله سبحانه أعلم .

# الفصل السادس

## فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والإنفاق والجود والبخل

### الباب الأول
### فى حاجة الناس إلى اجتماعهم للتظاهر

اعلم أنه لما صعب على كل أحد أن يحصل لنفسه أدنى ما يحتاج إليه إلا بمعاونة عدة رجال له ، فلقمة طعام لو عددنا تعب تحصليها من الزراع والطحان والخباز وصناع آلاتها لصعب حصره ، فلذلك احتاج الناس أن يجتمعوا فرقة فرقة فيتظاهروا ، ولأجل ذلك قيل الإنسان مدنى بالطبع أى لا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه ، بل يفتقر بعضهم إلى بعض فى مصالح الدين والدنيا ، وعلى ذلك نبه صلى الله عليه وسلم بقوله « المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً » وقال « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا تألم بعضه تداعى سائره » وقيل الناس كجسد واحد متى عاون بعضه بعضا استقل ومتى خذل بعضه بعضا اختل . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

### الباب الثانى
### تسخير الله تعالى هم الناس إلى الصناعات المختلفة
### وعناية كل واحد بما يتحراه

لما احتاج الناس بعضهم إلى بعض سخر الله كل واحد من كافتهم لصناعة ما يتعاطاها، وجعل بين طبائعهم وصنائعهم مناسبات خفية واتفاقات سماوية يؤثر الواحد بعد الواحد حرفة من الحرف ينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه بمزاولتها ، فإذا جعل إليه صناعة أخرى فربما وجد متبلداً أو متبرماً بها ، وقد سخرهم الله تعالى لذلك لئلا يختاروا بأجمعهم صناعة واحدة فتبطل الأقوات والمعاونات . ولولا ذلك لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ومن البلاد إلا أطيبها ومن الصناعات إلا أنظفها ومن الأعمال إلا

أرفعها ، ولتناجزوا على ذلك . ولكن الله تعالى بحكمته جعل كلا منهم مجبرا فى صورة مخير ، فالناس إما راض بصنعة لا يريد عنها حولا ، كالحائك الذى يرضى بصنعته ويعيب الحجام والحجام الذى يرضى بصنعته ويعيب الحائك ، وبهذا انتظم أمرهم كما قال تعالى ( فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ) وأما كاره لها يكابدها مع كراهيته إياها كأنه لا يجد لها بدلا ، وعلى هذا دل قوله عليه الصلاة والسلام « كل ميسر لما خلق له » بل صرح تعالى بقوله ( نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ) وقال ( وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ) وقال ( قل كل يعمل على شاكلته ) ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « لن يزال الناس ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا » فالتباين والتفرق والاختلاف فى نحو هذا الموضع سبب الائتلاف والاجتماع والاتفاق ، كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتفرقها التى لولاها لما حصل لها نظام ، فسبحان الله ما أحسن ما صنع وأحكم ما أسر وأتقن ما دبر ! ! ولهذا قيل من حق من قيض له صناعة مباحة فرزق منها أن يراعيها على ما يجب وكما يجب ، وعليه قوله عليه الصلاة والسلام « من رزق من شىء فليلزمه » وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## الباب الثالث

## كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس

حصول الفقر وخوفه المنتجان للحرص هما الباعثان على الجد واحتمال الكد ومنفعة الناس إما باختيار واما باضطرار ، ولهذا قيل رب ساع لقاعد ، وهو أن الناس لو كفى كل واحد أمره لأدى ذلك إلى فساد العالم من حيث أنه لم يكن أحد يتولى لغيره مهنة يعجز عن القيام بمصالح نفسه كلها فيؤدى ذلك إلى فقر جميعهم . وقد قيل قيام العالم بالفقر أكبر من قيامه بالغنى ، لأن الصناعات القائمة بالغنى ثلاث : الملك والتجارة والكتابة ، وسائرها قائمة بالفقر ، فلو لم يكن الفقر وخوفه فمن كان يتولى

الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة ومن كان ينقل المير والملابس من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال ، وعلى منفعة الفقر نبه الله تعالى بقوله (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) ومن تدبر صنع الله تعالى فى ذلك وتأمل ما أشار إليه فى هذه الآيات التى ذكرها لم تعرض له الشبهة التى تعرض لمن يقول إذا كان الله جواداً واسعاً فلم خص بعضهم بالغنى وجعل أكثرهم فقراء ، ومن حق الغنى الذى لا يغنى غناه والجواد الذى لا يعرف لجوده منتهى ، أن لا يخص بالعطية بعضاً دون بعض ، وذلك أن الجواد هو الذى يعطى كل أحد بقدر استئهاله على وجه يعود بمصلحته ومصلحة غيره ، وقد فعل ذلك بالعباد .

## الباب الرابع

### مناسبة بدن الإنسان لصناعته

إن الله تعالى فرق همم الناس للصناعات المتفاوتة ، ويسر كلا لما خلق له ، وجعل آلاتهم الفكرية والبدنية مستعدة لها فجعل لمن قيضه لمراعاة العلم والمحافظة على الدين قلوباً صافية وعقولا بالمعارف لائقة وأمزجة لطيفة وأبداناً لينة مستصلحة ، ومن قيضه لمراعاة المهن الدنيوية والمحافظة عليها كالزراعة والبناء جعـــــل لهم قلوباً قاسية وعقولا كنزة وأمزجة غليظة وأبداناً خشنة ، وكما أنه محال أن يصلح السمع للرؤية والبصر للسمع كذلك محال أن يكون من خلق للمهنة يصلح للحكمة وقد جعل تعالى كل جنس من الفريقين نوعين رفيعاً ووضيعاً ، فالرفيع من تحرى الحذق فى صناعته وأقبل على عمله وطلب مرضاة ربه بقدر وسعه وأدى الأمانة بقدر جهده ولم يشتغل عن عبادة الله تعالى كما قال تعالى (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله يحب الصانع الحاذق » ومدح الملائكة بوقوفهم حيث ما وقفوا وبإحكامهم لما ولوا فقال تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون).

## الباب الخامس

## وجوب التكسب

التكسب فى الدنيا وإن كان معدوداً من المباحات لكنه واجب من وجه ، وذلك إذا لم يمكن الإنسان الاستقلال بالعبادة إلا بإزالة ضروريات حياته فإزالتها واجبة ، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فواجب كوجوبه ، وإذا لم يكن إلى إزالة ضرورياته سبيل إلا بأخذ تعب من الناس فلابد إذاً أن يعوضهم تعبا له وإلا كان ظالماً فمن توسع فى تناول عمر غيره فى مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك فلابد أن يعمل لهم ، عملا بقدر ما يتناوله منهم وإلا كان ظالماً لهم قصدوا إفادته أو لم يقصدوها ، فمن رضى بقليل من عملهم فلم يتناول من دنياهم إلا قليلا يرضى بقليل عمل ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « من رضى من الله بقليل الرزق رضى الله منه بقليل العمل » ومن أخذ منهم المنافع ولم يعطيهم نفعاً فإنه لم يأتم بالله فى قوله ( وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ) ولم يدخل فى عموم قوله تعالى ( والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ) ولهذا ذم من يدعى التصوف فيتعطل عن المكاسب ولم يكن له علم يؤخذ عنه ولا عمل صالح فى الدين يقتدى به ، بل يجعل له همة عارية بطنه وفرجه، فإنه يأخذ منافع الناس ويضيق عليهم معايشهم ولا يرد إليهم نفعاً فلاطائل فى مثلهم إلا أن يكدروا الماء ويغلوا الأسعار ، ولهذا الشأن كان عمر رضى الله تعالى عنه إذا نظر إلى ذى سيما يسأل أله حرفة ؟ فإذا قيل لا سقط من عينه. واستحسن النبى صلى الله عليه وسلم من وفد عبد قيس لما سألهم ما المروءة فقالوا العفة والحرفة ، ومن الدلالة على قبح فعل مثل هذا صنيعه أن الله تعالى ذم من يأكل مال نفسه إسرافاً وبداراً فما حال من أكل مال غيره على ذلك ثم لا ينيلهم عوضاً ولا يرد إليهم بدلا فحق كل مضطر إلى كسب أن يقتصر على ما يسد نفر وقته ولا يحمل هم غده على يومه .

قال الشاعر :

فمن ينفق الساعات فى جمع ماله   مخافة فقر فالذى فعل الفقر

ومن اقتصر على ذلك فقد صار من المتوكلين الذين عناهم النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً ».

## الباب السادس

## مدح السعى وذم الكسل

من تعطل وتبطل انسلخ من الإنسانية بل من الحيوانية وصار من جنس الموتى ، وذاك أنه خص الإنسان بالقوى الثلاث ليسعى فى فضيلتها ، فإن فضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب التى تنميه ، وفضيلة القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدة التى تحميه ، وفضيلة القوة الفكرية تطالبه بالعلم الذى يهديه، فحقه أن يتأمل قوته ويسير قدر مايطيقه فيسعى بحسبه لما يفيده السعادة ، ويتحقق أن اضطرابه سبب وصوله من الذل إلى العز ومن الفقر إلى الغنى ومن الضعة إلى الرفعة ومن الخمول إلى النباهة ، وإن من تعود الكسل ومال إلى الراحة فقد الراحة فحب الهوينا يكسب التعب . وقيل إن أردت أن لا تتعب فاتعب لئلا تتعب ، وقيل إياك والكسل والضجر فإنك أن كسلت لم تؤد حقا وإن ضجرت لم تصبر على حق ، كما قال الشاعر :

فإن التوانى أنكح العجز بنته   وساق إليها حين أنكحها مهراً
فراشاً وطيئا ثم قال لها اتكى   فقصر كما لا شك أن تلدا فقراً

وقال يزيد بن المهلب مايسرنى أنى كفيت أمر الدنيا كله لئلا أتعود العجز ، وأن الفزع يبطل الهيئة الإنسانية ، فكل هيئة بل كل عضو ترك استعماله يبطل ، كالعين إذا غمضت واليد إذا عطلت، ولذلك وضعت الرياضات فى كل شىء ، ولما جعل الله تعالى للحيوان قوة التحرك لم يجعل له رزقا إلا بسعى مامنه ، ولئلا تتعطل فائدة

ماجعل بقوة التحرك ، ولما جعل للإنسان الفكرة ترك من كل نعمة أنعمها تعالى عليه جانبا يحصل بفكرته لئلا تبطل فائدة الفكرة فيكون وجودها عبثا . وتأمل حال مريم عليها السلام وقد جعل لها من الرطب الجنى ما كفاها مؤنة الطلب وفيه أعظم معجزة ، فإنه لم يخلها من أن أمرها بهزها فقال تعالى ( وهزى إليك بجذع النخلة ) كما أن البدن يتعود الرفاهية بالكسل كذلك النفس بترك التفكير والنظر فتتبلد وتتبله وترجع إلى رتبة البهائم ، فحق الإنسان أن لا يذهب عامة أوقاته إلا فى إصلاح أمر دينه ودنياه وموصلاته إلى آخرته مراعيالها ، قال الحجاج إن امرءا أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ويستغفر من ذنبه أو يتفكر فى أمر معاده لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة . وإذا تأملت قول النبى صلى الله عليه وسلم « سافروا تغنموا » ونظرت إليها نظرا عاليا علمت انه حثك على التحريك الذى يثمر لك جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى ، بل مجاورة الله تعالى ، وذلك محتاج إلى خمسة أشياء معرفة المعبود المشار إليه بقوله ( ففروا إلى الله جميعا ) ومعرفة الطريق المشار إليه بقوله ( قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة ) وتحصيل الزاد المتبلغ به المشار إليه بقوله ( وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ) والمجاهدة فى الوصول كما قال تعالى ( جاهدوا فى الله حق جهاده ) فبهذه الأشياء باء من الغرور الذى خوفه الله تعالى منه فى قوله ( لا يغرنكم بالله الغرور ) وهذه من المعالى التى دونها هول العوالى ، ولا ضير لمن رامها أن يتذرع بالصبر فقد أصاب من قال :

فقل لمرجى معالى الأمور    بغير اجتهاد رجوت المحالا

## الباب السابع

### تقاسيم الصناعات ومراتبها وفضيلة بعضها على بعض

الصناعات ثلاثة أضرب إما أصول لاقوام للعالم بدونها وهى أربعة أشياء : الحياكة

والزراعة والبناية والسياسة ، وإما مرشحة لكل واحد من ذلك وخادمة كالحدادة للزراعة ، والحلاجة والغزالة للحياكة ، وإما ثمرة لكل واحد من ذلك ومرتبة له كالطحانة والخبازة للزراعة والقصارة للحياكة ، ومثل ذلك بالإضافة إلى العالم مثل أجزاء الشخص إلى الشخص سواء بسواء فإنها على ثلاثة أضرب إما أصول كالقلب والكبد والدماغ وإما مرشحة لتلك الأصول وخادمة كالمعدة والعروق والشرايين ، وأما مكملة لها ومزينة كاليد والحاجب . وأشرف أصول الصناعات السياسة وهى أربعة أضرب الأول سياسة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم والثانى الولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم والثالث الحكماء وحكمهم على باطن الخواص . والرابع الوعظة والفقهاء وحكمهم على باطن العامة ، وأشرف هذه السياسات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب الناس به ، وبيان ذلك أن أشرف الصناعة يتبين من أوجه إما بحسب النسبة إلى القوة المبرزة لها كالفضل فى معرفة الحكمة على معرفة اللغات ، فإن الأولى متعلقة بالقوة العقلية وهذه متعلقة بالقوة الحسية ، والعقل أشرف من الحس ، وإما بحسب عموم النفع كفضل الزراعة على الصناعة ، وإما بحسب الموضوع المعمول فيه كشرف الصياغة على الدباغة ، وقد علم أن الحكمة تدرك بالقوة الفكرية وهى أشرف قوة وإنه يتوصل به إلى جنة المأوى وذلك أبلغ نفع وموضوعه الذى تعمل فيه نفوس البشر وهو أفضل موضع يعمل فيه بل موجود فى هذا العلم ، وإفادة العلم من وجه صناعة ومن وجه عبادة ومن وجه أجل خلافة الله ، فإن الله مع استخلافه قد فتح على قلبه العلم الذى هو أخص صفاته تعالى فهو خازن لأجل خزائنه وقد أذن له فى الإنفاق على كل أحد ممن لا يفوته الإنفاق عليه وكلما كان إنفاقه أكثر على ما يجب وكما يجب كان جاهه عند مستخلفه أوفر . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## الباب الثامن

## فى أن أصول الصناعات مأخوذة عن الوحى

أصول الصناعات والمكاسب مأخوذة عن وحى ، وذلك أن نقص الإنسان وحاجة بعضهم إلى بعض ظاهر والناقص محتاج إلى الكامل فلايخلو إما أن يتصور أخذ واحد عن واحد بلاغاية وهو محال ، وإما أن ينتهى إلى واحد من البشر علمه الصناعات إما بسماع من الملأ الأعلى أو بإلهام أومنام وهذا هو الحد ، فمعلوم لذى اللب أن قوى العقاقير وطبائع الحيوانات مما لا يمكن إدراك خواصها بأفهام البشر وبحريتهم ، ورؤساء كل صناعة يقرون بذلك فأهل النجوم يقولون مبادىء النجوم من هرمس وهو قبل إدريس عليه السلام ، وكذلك أصحاب الطب يدعون مثل ذلك فى معرفة الأدوية ، ثم اختصاص كل واحد من الموجودات بفعل له على حدته أو بحساب العقل عن توهم ماهو أصلح لذلك الفعل منه يحقق أنه صدر عن حكمة إلهية .

## الباب التاسع

## فى شأن الناض المتعامل به وحكمه الله تعالى فيه

اعلم ان الناض(١) أحد أسباب مابه قوام الحياة الدنيوية ، ومتى توهمناه مرتفعا تعسر على الناس توجيه معاشهم ، وقد تقدم أن الناس يحتاج بعضهم إلى بعض ولا يمكنهم التعايش ما لم يتظاهروا ويتولى كل واحد منهم عملا يصير به معينا للآخر مواسيا له ، ولما كان كل من واسى غيره من حقه أن يقابل بقدر مواساته قيض الله سبحانه لهم هذا الناض علامة منه جل ثناؤه ليدفعه الإنسان إلى من يوليه نفعا فيحمله إلى من عنده مبتغاه فيأخذ منه بقدر عمله ثم إذا جاء ذلك الآخر بتلك العلامة أو مثلها إلى

---

(١) يريد بالناض هنا : الذهب والفضة .

الأول وطلب منه مبتغى هو عنده دفعه إليه لينتظم أمرهم ، ولهذا قيل الدرهم حاكم صامت وعدل ساكت وخاتم من الله نافذ. وقيل لهذا المعنى سمى فى لغة الفرس دينار أى الدين أتى به، والدين فارسية معربة ولما كان ذلك حاكما عظم الله تعالى وعيد من احتبسه ومنع الناس عن التعامل به فقال (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية (١) وذلك أنه يصير باحتباسه إياهما كمن حبس حاكمين للناس بهما تتمشى أمور معائشهم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم» لأنه يؤدى إلى منع الناس التصرف فى معاملتهم .

## الباب العاشر

## فى مدح المال وذمه

المال إذا اعتبر بكونه أحد أسباب قوام الحياة الدنيوية فهو عظيم الخطر كما تقدم، وإذا اعتبر بسائر القنيات فهو صغير الخطر إذ القنيات ثلاثة نفسية ومدنية وخارجة . والخارجة أدونها، وأدون الخارجات الناض، لأنه خادم غير مخدوم، وسائر القنيات خادم من وجه ومخدوم من وجه، لأن النفس يخدمها البدن والبدن يخدمه المأكل والملبس وهما يخدمهما المال، فالمال من حقه أن يكون خادما لغيره من القنيات وأن لا يكون شىء من القنيات خادما له، وإن كان كثير من الناس لجهلهم يجعلون جاههم وأبدانهم ونفوسهم خدما للمال وعبيدا، وهم الذين ذمهم النبى صلى الله عليه وسلم بقوله «تعس عبد الدينار (٢)» ولعظم موقع المال عند من لا يتجاوز المحسوسات قال حكاية عن بعض أنبيائه فيما خاطب به أمته (استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا) ولعظم منافعه فى الأمور الدنيوية قال تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) ونبه على حقارة قدره بالإضافة إلى أحوال الآخرة فقال (لا تلهكم

---

(١) باقى الآية ( .. ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) .

(٢) الحديث بتمامه « تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش » .

أموالكم ولا أولادكم ) وخوف من أعجب باقتنائه فقال ( أيحسبون أن مانمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون ) وقال تعالى ( ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا ) فحق الإنسان أن يعد المقتنيات الدنيوية آلات موضوعة فى خان سفر ، يصلح للانتفاع به مادام نازلا فى ذلك الخان فيتناول منه مقدار البلغة ويتسلى عنها عند الرحلة ، ويستهجن لنفسه أن يكذب ويغضب ويحزن ويرتكب القبائح فى سببها . واعلم أن الناض الذى هو العين والورق[1] حجر جعله الله سبحانه سبباً للتعامل به كما تقدم آنفاً وخادم كما ذكرناه ، فقبيح بالحر المتوشح لنيل الفضائل والاقتداء بالبارىء جل ثناؤه والوصول إلى الغنى الأكبر أن يتهافت على المال بأكثر مما يحتاج إليه ويجعل نفسه أقل رقيق له وأخسه كما قيل :

فرقُ ذوى الأطماع رقٌ مخلّد

ويكون معتكفاً منه على حجر يعبده كما قال تعالى ( يعكفون على أصنام لهم ) وأرى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما سأل الله تعالى فقال ( أجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام ) لم يرد إلا أن يحرسه وذريته عن الإعراض الدنيوية الصارفة عن الله، فمثله عليه الصلاة والسلام وأولاده يتنزه أن يشفق من اعتقاد فى حجر هو صانعه ويستحق عبادته ، وقال فى موضع آخر إشارة إلى ما يعم هذا المعنى وغيره ( يا أبت لم تعبد مالايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً؟! ) وقال بعض الحكماء مثل الإنسان وشغفه بهذه الأعراض الدنيوية كراكب فى سفينة إلى أفضل بلد فانتهى إلى جزيرة ذات أسود وأساود[2] فأمروا بالخروج والتهيؤ للطهارة وأن يكونوا على حذر فرأوا حجرا مزرجاً مزيناً فشغفوا به وتباعدوا عن المركب ونسوا مقصودهم ومركبهم وبقوا لاهين حتى سارت السفينة ، فثارت عليهم الأسود والأساود فلم يغن عنهم حجرهم فصاروا كما قال تعالى عن هذه حاله ( ماأغنى عنى مالية ، هلك عنى سلطانيه).

(١) العين هو الذهب ، والورق : الفضة .

(٢) الأساود : الحيات .

## الباب الحادى عشر

## المال والأدب فى اقتنائه والوجوه التى منها يحصل

قد تقدم أن المال من الخيرات المتوسطة لأنه كما قد يكون سبباً للشر يكون سبباً للخير ، لكن لما كان فى أكثر الأحوال يوجب كرامة أصحابه وتعظيم أربابه حتى صدق الشاعر فى قوله :

الناس أعداء لكل مدقع صفر اليدين وأخوة للمكثر

وحتى قيل : رأيت ذا المال مهيباً ، وقال صلى الله عليه وسلم «نعم المال الصالح للرجل الصالح» واستصوب قول طلحة رضى الله تعالى عنه فى دعائه اللهم ارزقنا مجداً ومالا ، فلا يصلح المجد إلا بالمال ، ولا يصلح المال إلا بمراعاة المجد. وقال بعض الحكماء اطلبوا العلم والمال بحق الرياسة فالناس خاص وعام فالخاص يفضلك بما تحسن والعام بما تملك ، واكتسابه من الوجه الذى ينبغى صعب وتفريقه سهل كما قال الشاعر :

له مصعد صعب ومنحدر سهل

ومن رام اكتسابه من وجه صعب عليه فالمكاسب الجليلة قليلة عند الحر العادل ومن رضى بكسبه من حيث ما اتفق فقد سهل عليه ، والفاضل يتقبض عن اقتناء المال ويسترسل فى إنفاقه ولا يريده لذاته بل لاكتسابه المحمدة به ، ولا يجمع المال عنده مدخرا كما قال الشاعر :

لا يألف الدرهم المضروب صرته لكن يمر عليها وهو منصرف

إنا إذ اجتمعت يوما دراهمنا ظلت إلى طرق المعروف تنصرف

وغير الفاضل يسترسل فى اقتنائه وينقبض فى إنفاقه ويطلب لذاته لا لادخار الفضيلة به . والمال يحصل من وجهين : أحدهما بسبب منسوب إلى الجد المحض والبخت الصرف من غير اكتساب من صاحبه ، كمن ورث مالا أو وجد كنزا

أو قبض له من أولاه شيئاً . والثانى أن يكتسب الإنسان كمن يشتغل بتجارة أو صناعة فيدخر منها مالا . وهذا الضرب لا يستغنى فيه عن الجد ولهذا قيل :

علىّ السعى فيما فيه نفعى   وليس على إدراك النجاح

فحظ الجد أكثر من حظ الكد بخلاف الأخلاق والأعمال الأخروية التى حظ الكد فيها أكثر ، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله ( من كان يريد العاجلة ) الآية واشترط فى العاجلة مشيئة للمعطى وإرادته للمعطى له ، ولم يشترط السعى لها مع الإيمان ولم يشترط إرادته ومشيئته ، وإن كان ذلك لا يتعدى منهما فحق العاقل أن يعنى بما إذا طلبه ناله وإذا ناله لم يخف زواله . ويقلل المبالاة بما إذا قدر له أتاه طلبه أم لا ، وقال بعض الحكماء إن البخت بمنزلة امرأة صماء عمياء ورهاء فى حجرها جواهر وهى قاعدة على حجر مدور يتبعها ناس كثير يلتمسون ما عندها وهى لا تسمع قولا ولا ترى وجها وقد اعتزل عنها قوم قليلو العدد وقعدوا حجرة . وفى كل ساعة تولى قبضة مما فى حجرها واحدا من القوم كأنها المعنية بقول الشاعر :

لا تمدحن حسنا فى الجد إن مطرت   كفاه جودا ولا تذممه إن رزما

فليس يبخل إشفاقا على نشب   ولن يجود بفضل المال معتزما

لكنها خطرات من وساوسه   يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

وتارة تعرج على من أعطته فتسلبه سلبا وتدوسه بحجرها دوسا . وأما الفضائل الأخروية فكما قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فإن أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر . وقال تعالى ( وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ) .

## الباب الثانى عشر

## إخفاق العاقل وإنجاح الجاهل

الحكمة تقتضى أن يكون العاقل الحكيم فى أكثر الأحوال مقلا ، وذلك أنه

لا يأخذ المال إلا كما يجب من الوجه الذى يجب فى الوقت الذى يجب ، ثم إذا أخذه وتناوله لم يدخره عن مكرمة . والجاهل عليه الجمع من حيث لا يبالى فيما يتناوله بارتكاب محظور واستباحة محجور واستنزال الناس عما فى أيديهم بالمكر ومساعدتهم على ارتكاب الشر طمعا فى نفعهم ، وكثيراً مايرى منهم فى جملة الموصوفين بقوله تعالى ( فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ) شاكين بختهم ، فبعضهم يغضب على الفلك ، وبعضهم على القدر ، وبعضهم يتجاوز الأسباب فيعاتب الله تعالى حتى قال بعضهم فى ذلك شعراً :

لقوله نحن قسمنا بينهم زال المرا
ولو تولى غيره قسمة أرزاق الورى
جرت خطوب بيننا لكنه تحت العرا

وذلك لحرصهم على ارتكاب القبايح وجهلهم بما يقيض الله سبحانه وتعالى من المصالح وقول الشاعر :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا[١]
هذا الذى ترك الألباب حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

فإن الذى يصير بذلك زنديقا لو يسمى بالجاهل الشرير أولى من أن يسمى بالعالم النحرير ، فقد قال حكيم سوأة : لمن أعطى العلم فجزع لفقد الذهب والفضة أعطى السلامة والدعة فجزع لفقد الألم والتعب .

## الباب الثالث عشر

## تحقيق كون المال فى أيدى الناس

إن الله تعالى أوجد أعراض الدنيا بلغة فاعتدها الناس عقدة،وصير الدنيا مرتحلا

(١) لم يذكره المؤلف مع أن الإشارة فى البيت التالى تعود إليه .

ومقرا فصيروها موطنا ومقرا ، إلا قليلا أنزلوها حيث أنزلها الله تعالى وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله ( وقليل من عبادى الشكور ) تاجروا بها ربهم كما قال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة ) الآية . وأعراض الدنيا من وجه عارية فى أيدى الناس مستردة كما قال الشاعر :

وما المال والأهلون إلا ودائع      ولابد يوما أن ترد الودائع

ومن وجه منحة منحها الإنسان لينتفع مدة بدرها وينتفع به غيره ، ومن وجه وديعة فى يده رخص له فى استعمالها والانتفاع بها بعد أن لا يسرف فيها ، لكن الإنسان بجهله ونسيانه لما عهد إليه بقوله ( ولقد عاهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ) اغتر بها فظن أنها جعلت له هبة مؤبدة فركن إليها ولم يؤد أمانة الله تعالى ، ثم لما طولب بردها تصورت له وضجر فلم يبرح عنها إلا بنزع روحه أو كسر يده ، وبعضهم وهم الأقلون حفظوا ما عهد إليهم فتناولوها تناول العارية والمنحة والوديعة فأدوا فيها الأمانة وعلموا أنها مستردة فلما خرجت منهم لم يغضبوا ولم يجزعوا وردوها شاكرين لما نالوه منها ، ومشكورين لأداء الأمانة فيها ، وقد ذكر بعض العارفين فى ذلك مثلا فقال إنما مثل أرباب الدنيا فيما أعطوه من أعراضها كرجل دعا قوما إلى داره وأخذ طبق ذهب عليه بخور ورياحين فكان إذا دخل أحدهم ناوله إياه لا ليتملكه بل ليشمه ويناوله من بعده ، فمن كان جاهلا ظن أنه يملكه ، فلما استرجع منه ضجر ، ومن كان عالما تناوله فشمه ثم أعاده بانشراح صدر .

## الباب الرابع عشر
## تفاوت أحوال المتناولين لأعراض الدنيا

طلب الدنيا وتناولها على ثلاثة أضرب : الأول من يتناولها على أى وجه اتفق راكنا إلى المال غير متفكر إلا فى المال ، وإياه قصد تعالى بقوله ( يحسب أن ماله أخلده ) . الثانى من يتناولها على وجه يجب عليه تناوله ، وذلك إذا اقتصر على ما لا

تمكن التبليغ بأقل منه من الوجه الذى يجب كما يجب ، ولوجوب تناول هذا القدر قيل مباحات الصوفية فريضة وفريضتها مباحة ، يعنى أنه لا يقدم على تناول مباح حتى يضطر إليه . وروى من طلب رزقه على ماسن فهو فى جهاد ، وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « إن المؤمن ليؤجر فى كل شىء حتى اللقمة التى يضعها فى فى امرأته » ولم يعن أن كل أحد يؤجر فى ذلك ، وإنما أراد تخصيص المؤمنين الذين يراعون حكم الله عز وجل فى مكاسبهم وإنفاقهم ، ويتحرون به عبادة الله تعالى ، والضرب الثالث من يتوسع فى تناولها ولا يراعى فيه لكن يكون فيه وكيلا لله فيقتصر منه لنفسه على تناول بلغته ويجعل الباقى مصروفا إلى مادعى إليه فهذا أفضل ممن تقدم ذكره ، فإنه يصير بذلك من خلفاء الله تعالى فمن تناول الدنيا على أحد هذين الوجهين فقد ارتسم لله عز وجل فى قوله تعالى ( وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ) الآية وبالاعتبار بمثله قال تعالى ( قل من حرم زينة الله ) وقال ( ولقد كتبنا فى الزبور[1] ) الآية فجعلها لهم ، ثم قال ( إن هذا لبلاغا لقوم عابدين ) أى من تحرى عبادة الله تعالى فى تناول الدنيا فإنه يبلغ بذلك المقصود فى قوله ( وإن إلى ربك المنتهى ) وقال ( ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ) والفضل هو الإحسان ، فنبه بذلك على أن تناول المال إذا تحرى به الوجه الذى يجب كما يجب فهو فضل وإحسان ، وقال فى مدح قوم يتناولون الدنيا كما يجب ( رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ) الآية .

## الباب الخامس عشر

## فى بيان ماورد من الآيات المتفاوتة الظاهر فى شأن الدنيا

من تصور الوجوه الثلاثة التى تقدم ذكرها فى تناول الدنيا سقطت شبهته فيما ورد من الآيات والأخبار المتفاوتة فى الظاهر من ذم الدنيا وأعراضها تارة ومدحها تارة ، وذلك أن ما جاء فى ذمها فاعتبار بمن رضيها حظا لنفسه وجعلها قاضية مراده

(١) ( . . من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ) .

كما قال تعالى ( ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ) وما جاء فى مدحها فاعتبار بتناولها وإنفاقها على مايحمد ، وعلى ذلك قال على رضى الله تعالى عنه الدنيا دار نجاة لمن نهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ، والناس فيها رجلان بائع نفس فموبقها ومبتاع نفس فمعتقها ، وعلى هذين الوجهين مدح تارة عمارة الأرض فقال تعالى ( واستعمركم فيها ) وقال صلى الله عليه وسلم « من غرس غرسا ، فلم يأكل منه طائر ولا بهيمة إلا كانت له صدقة » وذم مرة عمارتها فقال تعالى ( أفلم يسيروا فى الأرض ) إلى قوله (وعمروها أكثر مما عمروها ) وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها » .

## الباب السادس عشر

## فى مراعاة أمور الدنيا والآخرة

الناس فى ذلك ثلاثة أصناف : صنف منهم المنهوكون فى الدنيا بلا التفات منهم إلى العقبى وهم المسمون عبد الطاغوت وشر الدواب ونحوها من الأسماء ، وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة ، يراعون العقبى من غير التفات منهم إلى مصالح الدنيا ، وصنف متوسط قد أعطوا الدارين حقهما ، وهذا الصنف هم عند الحكماء الأفضلون لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة ، ومنهم عامة الأنبياء ، لأن الله عز وجل بعثهم لإقامة مصالح المعاد والمعاش ، ولأن أمورهم مبنية على الاعتدال الذى هو أشرف الأحوال ، وأجدر أن تكون ثلاثتهم داخلين فى قوله تعالى ( وكنتم أزواجاً ثلاثة ) فالمراعى الدنيا والآخرة على مايحسن وكما يحسن من السابقين ، وجعل قوم السابقين هم النساك الذى رفضوا الدنيا محتجين فيه بقوله تعالى ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) وخفى على هذا الجاهل أن أعظم عبادة الله تعالى ما كان عائداً بمصالح عباده . وروى ابن مسعود رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » ولأنه كما يقبح أن يشتغل الإنسان بأمر دنياه وبدنه فيضيع أحد جزءيه المركب عليه، كذلك يقبح أن يضيع الجزء الآخر الذى

هو بدنه لأنه يصير مضاداً لله تعالى فى إبطال ما أوجده وأتقنه فإن قيل فقد قال بعض الحكماء الناس ثلاثة : رجل شغله معاده عن معاشه فذلك من الفائزين ، ورجل شغله معاشه عن معاده فذلك من الهالكين ، ورجل مشتغل بهما وذلك من الخاطرين . قال: وقد علم أن الفائزين أحسن حالا من الخاطرين ، قيل إن المنازل الرفيعة لاتنفك من مخاطرة ، ولم يقصد هذا القائل بذلك إلا تفضيل الفائز ، وإنما خوف أن يترشح لخلافة الله تعالى من هو قاصر عنها ، ويقوى ذلك ماروى أن بعض أولاد الملوك ممن تقوى فى العلم والحكمة اعتزل الملك وزهد فى الدنيا فكتب إليه بعض الملوك : قد اعتزلت مانحن فيه فإن عرفت أن ما أنت فيه أفضل فعرفنا النذر مانحن فيه ولاتحسبنى أقبل منك قولا بلا حجة ، فكتب إليه : أنا عبد الملك رحيم بعثنا إلى حرب عدو وعرفنا أن المقصد بذلك قهره أو السلامة منه ، فلما قربوا من الزحف صاروا ثلاثة أثلاث متحرراً طلب السلامة فاعتزل عنه فاكتسب السلامة وإن لم يكتسب المحمدة ، ومتهوراً قدم على غير بصيرة فجرحه العدو فهزمه فاكتسب بذلك سخط ربه ، وشجاعاً أقدم على بصيرة فقاتل وأبلى واجتهد فهو الفائز التام الفوز، وأنا لما وجدتنى ضعيفاً رضيت بأدنى الهمتين وأدون المنزلتين، فكن أيها الملك من أفضل الطوائف تكن أكرمهم والسلام على من اتبع الهدى .

## الباب السابع عشر

## بيان أحوال من يجوز له الاستكثار من أعراض الدنيا ومن لايجوز له ذلك

الاعتبار فى تناول الدنيا والاستكثار منها أو الاستقلال والزهد فيها أو الرغبة لتناول الكثير والقليل بل تناولها من حيث مايجب ووضعها كما يجب قال أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه : لو أن رجلا أخذ جميع مافى الأرض وأراد به وجه الله تعالى يسمى زاهداً ، ولو أنه ترك جميع مافى الأرض ولم يرد بتركه وجه الله تعالى لم يسم زاهداً ، ولا كان لله فى ذلك عابداً ، فليكن أخذك الذى تأخذه وتركك الذى

تتركه لله عز وجل لا لغيره ، واعلم أن الحكيم إذا تناول أعراض الدنيا جرى مجرى حاذق تناول حية قد عرف ضرها ونفعها وأمن سمها فيتحرى بتناولها الوجه الذى ينتفع هو به وينفع غيره فهو مباح له تناولها ، وغير الحكيم إذا تناولها فهو كجاهل استحسن الحية واستلان مسها فظن أنها مستصلحة لأن يتقلد بها فجعلها سخابا فى عنقه فلدغته وقتلته ، وما أحسن قول الشاعر :

هى دنيا كحية تنفث السم      وإن كانت فى المجسة لانت

فكما لا يجوز للجاهل برقية الحية أن يتناولها كذلك لا يجوز للجاهل أن يقتدى بالحكيم فى تناول أعراض الدنيا ، وكما أنه محال أن يسلك الأعمى من غير قائد طريقا وعرا يسلكه البصير إذ هو غير آمن أن يقع فى وهدة ، كذلك محال أن يسلك الجاهل مستبدأ برأيه فى تناول أعراض الدنيا طريقا يسلكه الحكيم العالم إذ هو غير آمن أن يقع فى هاوية ، وأيضا فالدنيا غانية رعناء كما قال :

شيم الغانيات فيها فلا أد      رى أنى الغانيات تحسبى أم لا ؟!

فكما أن الغانية لا يجوز أن يدخل عليها ويخلو بها من الرجال إلا من كان مجبوبا يؤمن عليها ، فكذلك الدنيا لا يجوز أن يتمكن منها إلا المقطوع عنها بالعفة والزهد لئلا تغره ، وذلك كأمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه حيث قال : ياحمراء ويابيضاء احمرى واصفرى وغرى غيرى هذا جناى وجناه فيه إذ كل جان يده إلى فيه ، ومن تصور ذلك علم أن الله تعالى قد أباح الدنيا لأوليائه علما منه أنهم لا يتناولونها إلا على ما يجب وكما يجب ، وإذا تناولوها وضعوها كما يجب حيث ما يجب ، وعلى هذا قال تعالى ( إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ) وقال ( إن الأرض يرثها عبادى الصالحون ) ، إلى غير ذلك من الآيات التى تقدم ذكرها .

## الباب الثامن عشر

## ما ينال أرباب الدنيا من العقوبات الدنيوية

لله تعالى عقوبات فى معاقبة من تناول مالا يجوز له تناوله من الدنيا أو تناول من الوجه الذى يجوز ، لـكنه لم يوف حقه ، إحدى العقوبتين ظاهرة للبصر والبصيرة وذلك كعقوبات من غصب مالا مجاهرة أوسرقة وكمن منع حق الله تعالى من الزكاة فإن عقوباتهم ظاهرة أمر السلطان بإقامتها ، والثانية عقوبة خفية عن البصر مدركه ببصائر أولى الألباب ، كعقوبة من تناول مالا من حيث لايجوز له تناوله أو منعه من حيث لايجوز منعه إلا على وجه فيه حد أمر السلطان بإقامته ، فهذا عقوبته ما روى أى امرىء سكن قلبه حب الدنيا بلى بثلاث شغل لا يبلغ مداه ، وفقر لايدرك غناه، وأمل لايدرك منتهاه . وما قال عليه الصلاة والسلام « من كانت الدنيا أكبر همه شتت الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يبال الله به فى أى واد من الدنيا هلك» وعليه ( إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ) وقوله تعالى ( ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ) ليس يعنى قلة المعيشة وإنما يعنى مايقاسى من الهموم والغموم التى تـكدر العيش .

## الباب التاسع عشر

## ذكر الإنفاق المحمود والمذموم

الإنفاق ضربان محمود ومذموم ، فالمحمود منه ما يكسب صاحبه العدالة وهو بذل ما أوجبت الشريعة بذله ، كالصدقة المفروضة والإنفاق على العيال ، ومنه ما يكسب صاحبه أجراً وهو الإنفاق على من ألزمت الشريعة الإنفاق عليه ، ومنه ما يكسب الحرية وهو بذل ماندبت الشريعة إلى بذله فهذا يكسب من الناس شكراً ومن ولى النعمة أجراً . والمذموم ضربان : إفراط وهو التبذير ، والإسراف ، وتفريط وهو التقتير والإمساك ، وكلاهما يراعى فيه الـكمية والـكيفية بأن يضعه فى غير موضعه ،

والاعتبار فيه بالكيفية أكثر منه بالكمية ، فرب منفق درهما من ألوف هو فى إنفاقه مسرف وببذله مفسد ظالم كمن أعطى فاجرة درهما أو اشترى خمرا ، ورب منفق ألوفا لا يملك غيرها هو فيه مقتصد وببذله محمود ، كما روى فى شأن الصديق رضى الله تعالى عنه(١) ، وقد قيل لحكيم متى يكون بذل القليل إسرافا والكثير اقتصادا ، قال إذا كان بذل القليل فى باطل والكثير فى حق ، والتقتير من جهة الكمية أن ينفق دون ما يحمله حاله ، ومن جهة الكيفية أن يمنع من حيث يجب وينفق حيث لا يجب، والتبذير عند الناس أحمد لأنه جود لكنه أكثر مما يجب ، والتقتير بخل ، والجود على كل حال أحمد من البخل لأن رجوع المبذر إلى السخاء سهل ، وارتقاء البخيل إليه صعب ، ولأن المبذر قد ينفع غيره وإن أضر بنفسه ، والمقتر لا ينفع نفسه ولا غيره ، وقد يقال إن التبذير فى الحقيقة أقبح لما فيه من الإسراف ولأن بجانبه حقا مضيعا ولأنه يؤدى بصاحبه إلى أن يظلم غيره ، ولهذا قيل المبذر أغدر من الظالم لأنه جهل بقدر المال الذى هو سبب استبقاء الناس ، والجهل رأس كل شر ، والمتلاف ظالم من وجهين لأخذه من غير موضعه وصرفه كذلك ، ولكثرة مذام الإسراف ذمه الله تعالى أكثر من البخل فقال ( ولا تبذر تبذيرا ) وقال عز وجل ( ولا تجعل يدك مغلولة إلى [ عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ] ) الآية أى ملوما من جهة سائلك فلم تجد ما تعطيه ، ومحسوراً عن بلوغ مرادك ، قال المتنبى :

فلا ينحلل فى المجد مالك كله      فينحل مجد كان بالمال عقده
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله      ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

وليس الإسراف متعلقا بالمال فقط بل بكل شىء وضع فى غير موضعه اللائق به ، ألا ترى أن الله تعالى وصف قوم لوط بالإسراف لوضعهم البذر فى غير المحرث.

---

(١) حينما بذل — رضى الله عنه كل ما يملك فى سبيل الله ، وعندما سأله — صلى الله عليه وسلم — ماذا أبقيت لعيالك قال أبقيت لهم الله ورسوله .

فقال ( بل أنتم قوم مسرفون[١] ) ووصف فرعون بقوله ( إنه كان عاليا من المسرفين ) وقوله ( وإنه لمن المسرفين ) .

## الباب العشرون

### حقيقة السخاء والجود والبخل

السخاء هيئة للإنسان داعية إلى بذل القنيات حصل معه البذل أو لم يحصل ، ويقابله الشح ، والجود بذل المقتنى ، ويقابله البخل ، هذا هو الأصل ، وإن كان كل واحد منهما قد يستعمل فى موضع الآخر ، ويدلك على هذا الفرق أنهم جعلوا الفاعل من السخاء والبخل على بناء الأفعال الغريزية فقالوا : شحيح وسخى وقالوا : جواد وباخل ، وأما قولهم بخيل فمصروف عن لفظ الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم ، ولكون السخاء غريزة لم يوصف البارى تعالى به ، وقد عظم الله أمر الشح وخوف منه ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » فخص المطاع لينبه على أن وجود الشح فى النفس ليس مما يستحق به الذم ، إذ هو ليس من فعله ، وإنما ذم بالانقياد له ، فقال تعالى ( ومن يوق شح نفسه ) وقال ( وأحضرت الأنفس الشح ) وقال عليه الصلاة والسلام « لا يجتمع شح وإيمان فى قلب عبد » .

## الباب الحادى والعشرون

### فضيلة الجود وذم البخل

الجود على ألسنة الورى محمود ، ولذلك قيل كفى بالجود حمداً أن اسمه مطلقا لا يقع إلا فى حمد ، وكفى بالبخل ذما أن اسمه مطلقا لا يقع إلا فى ذم ، وقيل لحكيم أى فعل البشر أشبه بفعل البارى تعالى فقال الجود، وقال عليه الصلاة والسلام « الجود

---

(١) حينما اتخذوا الرجال شهوة من دون النساء .

شجرة من أشجار الجنة من أخذ بغصن من أغصانها أداه إلى الجنة ، والبخل شجرة من أشجار النار من أخذ بغصن من أغصانها أداه إلى النار» ومن شرفه أن الله تعالى قرن ذكره بالإيمان ووصف أهله بالفلاح والفلاح اسم جامع لسعادة الدارين ، فقال ( الذين يؤمنون بالغيب ) إلى قوله ( هم المفلحون ) وحق للجود أن يقرن بالإيمان فلا شيء أخص به وأشد مجانسة له منه فمن صفة المؤمن انشراح الصدر ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإيمان ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ) وهما من صفات الجواد والبخيل ، لأن الجواد يوصف بسعة الصدر الإنفاق ، والبخيل يوصف بضيق الصدر للإمساك ، وقال عليه الصلاة والسلام «أى داء أدوى من البخل » والبخل ثلاثة أضرب بخله بماله وبخله بمال غيره على غيره وبخله على نفسه بمال غيره وهو أقبح الثلاثة ، والباخل بما فى يده باخل بمال الله على نفسه ، فقد تقدم أن المال عارية فى يد الإنسان مستردة ، ولا أحد أجهل ممن لا ينقذ نفسه ، من العذاب الأليم الدائم بمال غيره ، سيما إذا لم يخف من صاحبه تبعة ولا ملامة ، والكفاية الإلهية متكفلة بالتعويض للمنفق فقد قال عليه الصلاة والسلام « اللهم اجعل لمنفق خلفا ولممسك تلفا » وقال « إن الله عز وجل ينزل المعونة بقدر المؤونة » وروى : من وسع وسع عليه .

## الباب الثانى والعشرون

## أنواع الجود والمجود به

الجود خمسة أضرب جود الله تعالى وهو البذل على كل أحد بقدر استحقاقه ، وجود الملوك وهو بسط المال على العفاة غنيهم وفقيرهم ، وجود السوقة وهم دون الملوك وهو بذل المال للسؤال ، وجود الصعاليك وهو البذل للندامى والشرب ، وجود عوام الناس وهو الإحسان إلى الأقارب ، والمحمود من ذلك كله الجود الإلهى وهو الجود على كل بقدر استحقاقه ، فالمعطى مايحتاج إليه لمن لا يحتاج إليه مسرف

مضيع ، والمعطى لغيره شيئاً لرهبة واق نفسه والمعطى لرغبة له لمثوبة أو لمحمدة دنيوية فتاجر . وأما قول بشار :

فتى يشترى حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور

فليس بغاية فى الوصف بالجود التام لمن وصف بتجارة محمودة ، وأحسن منه قول ابن الرومى :

وتاجر البر لا يزال له ربحان فى كل متجر تجره

أجر وحمد وإنما طلب الـ أجر ولكن كلاهما اعتوره

وقد أجاد بشار بقوله :

ليس يعطيك للرجاء ولا للخوف لكن يُلَذُّ طعم العطاء

# الفصل السابع فى ذكر الأفعال

## الباب الأول

## فى أنواع الأفعال

الأفعال ضربان إلهى وإنسانى ، فالإلهى أربعة أضرب : إيداع وتكوين وتربية وإحالة ، وجميع ذلك يسمى خلقاً من حيث كان وجود كل واحد بمقدار ، والخلق فى الأصل التقدير المستقيم ، فالأول الإبداع وهو إيجاد الشىء دفعة لا عن موجود ولا ترتيب ولا عن نقص إلى كمال ، وليس ذلك إلا للبارىء تعالى ، وإن كانت العرب تستعمل الإبداع فيمن يحفر بئراً فى مكان لم يحفر فيه قبل . والثانى التكوين وهو إيجاد الشىء عن عدم بترتيب ومن نقص إلى كمال ، والمتكلمون قد يستعملون التكوين موضع الإبداع ، ولما هفوا عن حقيقة التكوين استشنعوا قول من قال السماء ليست بمكونة وقدروا أنه يقول ليست بمبدعة ولا مخلوقة ، وإنما أراد هذا القائل فيما ذكره أصحابه ودل عليه كلامه أن الله تعالى أبدعها إبداعاً ، كما قال

الله تعالى ( بديع السموات والأرض ) ولم يخلقها خاقة ناقصة فى ابتداء نشأتها ثم كملها شيئاً فشيئاً كالحيوان والإنسان والنبات . والثالث تربية الشيء وهى تغذيته وذلك استخلاف ما تحلل من أبدان ما وجد من كون ليبقى المدة المضروبة له وبه وقيل له تعالى رب العالمين : والرابع إحالة الشيء وهى التغايير اللاحقة للكائنات فى كيفياتها من لون وطعم ورائحة . والفعل الانسانى ثلاثة أضرب : نفسانى فقط وهو الأفكار والعلوم وما ينسب إلى أفعال القلوب ، وبدنى وهو الحركات التى يفعلها الإنسان فى بدنه كالمشى والقيام والقعود ، وصناعى وهو مايفعله الإنسان بمشاركة البدن والنفس كالحرف والصناعات .

## الباب الثانى
## الفرق بين الفعل والعمل والصنع

الفعل لفظ عام يقال لما كان بإجادة أو غيرها بعلم أو غيره بقصد أو غيره ، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات . وأما العمل فيقال لما كان من الحيوان دون ما كان من الجمادات وبقصد وعلم دون غيره . قال بعض الأدباء : العمل مقلوب عن العلم وإن العلم فعل القلب والعمل فعل الجارحة ، وهو يبرز عن فعل القلب الذى هو العلم وينقلب عنه ، وأما الصنع فإنه يكون من الإنسان دون سائر الحيوان ، ولا يقال إلا لما كان بإجادة ، ولهذا يقال للحاذق المجيد والحاذقة المجيدة صنيع وصناع ، والصنع قد يكون بغير فكر لشرف فاعله ، والفعل قد يكون بلا فكر لنقص فاعله والصنع أخص المعانى الثلاثة والفعل أعمها والعمل أوسطها ، فكل صنع عمل وليس كل عمل صنعاً وكل عمل فعل وليس كل فعل عملا ، وفارسية هذه الألفاظ تنبئ عن الفرق بينهما فإنه قيل للفعل ( كار ) وللعمل ( كردار ) وللصنع ( كنش ) .

## الباب الثالث

## أنواع الصناعات

هى ضربان علمى وعملى ، فالعملى ما يستغنى فيه عن الاستعانة بالجوارح من اليد أو الرجل كالمعارف الإلهية والحساب ، والعملى ما يستعان فيه بالجوارح وهو ضربان : الأول ينقضى بانقضاء حركة الصانع كالرقص،والثانى شىء يبقى له أثر معقول لا محسوس كالطب، وضرب محسوس كالكتابة.

## الباب الرابع

## الأفعال الإرادية وغير الإرادية

الفعل الذى يظهر من غير الله تعالى إما تسخيرى وإما غير تسخيرى ، فالتسخيرى يظهر لا بقصد ممن يظهر منه وقد يكون ذلك من الجماد والحيوان وهو نوعان : نوع بتسخير الله تعالى كإحراق النار وتبريد الثلج ، وضرب بتسخير البشر كطحن الرحى ، وأما غير التسخيرى فضربان : ضرب يكون من فاعله مبدأ الإرادة وهو ثلاثة : الأول بحسب التميز كمن تناول الخير دون الشر مؤثرا له ، والثانى بحسب الغضب كمن يبطش بمن يقدر عليه . والثالث : بحسب الشهوة كمن تناول ما اشتهاه ، والذى لا يكون منه مبدأ الإرادة ولا منتهاها كمن رمى غرضا فأصاب رجلا ، وضرب يكون منه مبدأ الإرادة ولا منتهاها ، كمن حصل فى سفينة فخاف الغرق فكلف أن يلقى متاعه فى الماء ليتخلص ، والأفعال من الجمادات تقع بالتسخر فقط ومن الحيوانات تقع بالتسخر وبالنزاع الذى تقضيه القوة الشهوية ، ومن بعض الحيوانات تقع بهما وبالغلبة التى تقضيها القوة الغضبية ، ومن الإنسان تكون بكل ذلك وبالفكرة التى تقتضيها القوة العاقلة .

## الباب الخامس

## مايستحق به اللوم ومالا يستحق

الأفعال ضربان إرادي وضرب غير إرادي، والإرادي ضربان ضرب عن روية وضرب لاعن روية، والذى عن روية ضربان أحدهما الذى عن روية تظن فى غاية الشرف وهو مايكون بحسب النفس الناطقةويسمى الاختيار وهو طلب ماهو خيرله ويستحق أبدا به الحمد إذا كان على الحقيقة اختيارا . والثانى عن روية فيما ليس هو فى غاية الشرف، وذلك إما بحسب القوة الغضبية وهو دفع مايضره وإما بحسب القوة الشهوية، وكل واحد منهما إذا كان بقدر مايوجبه العقل يستحق به الحمد،وإذا كان زائد أو ناقصا يستحق الذم ، والإرادى الذى عن غير روية واختيار ضربان أحدهما مايفعله فى نفسه والثانى بغيره وكل ضربان نفع وضر فما قصد به نفع نفسه فقد يستحق به الحمد والشكر معا، وماقصدبه ضر نفسه فقد يستحق به الذم والعتب عليه، وغير الإرادى ثلاثة أضرب . الأول يكون قسريا ومبدأه من خارج ولايكون من أربابه معونة بوجه كمن رفعته ريح فسقط على آنية فكسرها .والثانى أن يكون إلجائيا كمن أكرهه سلطان على فعل ما، وهذا متى كان الملجأ إليه قبيحا جدا والسبب الملجىء إليه خفيفا يستحق مرتكبه الذم كمن يضرب على أن يقتل إنسانا، ومتى كان الملجأ إليهليس بحميد بل قبيح، وكان السبب الملجىء إليه عظيما لا يستحق مرتكبه الذم كمن يوضع على حلقه السيف فيهدد بأن يقتل إن لم يتكلم بكل قبيح وكلاهما يقال له الإكراه، والثالث : الخطأ وهو مايكون مبدأه من صاحبه، وذلك نوعان. أحدهما ماتولد عن فعل وقع منه وله أن يفعله، كمن يرمى هدفا فيصيب إنسانا وذلك يستحق به ملامة مالم يقع من صاحبه تقصير فى الاحتراز، والثانى مايتولد عن فعل ليس له أن يفعله كمن شرب فسكر فحمله سكره على أن كسر إناء، وضرب إنسانا فإن ذلك يستحق الملامة، وإن لم يكسر الإناء وضرب

الإنسان فقد ارتكب محظورا أدى به إلى وقوع ذلك منه ، فالضرب الأول يقال له أخطأ فهو مخطىء ، والثانى يقال له خطىء فهو خاطىء ، ولهذا قال أهل اللغة : خطىء فى العمد وأخطأ فى غيره .

## الباب السادس

## الأسباب التى يمكن نسبة الفعل إليها

أكثر الأسباب التى يحتاج الفعل إليها فى وجوده عشرة أشياء ، فإنه يحتاج إلى فاعل يصدر عنه الفعل كالنجار ، وإلى عنصر يعمل فيه كالخشب ، وإلى عمل كالنجر ، وإلى زمان ومكان يعمل فيهما وإلى آله يعمل بها كالمنجر والمنحت ، وإلى غرض قريب كاتخاذ النجار الباب ، وإلى غرض بعيد كتحصن البيت به ، وإلى مثال يعمل عليه ويقتدى به ، وإلى مرشد يرشده ، وكل ذلك قد ينسب إليه الفعل فيقال أعطانى زيد إذا باشر الإعطاء ، وأعطانى الله لما كان هو الميسر له ، وربما جمع بين السبب البعيد والقريب فيقول أعطانى الله وزيد قال الشاعر :

حبانا به جدنا والإله    وضرب لنا أجزم صارم

فنسب إلى الأول وهو الله عزوجل وإلى السبب التأخر وهو الضرب وإلى المتوسط وهو الجد . وقال تعالى ( الله يتوفى الأنفس حين موتها ) قال تعالى ( قل يتوفاكم ملك الموت ) فأسند الأول إلى الآمر به والثانى إلى المباشر له ، وقال الشاعر فى صفة الدرع :

وأبسنيه المالكى    وقال كساهم محرق

فنسب الفعل إلى عاملها وفى الثانى إلى مستعملها ، وقال فى صفة نبال :

نبال كستها ريشها مضرحية(١)

فنسب كسوتها إلى الطائر الذى أخذ ريشه فجعل لها ، وقيل يداك أو دكتا وفوك

---

(١) المضرحى : الصقر الطويل الجناح .

نفخ فنسب الفعل إلى الآلة المتصلة . ويقال سيف قاطع فينسب إلى الآلة المنفصلة وقيل ضرب فيصل وفاصل وطعن حائف فنسب إلى الحدث ، وقيل سر كاتم وعيشة راضية فنسب إلى المفعول ، وقال عز وجل (حرما آمناً)فنسب إلى المكان ، وقيل يوم صائم وليل ساهر قال :

وماليل المطى بنائم

فنسب إلى الزمان ، فلما كانت أفعالنا على ذلك صح فى الفعل الواحد أن ينسب لأحد الأسباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين وعلى ذلك قوله :

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى حسن اللقاء حرمت من لم تحرم

فأثبت له الفعل ونفاه عنه معاً بنظرين مختلفين ، ويقال هذا الخشب قطعته أنا لا السكين ،ويقال قطعه السكين ولم أقطعه، وفلان هداه الله وهداه الرسول وهداه القرآن وهداه فهمه ، فنسب إلى كل ذلك ، وقال وأضله الله لما كان تعالى هو السبب الأول فى وجوده ووجود الآلة، وإن لم يكن تعالى هو الداعى إلى الضلال ، ويقال أضله الشيطان لما كان هو الداعى إلى الضلال ، وأضلته نفسه لما تركت الاحتراز ، وهذا فصل من تأمله لم يعتمد فى تثبيت المعانى على مثلها من الألفاظ ، فينظر من اللفظ إلى المعنى بل ينظر فى مثل هذا من المعنى إلى اللفظ . واعلم أن من أجل هذا الذى قدمناه قال قوم من المحصلين لا شىء من الأفعال فاعله واحد فى الحقيقة إلا الله عز وجل فإن فعله عزوجل يستغنى عن الزمان والمكان والمادة ومثال يحتذيه، ومن عداه من الفاعلين لا بد له من كل ذلك أو بعضه ، ولهذا لا يصح أن ينسب الإبداع إلى غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازاً ، ويصح أن ينسب فعل الله تعالى إلى كل ما تقدم ذكره .

* * *

# خاتمة

قال الشيخ أبو القاسم الراغب رحمه الله تعالى هذا آخر ما قصدت تبيينه من هذا المعنى. وأختم القول بحمد الله والثناء عليه والتضرع إليه فى أن ينفعنى وإخوانى فيما تحريته، ويجعلنى ممن تذكر فذكر وتبصر فبصر واتعظ فوعظ وتيقظ فأيقظ ، فأعظم المحنة أن يأمر من لا يأتمر ويزجر من لا ينزجر وأن يدعى الحكمة من يرى القذى فى عيون إخوانه فينكرها ، ويرى الجذع المعترض فى أجفانه ولا يغيرها فنصح غيره وغش نفسه :

كمن كسى الناس من عرى وعورته للناس بادية ما أن يواريها

وكالمسن يسن الحديد ولا يقطع ، وكالصخر الصلد يمر به الماء الناقع ولا ينتفع هو به ، وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله ينصر هذا الدين بقوم لا خلاق لهم » .
ونرغب إليه تعالى أن يجعلنا برحمته ممن ائتم بالنبى صلى الله عليه وسلم حيث قال « بادر خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ،وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك » فما أعظم فى القيامة الحسرة والندامة إن لم يتغمدنى الله برحمته التى وسعت كل شىء ، فسهل يارب الجاز ويسر لى بالجواز ، فقد حان حصادى ولم يصلح فسادى . وصلى الله وسلم على خاتم النبيين ، واجعله من الشافعين آمين .

* * *

تم بحمد الله وحسن توفيقه كتاب : ( الذريعة فى أحكام الشريعة ) وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

# فهرست كتاب الذريعة

صحيفة



## الفصل الأول

صحيفة



## الفصل الثانى

صحيفة

صحيفة



## الفصل الثالث

صحيفة



## الفصل الرابع

صحيفة

## الفصل الخامس



## الفصل السادس

صحيفة



## الفصل السابع



تمت الفهرست بحمد الله

---

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥٨٥ لسنة ١٩٧٣

مطبعة حسان
٢٤١ أ شارع الجيش - القاهرة

